فهرس

المجلد
الأول

العـدد
الحادي عشر

أپولو

مجلة فنية لخدمة الشعر العربي

لسان حال جمعية ابولو

عـدد خاص

بذكرى المغفور له

محمد حافظ ابراهيم بك

١٨٧١ — ١٩٣٢ م.

مطبعة التعاون



شاعر الوطنية المصرية

محمد حافظ ابراهيم بك

(من ريشة الفنان المصرى محمد محسن بدوى)



فى الحادى والعشرين من يولية سنة ١٩٣٢ م . ودَّع شاعرُ مصر الكبير محمد حافظ ابراهيم أنفاسَ الحياة الدنيا فذهب بذهابه أعلى صوتٍ وطنى عرفته مصر من فوق منبر الشعر .

وقد أصدرت زميلتنا (السياسة) فى ٢ سبتمبر من العام الماضى عدداً خاصاً به كما عُنيت الصحفُ والمجلاتُ والجمعياتُ الأدبية فى العالم العربى بدراسته وتأبينه أسابيع متوالية ، الى أن فُجِعَ العالم العربى بنعى شاعر العربية الأشهر أحمد شوقى بك فى الرابع عشر من سبتمبر الماضى فباتت فجيعةُ العربية مزدوجةً بوفاة علمين من أشهر أعلام الشعر العربىّ فى عصره الحديث ، واهتمت الصحافةُ العربيةُ بأداء واجبها الادبى نحو ذكراها . وقد أصدرت هذه المجلةُ عددها الخاص بذكرى شوقى فى ديسمبر الفائت ورأت من أقدس الواجبات عليها إصدارهذا العدد الخاص بذكرى حافظ لمرور سنة على وفاته .

ونحن لا نحبّ التكرارَ كما لا نُعنى بما عُنى غيرنا بتناوله من الدراسات السابقة فجعلنا كلَّ بحوث هذا العدد جديدة خاصةً بهذه المجلة ، وبذلنا جهدنا فى الاختيار وتخلَّينا عن مألوف الرثاء شعراً ونثراً قانعين بالجديد المفيد أو بالنقد الجدّى الممتع .

وكيفما كان الحكم الفنّى على شعر حافظ فلا يمكن لأية جمعية شعرية تحترم نفسها الاَّ أن تحفل بذكراه — ذلك لأن حافظ يمثل حلقةً قويةً من حلقات الاتصال والتقدم فى تاريخ الشعر المصرى بل فى تاريخ الشعر العربى ، كما أنهُ كان اللسان الفصيح لآمال مصر وآلامها فى زمن تفشى فيه العىّ والجبن بل البكم بين الشعراء ، وحسبك من شاعرٍ أن يكون لسان أمته المبين فى مثل تلك الظروف ، وليس من الانصاف أن تكتفى بوزن شاعر وزناً مطلقاً ولا تزنه وزناً نسبياً . ليس من الانصاف مثلاً أن تنسى ظهور البارودى فى زمن تفشت فيه الأمية والروحُ العاميةُ والضعفُ اللغوىُّ ، وضاعت ملكة البيان الشعرى ، فظهر ذلك

الشاعر المتفوّق التقليدى ليعيد للأدب الشعرى مجده القديم ولبتتلمذ عليه حافظ وأنداده . واذا كنا نحن الشعراء المحدثين لا يرضينا روحُ التقليد المضيع للشخصية الفنية ، فهيهات أن ننسى فضلَ أعلام المحافظين أمثال البارودى وشوقى وحافظ فى استرجاع الثقة الأدبية لاستئناف سير القافلة بعد وقوفها. على هذا الأساس نكبر مجهودات الاعلام السابقين من شعرائنا وإن أصبحت فى ذمة التاريخ ومآلها فى الغالب أن لا تكون لها أكثر من صفة أكاديمية لأثر من الآثار الأدبية التاريخية.

كان حافظ فليسوفاً اجتماعياً وسياسياً بسليقته ، وكان خبيراً بالرجال بعيد النظ ، ولذلك كان موفّقاً فى أكثر من موقف كشاعر زعيم، ولكن الطبيعة هيأته ليكون فى الاكثر ترجماناً لأمته ، وقد أحسن التعبير عنها أيّما احسانٍ ، وكان جريئاً كلَّ الجراءة فى تعبيره كلما أُتيح له ذلك . وبعد هذا كان حافظ شاعرَ العروبة ، وكان لإخلاصه أثرٌ بعيدٌ فى احياء روح التآخى والتعاون بين أبنائها ، وعلى الأخص بين المصريين والسوريين .

وقد عِيبَ على معظم الشعراء أنهم ينزعون إلى القديم وينظرون دائماً إلى الى الخلف ، ولكن حافظ برغم المحافظة التى قيد نفسه بها مضطراً ومختاراً كان فى طليعة من ندّدوا بذلك وهو القائل مخاطباً « الشعر » :

ضِعتَ بين النُّهَى وبين الخيالِ ... يا حكيمَ النفوسِ يا ابنَ المعالى
ضِعتَ فى الشرقِ بين قوم هُجود ... لم يُفيقوا وأمةٍ مِكسالِ
قد أذالوكَ بين أُنسٍ وكأسٍ ... وغرامٍ بظبيةٍ أو غزالِ
عِشتَ ما بينهم مُذ الآنَ مُضاعاً ... وكذا كنتَ فى العُصُورِ الخوالى
آنَ يا شعرُ أن نفكَّ قُيُوداً ... قيَّدتنا بها دعاةُ المُحالِ
فارفعوا هذه الكمائمَ عنّا ... ودعونا نشمّ ريحَ الشمال !

والقائل أيضاً :

ملأنا طباقَ الأرض وجداً ولوعةً ... بهندٍ ودعدٍ والربابِ وبوزعِ
وملّتْ بناتُ الشعرِ منّا مَواقفاً ... بسقطِ اللوى والرقمتين ولعلعِ
تغيرتْ الدنيا وقد كان أهلُها ... يرون مُتونَ العيس ألينَ مضجعِ

وكان بريدُ العلمِ عيراً وأينقاً ... متى يَعيها الايجافُ فى البيد تظلعِ
فأصبح لا يرضى البُخارَ مطيّةً ... ولا السلكَ فى تياره المتدفّعِ
ونحن كما غنّى الأوائلُ لم نَزَل ... نغنّى بأرماحٍ وبيضٍ وأدرعِ
عرفنا مدَى الشىء القديم فهل مدًى ... لشىء جديدٍ حاضرِ النفعِ ممتعِ ؟

وشعرُه مرآةٌ صادقةٌ لمجتمعه، ونهزةٌ تحفزهم الى الأمام، ونورٌ وجّهه الى طريق المستقبل المأمون :

قصائدٌ هى للآدابِ مَفخرةٌ ... سارتْ مَسيرَ الهُدَى فى كل مُضْطرَبِ
وما يزال دوىٌّ مِنْ وقائعها ... فى مِسمعِ الدهرِ للاجلالِ والرَّهَبِ
فى كلّ بيتٍ شُواظُ النار مُزْعِجَةً ... للغاصبينَ وهزّاتُ القَنَا السُّلُبِ
وكلٌّ غضبةِ صِدقٍ منه بالغـةٍ ... فصلُ الخطابِ وآياتٌ من الخُطَبِ
مُرَدَّدَاتٍ بايمـانٍ كأنَّ بهـا ... مَجامعَ الوَحْىِ عن مَاضٍ من الحِقَبِ !

وقد كان حافظ فى كلّ شعره يعمل للتقدم ، فكان له أثره فى النهضة الحاضرة وحتى فى أمداحه « للدولة العلية » لم يكن مدفوعاً الى ذلك بحبّ الاستبداد وهو الذى كرهه منذ نشأته ، ولا بحبّ الرفد والجاه فقد سُدّتْ الأبوابُ فى وجهه ، ولا بمراعاة الاعتبارات الرسمية إذْ لم يكن بالموظف حينذاك ولم يكن له شأن بالقصر، ولـكنه كان مدفوعاً بروح السياسى الذى يرى نفعَ أمتـه مرتبطاً بعظمة تركيـا الاسلامية ، وكذلك كانت وجهةُ نظر المغفور له مصطفى كامل وسواه من الساسة المصريين فى ذلك العهد الى أن ظهر أحمد لطفى السيد بك وحزب الأمة بالسياسة المصرية البحتة . فلئن جارى حافظ بيئته فما كان ذلك الاّ فى الاحساس العـام ولم تـكن مجاراة الضرير ، ولئن جارى المتقدمين أحايين فى أساليبه فذلك من تأثـير محفوظه الـكثير ومن تأثير تعاليم أستاذه البارودى الذى أراد أولاً أن يستعيد أزهى عصور الشعر العربى .

ومما عِيبَ على معظم شعراء العربية حتى المعاصرين منهم عنايتهـم بالموسيقى اللفظية لا أكثر ولا أقلّ ، ولـكن حافظاً ضمّن شعره الـكثير من علل المجتمـع وما رآه من العلاج لها بروح المرشد الأمين حتى لُقّب بالشـاعر الاجتماعى ، فلا نـكون منصفين إذا اعتبرنا ذلك النقـدَ فى غير تحديدٍ منطبقاً عليه . واذا طبقناه

عليه فانما ذلك لان حافظا كانت له طبيعة شعرية عرفها جلساؤه فى مرتجلاته البديعة ولكنه أفسدها بمطاوعته المتحذلقين وبحرصه على ارضاء القُدامى من الأزهريين وغير الأزهريين (على نحو ما فعل المرحوم شوقى بك فى أحايين) فكانت النتيجةُ أنه صار غالباً الشاعر النحّات المتعمّل بدل أن يكون الشاعر الحرّ المطبوع ، وحبَسَ فى نفسه أو ضاعَ فى مجالسه وفى مَباذله خيرُ شعره العاطفىّ الوجدانىّ لأن التقاليد كما قدمنا كانت تأبى عليه تدوين الشعر المرتجل المطبوع ، وطالبُ الشهرة مضطر عادة إلى مراعاة التقاليد ، وما كان لحافظ كما لم يكن لشوقى إغفال هذا الاعتبار .

ومعرفتنا بحافظ أكثر من ربع قرن أقنعتنا بصحة فطرته الشاعرة التى زكتْ فى بيئة الامام محمد عبده بقدر ما أصبحت أسيرةً لتقاليد الصناعة واللغة . فكان حافظ إذا أفلتَ من ذلك الأسر يجىء لنا مرة بالممتاز المعجب ، وأخرى بالمبتذل الذى لا يعلو فوق مستوى مقالة صحفية منظومة ، وما ذلك الاّ لأنه تارةً يعبّر عن نفسه أصدقَ تعبيرأو يُدْفَع دَفْعاً باحساس أمّتهِ إلى ذلك من حيث يدرى أو لا يدرى ، ومرة أُخرى يشعر بمنزلته من الشعب فينظم بعقله الواعى وحده لارضاء الجمهور فيبتعد بذلك عن الشعر الفنى ولا يُنصف سمعته الأدبية .

لم يكن حافظ إذن بالرجل الرجعىّ وإن كان محافظاً فى حدودٍ ، ولئن كان ممن نظروا إلى الشعر كلون من ألوان الغناء وممن آثروا اللفظ على المعنى متناسياً أن الشعر روحٌ وتَصوّفٌ أى اندماج كونى فى الجمال والحياة قبل كل اعتبار آخر ، فقد جاءَ شعرُه صوتاً للنهضة الوطنية وأحياناً دليلاً لها ، فلا يصحّ إذن أن يقال عن شعر حافظ إنه صيغةٌ أخرى من السجع ومن فنون الترف والترهّل الذهنى ، وان المقصود إليه من شعره مجرد الايقاع واللهو اللفظى الذى يخرجه من دائرة الشعر الرفيع إلى دائرة الموسيقى المألوفة كما هو نظم الكثيرين . لقد جمع حافظ بين المتناقضات فرضخ للبيئة اللغوية المحافظة التى اتصل بها فى كثير وثار عليها أحياناً ، فكان يذهب من النقيض إلى النقيض ، ولو أنه اكتفى بالتضلع اللغوى ثم أطلق نفسه على سجيتها لجاءَت حريةُ تعبيره منسجمةً منظّمةً لا اضطراب فيها ولا تبذّل ، وهو الاضطراب والتبذل اللذان يتعرّض لهما السجينُ الذى يظفر بحريته ثائراً بعد حبس طويل ولكن ليعود إلى ذلك الحبس ثانية ، فهى حرية غير مأمونة وتكييفها ونتائجها على مثالها .

إن حافظاً شاعرٌ حاضر البديهة سريع التأثر (impressionist) ولكنه أفسد

طبيعتَه بالصناعة بدل إطلاقها على سجيتها ، وفلول المدرسة القديمة التى أساءت اليه وإلى الشعر العربى بتوجيهه الى ناحية النظم الذى لا ينسجم وطبيعته ما تزال تحاول الضغط على المدرسة الحديثة لتنهج ذلك النهجَ العقيم فى حين أنّ لكل شاعر فطرته وطريقته التى لن يجنى خيراً ما بتجاهلها ومعارضتها . ونحن لا ندرى ما ذا استفاد الشعرُ العصرىُّ من اقلال حافظ الصناعى وهو المكثر بطبيعته ، أو من مقاومة فطرته السمحة السهلة . ويقيننا أنه لو لا ذلك لكان انتاج حافظ لا يقل عن انتاج شوقى ، ولكان شعره مطبوعاً بطابع مصرى جميل ، ولجاء جامعاً للكثير من صُوَرِ الحياة المصرية عاطفةً ووصفاً ، تاريخاً ووعظاً ، ولتنوعت مظاهرُه ، وربما كان قد اكتسح المسرح المصرى أيضاً .

ولا يسع المؤرخ الأدبى الذى يترجم لحافظ أن يغفل المنافسةَ الشاذّة التى كانت بين حافظ وشوقى ، ثم سَرَتْ عدواها إلى شعراء آخرين ، ثم تشكّلت بصورة حرب بين المحافظين والمجدّدين من الشعراء . ولم يكن مَبْعَثُ كلّ ذلك سوى التهافت على اكتساب الجمهور فى حين أن الجمهور لا يَعْدُو الموجَ الصاعدَ الهابط الذى لا يستقرّ ولا يُؤْمَن جانبُه على حَدّ تعبير أستاذنا مطران ، وقد كانت لمطران مواقف عديدة محمودة للتوفيق ما بين المرحومين شوقى وحافظ . فالتهافت على نيل رضاء الجمهور أو النزول بالشعر إلى مستوى الجمهور كان ضرراً بليغاً للشعر ولأعلام الشعراء الراحلين أنفسهم : فقد أنقصَ منزلة الشعر الفنية ، ودعا الى حروب شخصية عجيبة ، كما خلق جوّاً مدهشاً من الغرور لا نزال نرى تأثيره فى تهافت الشعراء والكتاب على أماكن الصدارة من هذه المجلة وغيرها مع أن صفحاتها فى منزلةٍ واحدةٍ ، ومن غرور المبتدئين الذين يتعالون عن كلمة تنقيحٍ أو ارشادٍ أو تهذيبٍ من أساتذتهم الشيوخ ويتهافتون على ألقاب المديح السخيف . وهذه روحٌ مريضةٌ قاومناها كلَّ المقاومة وإن رضختْ لها بعضُ المجلات الادبية مضطرة لأسبابها الخاصة . نعم لا يجوز التغاضى عن هذه الحقيقة بل يجب أن يستفيد من دروسها المصلحون من ابناء هذا الجيل الذين يهمّهم التسامى بالشعر العربى وبمنزلة شعرائه .



وبعد ، فنحن نُهدى الى روح حافظ الشاعرة الوطنية الحبيبة المبجّلة هذا العدد التذكارى من (أبولو) وسِمَتُه الصراحة التى تعشّقها حافظ منا ومن سوانا طول

حياته. وقد وقع اختيارنا على صورة فنية للذكرى لم يسبق نشرها وهى للأديب الفنّان المصرى الشهير شعبان زكى وهى تمثل دار الإمام الشيخ محمد عبدة فى حالتها الراهنة — تلك الدار العزيزة التى قال عنها حافظ :

فيا منزلاً فى عين شمس أظلَّنى ... وأرغَمَ حُسّادي وغمَّ عُداتى

والتى كثيراً ما كانت موئله ومهبط وحيه . رأينا أن ننشرها فى هذا العدد التذكارى لأنها ألصق بحياة حافظ من كل ماعداها من المعالم المصرية ، ولأنها مظهر الذكرى الحزينة الذى لا يجب أن يخفى عن الشعب المصرى . وقد تأثر الرسّامُ الفنّان بمظهر سقف الساقية المائل فتخيله كبيت العنكبوت المكبَّر رمزاً للاغفال ودليلاً على مبلغ اهمال الدولة والشعب لآثار العظماء ، وشاء الرسّامُ أن يصوّر الدار تحت تأثير غروب الشمس فى لحظة أبدت الفارق الشنيع بين حاضرٍ عافٍ وماضٍ كانت فيه الدارُ مَطلَعَ الاشراق الثقافى والدينى فى مصر .

إن اسم حافظ لن يُنسَى فى تاريخ الشعر العربى ، وأما الشعر العربى ذاته فلن يصدعه ممات حافظ ولا غير حافظ كما يُوهم النّدابون ، فانّ موتَ العظيم يُلهب تلاميذه وأنداده بالشعور بالمسئولية والاندفاع الى الانجاب السامى . والواقع انّ الشعر العربى يخطو الآن خطوات فسيحة نحو الكمال الفنّى المنشود ، وهو ما يعترف به كلُّ ناقدٍ مطلعٍ يقارن بين الآثار الجديدة النابضة بالحياة فى الشعر العربى وبين الجديد من الشعر العالمى فى الاقطار الأخرى . وأمّا الذين لايزالون يبحثون فى القوافى والأوزان ، وفى تفضيل اللفظ على المعنى ، وفى أمثال هذا الهراء ، فمعذورون إذا توانوا عن الاطلاع على الأدبيات العالمية فلم ينصفوا مجهود مواطنيهم ، وهم على أىّ حال من رفقة الكسل الجميل والأحكام الطائشة . ولعلّ روح حافظ تغتبط فى عليائها بهذا التسامى الذي يتدرّج اليه الشعر العربى تدرُّجاً حثيثاً فتتقبل من محبّيها هذا الحنانَ والولاءَ والاجلالَ الذى تنبضُ به الصفحاتُ التالية من أقلام الشعراء والنقاد .



حافظ ابراهيم

﴿ فى الميزان ﴾

الصلة بين الفن والنفس

من القسوة الأدبية البالغة ، ومن الخطأ الفاضح فى معرض التحليل والنقد ، أن نقصر عملنا على الأثر الفنىّ للأديب أو الشاعر ، وأن نقطع أو نحاول قطع الصلة القائمة بين هذا الأثر وصاحبه ، ونحن نشعر فى نفوسنا بقوّة هذه الصلة ، ونعرف ما لها من نفوذ وسيطرة فى حياتنا الادبية التى نقول غير ملومين إنها واقعة باسرها تحت هذه السيطرة وذلك النفوذ .

نحن نقول إن الشعر فيض النفس ، ووحى الوجدان ، فعلينا اذاً أن نضم الى أدب الشاعر نفسه ووجدانه حين نريد أن نتعرف منزلته من الناحية الفنية ، وأن نضع له صورة صحيحة ، ومثالاً صادقاً .

للشاعر ككلّ فرد من الناس نفسه ووجدانه ، ومن الظلم أن ترى العاصفة تُلقى الحجارة على الينبوع المتدفق ثم تتهمه بالجمود إذا احتبس ماؤه ، أو ترميه بالحمق والسفاهة إذا تدافعت قواه فكان منتهى ما يستطيعه أن يقذف ببعض هذا الماء من خلال الحجارة فيتطاير رشاشاً أهوجَ لا يأخذ نظاماً ، ولا يستقيم فى مَسيل .

ذلك مَثَلُ الشاعر المقتدر تكتنف نفسَه أنواعُ الهموم وضروبُ الآلام فتعطل قواها المعنويَّة ، أو تُلقى الحجب والاستار على أشعتها فامّا أن تحتبس هذه الاشعة احتباساً تامّاً فيكون السكوت ، وإمّا أن يندفع منها قَبَسٌ ضعيف يترقرق كالدمعة الحائرة فى منافذ ملتوية ، ويذهب أعمى يتعسّف ، فلا هو على هُدًى فى ذاته ، ولا الناس يهتدون به .

وإنك لتتجنَّى وتذهب شططاً حين تنكر على المصباح أنه مختنق النور أو ضئيله ، وتأبى الا أن يكون كما تريد وتقترح إشراقاً وبهجة ، وأنت ترى زجاجته قائمة فى غشاء من سواد .

حافظ فى نفسه وفنه

حافظ ابراهيم شاعر كامل العدّة ، تامّ الاداة ، أخـذ نفسه بأدب الفحول من مبرّزى الشعراء ، وراضها عليـه ، فلحق بديوانهـم ، وأخذ مكانه بين أعيانهـم ، انه لـكما أصفه لك ، ولـكن لا تطمع أن يطربك وهو محزون ، ولا أن يرضيك وهو ساخط ، كلا ـ لا تطمع أن تتلقى من فم حافظ تلك النغمات الشهية ، والتغاريد العذبه ، الا حين تصفو نفسه ، وينعم باله وخاطره ، هو شاعر كبير النفس ، طامح الهمّـة ، يرى من حقـه أن يتخطى النـاس والمراتب ، ويمشى على مناكب الايام وأعناق الحوادث ، إلى أن يقع فى منزلته ، ويخلص الى مكانه .

تعبَ حافظٌ فى هذا السبيل ، وتعبت معه أطماعه الثائرة ، فهو قد ظنّ أن له مكاناً فى ظلال العرش المصرى الذى اتجهت اليه آماله ، فهو يتحفز للوثوب ، فأخذ يضرب على قيثارته عسى أن يسمع صاحب العرش فيصغى اليه ، ويحب أن يراه ويصطنعه ، ولـكنّ قيثارةً أخرى يحملها شاعر القصر كانت تشغل سمع الامير وقلبـه ، فلم يجـد حافظ منفذاً لنفسه ، وعَلِمَ أن لا مكان له ولا لغيره فى تلك الظلال ، واليـك بعض ما توسـل به الى هـذا المطلب ، وأراقه من عصارة ذهنه فى ذلك السبيل .

قال حافظ ابراهيم من قصيدة فى عيد جلوس العباس عام ١٩٠١ :

ماذا ادّخرتَ لهذا العيد من أدبِ ؟	فقد عهدتك ربَّ السَّبقِ والغلبِ
هـذا هو العيد قـد لاحت مطالعه	وكلنا بـين مشتاقٍ ومرتقبِ
يا مَنْ تَنافَسُ فى أوصافه كَلِمى	تنافُسَ العرب الامجاد فى النسبِ
لم يُبْقِ (أحمدُ) من قولٍ أحاولهُ	فى مدح ذاتك ، فاعذرنى ولا تعبِ
مَشيئةُ الله فى العباس قـد سَبقتْ	الى الجدود ، ومن يأتى على العَـقِبِ
يا مَنْ تَوَهَّمَ أنَّ الشِّعر أعذبُهُ	فى الذَّوْقِ أكْذَبُهُ ، أزريتَ بالادبِ
عَذْبُ القريض قريضٌ بات يعصمه	ذكر (ابن توفيق) وعن لغوٍ عن كذبِ

ليس لنا أن نقول إن حافظاً أراد أن يخدع شوقى بتقريظه فى هذه القطعة لينتفع به أوليأمن كيده وهو يريد أن يخترق الطريق الى العرش، فهو إنما جرى على طريقة ذوى النبل

والشرف من جمهرة الشعراء والأدباء فى التنويه بفضل الاكفاء والمتقدمين من أعلام الفنّ ، وجهابذة الصناعة ، وتلك سجية أعرفها فى حافظ ، وأذكرها له من فضائله المأثورة ، ولك فيما يلى دليل واضح يرشدك إلى الحق ، ويدلك على الصواب .

قال من قصيدة أخرى فى عيد الجلوس :

يا ليلةَ ألهمتنى ما أتيه به   على حُماة القوافى ، أينما تاهوا

انى أرى عجباً يدعو إلى عجبٍ   الدهرُ أضمره ، والعيدُ أفشاه

هل ذاك ما وعد الرحمنُ صفوتَهُ   روضٌ ، وحورٌ ، وولدانٌ ، وأمواه ؟

أم الحديقة ذاتُ الوشى قد جُلِيَتْ   فى مَنظرٍ يستعيد الطرفَ مَرآه

أرى المصابيحَ فيها وهى مشرقةٌ   كأنها النَّوْرُ والوسمىُّ حيّاهُ

أو إنما هى ألفاظٌ مدبّجة   وكلُّ لفظٍ تَجلّى فيه معناهُ

أرى عليها قلوبَ القومِ حائمةً   كالطير لاح له وِرْدٌ فوافاهُ

أرى أريكة عبّاسٍ تحفُّ بها   وقايةُ اللهِ ، والاقبالُ ، والجاهُ

قل للأُلى جعلوا للشعر جائزةً   فيم الخلافُ ؟ ألم يرشدكم اللهُ ؟

إنى فتحتُ لها صدراً تليق به   إن لم تُحَلّوهُ ، فالرحمن حَلاّهُ

لم أخش من أحدٍ فى الشعر يغلبنى   إلاّ فتىً ما له فى السّبقِ إلاهُ

ذاك الذى حكمتْ فينا براعتُه   وأكرم اللهُ والعباسُ مَثواهُ

الدليل على سماحة النفس وكرم السجيّة أكثر وضوحاً فى هذه القطعة منه فى القطعة الأولى ، فحافظ يحكم لشوقى على نفسه ، وهو مجال المباراة ، ومعرض المسابقة ، وليس هذا مما يسهل على كل نفس ، وله من قصيدة أخرى فى عيد الفطر :

مطالع سعدٍ ، أم مطالع أقمار   تجلّت بهذا العيد ، أم تلك أشعارى ؟

إلى سُدّةِ العبّاسِ وجّهتُ مدحتى   بتهنئةٍ شوقيةِ النسج معطار

لك أن تقول بعد هذا ، إن حافظاً أحسّ أمراً غيّر رأيه فى شاعر القصر ، وجعله يتحلل مما تقيّد به ، ولك فوق هذا أن تضيف إلى همومه الكثيرة هماً جديداً ، أو أكثر من هم ، عداوة شاعر القصر ، ووعورةُ الطريق إلى العرش ،

وتضاؤلُ رجائه الذى كان يدفع به فى هذا السبيل ، وكلّ هذا مما تستفيده من قوله فى قصيدة أخرى :

ُطفْ بالاريكة ذات العزّ والشانِ واقضِ المناسكَ عن قاصٍ وعن دانِ
يا عبدُ ليتَ الذى أولاكَ نعمته بقرب (صاحب مصرٍ) كان أولانى
صُغتُ القريضَ ، فما غادرت لؤلؤة فى تاج كسرى ، ولا فى عقدِ بُوران
شكا ُعمانُ ، وضجّ الغائصون به على اللآلى ، وضجّ الحاسدُ الشانى
كم رام شأوى ، فلم يدرك سوى صَدَفٍ ساحتُ فيه لنظّامٍ ووزّان
عابوا سكوتى ، ولولاه لما نطقوا ولا جرت خيلهم شوطاً بميدان
اليوم أنشدهم شعراً يعيد لهم عهدَ النواسىّ أو أيامَ حسّان
أزفّ فيه إلى العباس غانيةً عفيفة الخدر ، من آيات عدنان
من الأوانس ، جلاّها يراعُ فتىً صافى القريحة ، صاحٍ غيرُ نشوان
ما ضاق أصغره عن مدح سيّده ولا استعان بمدح الراح والبان
ولا استهلّ بذكر الغيد مدحته فى موطن بجلال الملك ريان

حملة شديدة ، وغارة شعواء على شاعر القصر ، ما كان لحافظ بعدها أن يطمع فى الاتصال بصاحب العرش ، وما له ولصاحب العرش ، وقد قذف بآماله من حالق ، وردّ عليه كلّ عروس من شعره فى زِىّ طالق ، بعد أن زفّها اليه تحمل كل ما جمع تاج كسرى وعقد بوران من لآلىء غالية ، وبعد ان شكاه بحر عمان وغوّاصه لطول ما ارتكض فى نواحيه ، وتقلّب فى جوانبه يتصيد الدرر يهديها الى العباس فى شعره ويرصع بها تاجه ، فيزيد فى جلاله ويضاعف سنا ملكه ، واشراق عصره ؟

إنها لصدمة عنيفة لنفس حافظ ، ولأدبه وفنّه ، ولكن لا بد للنفس الكبيرة من أن تطلب حقها ، وتلتمس مكانها ، ولابدّ للادب وفنّ الأدب من نهضة بعد نهضة ، وانبعاثة بعد أخرى .

فوق عرش الامارة بمصر ، عرش الخلافة العظمى فى فروق ، ووراء هذا المجال الضيق الذى عثرت فيه آمال حافظ وهوت صريعة ، مجال أوسع يجدر به ان يتخذه لأدبه وفنّه . ولنفسه ومطامعه . وهكذا انصرف حافظ الى هذا المجال ، وأقبل على

أمير المؤمنين ، السلطان عبد الحميد ، يتغنّى بمدحه ، ويذكر له وللخلفاء من آل عثمان فضلهم العظيم فى اقامة ذلك البناء الاسلامى الضخم الذى رفعوه على شفار سيوفهم ، وتعهدوه بدماء أبطالهم ورجال دولتهم .

قال شاعرنا الكبير من قصيدة فى عيد تأسيس الدولة العلية :

لقد مكّن الرحمن فى الارض دولةً لعثمان ، لا تعفو ولا تتشعّبُ
بناها ، فظنّتها الدرارى منازلاً لبدر الدجى تُبنى ، وللسّعد تُنصَبُ
وقام رجالٌ بالامامة بعده فزادوا على ذاك البناء وطنّبوا
وردّوا على الاسلام عَهدَ شبابهِ ومدّوا له جاهاً يُهاب ويُرهبُ
أسودٌ على البسفور تحمى عرينها وترعى نيامَ الشَّرقِ، والغربُ يرقبُ

وقال من قصيدة أخرى فى عيد الجلوس السلطانى :

لمحت جلال العيد والقومُ هُيَّبُ فعلّمنى آى العلى كيف تُكتبُ
تجلّى على عرش الجلال ، وتَاجُهُ يَهَشُّ ، وأعوادُ السّرير ترحّبُ
وكم حاولوا فى الارض إطفاءَ نورِهِ واطفاءُ نور الشّمس من ذاك أقربُ

ومنها فى وصف الجيش العثمانى :

يدانى شُخوصَ الموت حتى كأنما له بين أظفار المنية مطلبُ
اذا ثار فى يوم الوغى ، مال منكبٌ من الارض والاطواد ، وانهال منكبُ
له من رءوس الشُمّ فى البرّ مركبٌ ومن ثائر الامواج فى البحر مركبُ

لم ينل حافظ منالاً من جانب الخلافة ، فضاع شعره فيها كما ضاع من قبل فى الامارة ، وقيل فى بعض الانباء إن اليد التى أبعدته عن هذه لم تدعه ينعم بامله الجديد ، فسدّت عليه السبيل بعد ان عمل بعض الاصدقاء والانصار لتمهيده ، وبعد أن أوشك الشاعر العاثر الجدّ أن يظفر بحاجته ، ويقع على أمنيّة .

اشتدت الحركة الوطنية فى مصر على يد الزعيم الوطنى الاول (مصطفى كامل) أوصار الشعر من عناصرها ، فغامر حافظ فيها يتودد الى الشعب ويناصر زعماءه ، وفى روعه انه مُفْضٍ من هذا الطريق الى ما يبتغيه من نباهة ذكر وسعة حال ، فنظم القصائد الحماسية الملتهبة ، وجال فى ميدان الجهاد الوطنى جولات واسعة

النطاق مترامية المدى ، وقد نجح من الناحية الأدبية نجاحاً كبيراً فى هذا المسلك الذى لم يكن من المستطاع لشاعر القصر أن يزاحمه فيه ، أو يصرفه عنه ، ولم يقصر حافظ شعره فى هذا الدور على السياسة وحدها ، ولكنه تبسّط فى أدبه فتناول الاخلاق والعادات ، وشؤون الحياة العامة وأحداثها فى الامة ، فلقّبوه بشاعر النيل وبالشاعر « الاجتماعى » .

وهذه أمثلة مما نظمه فى هذه الوجوه والمناحى تحدّثك أنّه لم يَعُدْ لصغائر الامور ، وأنّه مسوق بفطرته وشعوره الى مواطن الجدّ فى القول ، ومنازل العز والشرق فى الادب ، فهو بهذا الوصف شاعر الامّة والبلاد ، وشاعر الزمن والخلود .

لستُ فى هذا بمتّهم ، وما أدّعى انه استطاع أن يعصم نفسه وأدبه عمّا لا ينبغى لمثله من زلة الرأى ، وتهافت المنطق ، فانّ له لقصيدتين من الشعر الشارد ، احداهما فى رثاء الملكة فيكتوريا ، والثانية فى تتويج ادوارد السابع وقد احترز فى الاولى ولم يتحفظ فى الثانية ، فقال :

لا تعجبنَّ لملكٍ عزّ جانبه ... لولا التعاونُ لم تنظر له أثرا
ما ثلَّ ربُّكَ عرشاً بات يحرسه ... عدلٌ ، ولا مدَّ فى سلطان مَنْ غدرا
(ادوار) دمتَ ، ودام الملك فى رغدٍ ... ودَامَ جُنْدُكَ فى الآفاقِ منتصرا
هم يذكرونكَ إنْ عدّوا عُدولَهُمُ ... ونحن نذكر إنْ عدُّوا لنا (عُمَرا)
كأنّما أنتَ تجرى فى طريقتهِ ... عدلاً ، وحلماً ، وإيقاعاً بمن أشِرا

وان له لقصيدتين أخريين فى وداع (كرومر) أخطأ فيهما القصد ، والتوى به السبيل فى أولاهما التواءً يسوء كل محبّ له ، ومطلع هذه القصيدة :

فتى الشعر ، هذا موطنُ الصدق والهدى ... فلا تكذبِ التاريخ ، إن كنت منشد

ومنها :

سنطرى أياديكَ التى قد أفضتها ... علينا ، فلسنا أمةً تجحد اليدا
أمنتّا ، فلم يسلك بنا الخوفُ مسلكاً ... ونمنا ، فلم يطرق لنا الذُعرُ مرقدا
وكنتَ رحيمَ القلبِ ، تحمى ضعيفنا ... وتدفع عنا حادثَ الدهرِ إنْ عدا

قال شاعرنا الكريم بعد هذا :

ولولا أسىً فى دنشواىَ ، ولوعةٌ وفاجعةٌ أدمتْ قلوباً واكبدا
وَرَمْيُكَ شعباً بالتعصب غافلاً وتصويرُكَ الشرقىَّ غِرّاً مُجرَّدا
لَذُبْنا أسىً يومَ الوداع لِأننا نرى فيكَ ذاكَ المصلحَ المتودّدا

اللهمّ فاغفر لحافظ ،انها ليست من رأيه ، ولا من عقيدته .

أمثلة من شعره فى السياسة وشؤون الحياة

قال من قصيدته (ماذا أصبت من الاسفار والنصب) :

متى أرى النيلَ لا تحلو موارِدُه لغير مُرتهبٍ لله ، مُرتقبِ ؟
فقد غدت مصرُ فى حالٍ اذا ذكرت جادت جفونى لها باللؤلؤ الرطبِ
كأننى عند ذكرى ما ألمَّ بها قِرْمٌ تردَدَ بين الموت والهربِ
اذا نطقتُ فقاعُ السّجنِ مُتَّكئى وان سكتُّ ، فانَّ النفسَ لم تطبِ
أيشتكى الفقرَ غادينا ورائحنا ونحن نمشى على أرضٍ من الذهبِ ؟
والقومُ فى مصر كالإسفنج ،قدظفرت بالماء ، لم يتركوا ضرعاً لمحتلبِ
يا آل عثمانَ ، ما هـذا الجفاء لنا ونحن فى الله اخوانٌ وفى الكتبِ ؟
تركتمونا لأقوامٍ تُخالفنا فى الدين والفضل والاخلاق والادبِ

آية بارعة من إنجيل الشعر السياسى أرسلها الشاعر الكبير تحت سماء مصر ، باسم مصر ، وفى سبيل مصر ، يشكو فيها تألب الحوادث عليها ، وتشاغل الاعوان والانصار عنها ، وهو حين يذكر السجن ويتخوّف أن يُقذف به الى قاعه إن هو كشف عن ذات نفسه كلّ الكشف ، وقال كل ما يريد أن يقول ، انما يصف لك خطبَ الحرية ومُصابها ، وشقاءَ النفس الشاعرة وعذابها ، وهذه صورة أخرى من صُور الحياة السياسية التى تصدّى لوصفها ، وعمد الى تصويرها . ومن شعره فى هذا الباب قوله من قصيدة :

سَعيتُ الى أن كدتُ أنتعلُ الدّما وَعُدْتُ وماأُعقِبْتُ الاَّ التندُّما
لحَا اللهُ عَهدَ القاسطين الذى به تهدّمَ من بنياننا ما تهدّما
إذا شئتَ أن تلقى السّعادة بينهم فلا تكُ مصرياً ، ولا تكُ مُسلما

وقوله فى حادثة دنشواى من قصيدة طويلة :

أيها القائمون بالامر فينا هل نسيتم ولاءنا والودادا ؟
انما نحن والحمامُ سواءٌ لم تغادر أطواقنا الاجيادا
أحسنوا القتلَ إن ضننتم بعفوٍ أنفوساً أصبتمُ ، أم جمادا ؟
ليت شعرى أتلك محكمةُ التفـ ـتيش عادت أم عهد نيرون عادا ؟!

وقوله من قصيدة أخرى فى هـذه الحادثة وجّه الخطاب فيهـا الى ممثل الدولة الانـكليزية فى مصر لدى عودته إليها :

ماذا أقول ، وأنتَ أصدقُ ناقلٍ عنّا ، ولـكنَّ السّياسة تـكذبُ ؟
إن ضاق صدرُ النّيل عما هالهُ يوْمَ الحمامِ ، فانَّ صدركَ أرحبُ
رفقاً (عميدَ الدولتين) بأمةٍ ضاق الرجاءُ بهـا ، وضاق المذهبُ
إن أرهقوا صيّادكم ، فلعلهم لِلْقُوتِ ، لا للمسلمين ، تعصّبوا
ولربمـا ضنَّ الفقيرُ بقوتهِ وسخا بمهجتهِ على من يغضبُ
فى (دنشواى) وانت عنّـا غائبٌ لعب (القضاء) بنا ، وعزَّ المهربُ
نُـكبوا ، وأقفرت المنـازلُ بعدهم لو كُنْتَ حاضرَ أمرهم ، لم يُنـكبوا

لا تظنن حافظاً يرسل هذا البيت وهو غافل عما ترى أنت فيه معنى التنزيه للممثل الانـكليزى ، والارتفاع به عن مواطن الظلم ، ومواضع الجور والعسف ، إنه ليعلم أن كلّ ما حدث فى دنشواى من كبار الحوادث وعظائم الامور ، إنمـا كان بمشيئة الممثل ورأيه ، وانما هو يغالط ويتهكم ، ونحن بسبيل الشعر السياسى ، وقد مضى حكم شاعرنا الـكبير على السياسة فى قوله (ولـكنّ السياسة تـكذب . .) . قال بعد هذا :

جُلدوا ، ولو منّيتهم لتعلقوا بحبال من شُنِقوا ، ولم يتهيّبوا
شُنقوا ، ولو مُنحوا الخيارَ لأهّـلوا بِلَظَى سياطِ الجالدينَ ، ورحّبوا
فاجعلْ شعاركَ رحمـةً ومودةً انّ القلوب مع المودّه تُـكسَبُ

أنظر إلى هذا البيت ، ألا ترى فيه مصداق ما قلته لك عن غرض الشاعر ووجهته

إذ يقول (لو كنت حاضر أمرهم لم ينكبوا) ؟ إنّه ينصح للممثّل الانكليزى أن يكون رحيماً ، ويوصيه أن يتودد الى هذه الأمة بكفّ الاذى ، وأخذها بسياسة أخرى غير سياسة العصا ، قال الشاعر يخاطبه :

وإذا سُئلتَ عن الكنانة ، قل لهم هيَ أمّةٌ تلهو ، وشعبٌ يَلعبُ

وله من قصيدة يخاطب (روزفلت) حين قدم إلى مصر وألقى فيها خطبته السياسيّة المأثورة :

يا خطيبَ (الدنيا الجديدة) شنِّفْ سمعَ مصر بقولك المأثور
واخبر النّاسَ كيف سُدْتم عَلى النّا سِ وجئتم بمعجزات الدهور
وملكتم أعنةَ الريح والما ءِ ودستم على رقاب العصور
قفْ وعدِّدْ مآثر العلم ، واذكر نعمَ الله ذكر عبدٍ شكور
وإذا ما ذكرتَ أنعمه الكُبـ رَى فلا تنسَ نعمة الدستور
يا نصيرَ الضعيفِ ما لك تُطرى خُطَّةَ القوم بعد ذاك النكير ؟
لم تُطيقوا جوارهم ، بل أقمتم فى حما كم من دونهم ألفَ سُور
ليت شعرى أكنت تدعو اليهم يوم كانوا على تخوم الثُغور ؟
يوم كانوا قذًى بعين (نُيويُوْ . . . كَ) وداءً مُستحكماً فى الصُّدور
يوم نادى (واشنجتون) فلبّا هُ من الغيل كلُّ ليثٍ هصور
ووثبتم إلى الحياةِ وُثوباً ونفضتم عنكم تراب القبور
يا نصير الضّعيف حَبِّبْ اليهم هجرَ مصرٍ تَفُزْ بأجرٍ كبير

لانريد ان نستأثر بشعر حافظ فيما نكتب عنه ، فانّ لاصدقائه الكرام وصحابته الموفين من كتاب هذا العدد المخصص له حقّاً كبيراً فيه وفى شعره ، وحسبنا من شعره السياسىّ ما أثبتناه له ، فهو يُمثّله لك شاعراً محباً لبلاده ، حفيّاً بأمّته ، يشكو ، فلا ترتاب فى انّ مصر هى الشاكية ، ويرجو فلا تأخذك شبهة فى موضع هذا الرجاء من نفسها ، ومحلّه من فؤادها . ان فى كلّ بيت من هذا المثال المقتضب لجُرْحاً دامياً من جراح مصر السياسيّة ، وصرخةً عاليةً من صرخاتها العنيفة المتوالية ، وانك لترى بين هذين شيئاً آخر يندفع فى روعة شديدة ، ويثور فى

حرارة بالغة ، ذلك هو الأمل ، أمل مصر المعذبة ، أملها الحائر المضطرب تارة ، والحزين تارة أخرى . ومن شعر حافظ فى شؤون الحياة المصرية قوله من قصيدة يدعم بها رأى (قاسم أمين) فى الحجاب :

رجائىَ فى قومى ضعيفٌ كأنه جَنانُ وزيرٍ ، سوّدته مَناصِبُهْ
أقاسمُ إنّ القوم ماتت قلوبُهم ولم يفهموا فى السِّفْرِ ما أنتَ كاتِبُهْ

وقوله من قصيدة فى حريق ميت غمر :

أيها الرافلون فى حُلل الوشى يجرون للذيولِ افتخارا
إنّ فوق العراء قوماً جياعاً يَتَوارَوْنَ ذِلّةً وانكسارا
قد شهدنا بالامس فى مصر عُرساً ملأ العين والفؤادَ انبهارا
سال فيه النُّضارُ حتى حسبنا أنّ ذاكَ الفِناء يَجرى نُضارا
بات فيه المنعَّمونَ بليْلٍ أخجلَ الصُّبحَ حُسْنُهُ فتوارى
يكتسون السّرورَ طوراً ، وطوراً فى يد الكأس يخلعون الوقارا
وسمعنا فى (ميت غمرٍ) صياحاً ملأ البرَّ ضجةً والبحارا
جلّ من قسّمَ الحظوظ فهذا يتَغَنّى ، وذاكَ يَبكى الديارا !

فى القصيدة التى نجتزىء عنها بهذه القطعة البليغة وصف مؤلم للمنكوبين يبعث الرحمة فى أشد القلوب قسوة ، ويُغرى بالاحسان والبرّ أكثر النفوس تمرّداً على فضيلة المعروف وشريعة الخير ، ولم يكن حافظ فى هذا كله وصّافاً أو مصوّراً فحسب ، كلا ، فانّا نرى نفسه الكريمة وروحه البارة ، ممثلين فى هذه القصيدة المؤثرة تمثيلاً ناطقاً ، ولقد عرفته رحمه الله ليّنَ القلب ، قوىَّ العاطفة يقف على السائل بين يديه ، فيقع عطاؤه فى كفّه قبل أن تقع كلمته من بين شفتيه . ثم لا يقنع بهذا ، ولكنه يبقى واجماً محزوناً من أجله فلا يكاد يعود الى الحديث الا إذا حمل عليه . وهذه قطعة من قصيدة له ألقاها فى مدرسة البنات فى بور سعيد :

كم ذا يكابد عاشقٌ ويلاقى فى حُبِّ مصرَ كثيرةِ العشاقِ !
لهفى عليكِ متى أراكِ طليقةً يحمى كريمَ حماكِ شعبٌ راقِ ؟

فاذا رُزقتَ خليقةً محمودةً فقد اصطفاكَ مُقسِّمُ الارزاقِ
والعلمُ إنْ لم تكتنفه شمائلٌ تُعليه كان مطيّةَ الاخفاقِ
كم عالمٍ قدَّ العلومَ حبائلاً لوقيعةٍ وقطيعةٍ وفراقِ

يذكر فقيه السوء بعد هذا البيت ثم يقول فيه :

يمشي وقد نُصِبَتْ عليه عمامةٌ كالبرج لكن فوْقَ تلٍّ نفاقِ

ثم يستطرد فيقول :

وطبيب قومٍ قد أحلَّ لطبّه ما لا تُحِلُّ شريعةُ الخلاّقِ

وهو اذا وفَّى هذا الطبيب حقّه من الوصف كرَّ على (مهندس النيل) فأغرقه ذمّاً وتقريعاً ، ثمّ انقضّ على الاديب - أديب السوق - فأهانه وداس أدبه وبيانه وهذا بعض ما قال فيه :

فى كفّهِ قلمٌ يمُجُّ لُعابُهُ سُمّاً وينفثه على الاوراقِ
يردُ الحقائقَ وهيَ بيضٌ نُصَّعٌ قُدْسيَّةٌ ، عُلويّةُ الاشراقِ
فيرُدُّها سُوداً ، على جنباتِها من ظُلمةِ التمويهِ ، ألفُ نطاقِ
عريَتْ عن الخُلُقِ المطهّرِ نفسُهُ فخيانةٌ ثِقلٌ على الأعناقِ

يلتفت الشاعر بعد هذا كله الى جهل الامّهات فى مصر ، وسائر بلاد الشرق العربى ، والى ما له من الآثار الذميمة في حياة الأمم الشرقية فيقول :

مَنْ لى بتربية النساء ، فانّها فى الشرق علّةُ ذلك الاخفاقِ
الأمُّ مدرسةٌ ، إذا أعددتَها أعْدَدْتَ شعباً طيّبَ الاعراقِ

سار هذا البيت مسيرَ المثل ، وهو من الحكم العمرانية الجليلة ، وقد ذهب الشاعرُ فى هذه القصيدة مذهب المتحفظ بين أنصار الحجاب ، ودعاة السُّفور ، فقال :

أنا لا أقول دعوا النساءَ سوافراً بين الرجالِ ، يجُلْنَ فى الاسواقِ
يدرُجْنَ حيثُ أردْنَ ، لا مِنْ وازعٍ يحْذَرْنَ رِقبَتَهُ ولا مِن واقِ
كلا ، ولا أدعوكمو أن تُسرفوا فى الحَجْبِ ، والتضييقِ ، والارهاقِ

فتوسَّطوا فى الحالتين ، وأنصفوا فالشَّرّ فى التقييدِ والاطلاقِ
رَبُّوا البنات على الفضيلة ، إنَّها فى المَوْقِفَيْنِ لَهُنَّ خَيرُ وثاقِ

بهذه الابيات الحكيمة ، فَصَلَ الشاعرُ العظيمُ حافظ ابراهيم فى مشكلة (الحجاب والسُّفور) على السَّنن الأوضح ، والطريقة المثلى . فمن حقّ هذا الحكم أن يكون دستوراً لجيلنا الحاضر وللأجيال المقبلة معاً فى هذه القضية التى تشغل الشُّعوبَ الشرقية اليوم .

قال شاعرنا العظيم من قصيدة فى (رعاية الاطفال) :

لو وفى بالزَّكاةِ مَنْ جَمَعَ الـ ... دُّنيا وأهْوَى على اقتناء الحطامِ
مَا شَكا الجوعَ مُعدمٌ ، أو تَصَدَّى لِرُكوبِ الشرورِ والآثامِ
راكباً رأسه طريداً شريداً لا يبالى بشرعةٍ أو ذمامِ
سائلاً عن وصيةِ اللهِ فيهِ آخذاً قُوتَهُ بحدِّ الحسامِ

أنظر اليه كيف تناول الحياة العامّة من أساسها ، وكيف برز فى هذه القطعة من شعره زعيماً اشتراكياً كبيراً ، يجمع الفقراء حول لوائه ، ويزحف بهم فى شجاعة وجرأة على قصور الأغنياء ، يدعوهم إلى كتاب الله ويحاول أن يقتحم الاسوار إلى خزائنهم يستنقذ منها تلك الحقوق الصارخة المحبوسة عن ذويها وأوليائها .

أنظر اليه إماماً صالحاً ومعلماً حكيماً يصف لك ما ينشأ عن تعطيل حكم الزكاة من سخط الفقراء على الاغنياء ونشوب العداوة بين الفريقين ، وأن ذلك ممّا يثير الشّرور ويدفع الى اقتراف الجرائم .

قال شاعرنا من قصيدة رنّانة ألقاها فى احتفال الجامعة مطلعها (حيّاكمُ الله أحيوا العلم والأدبا) :

هذا هو الأثرُ الباقى فلا تقفوا عند الكلام اذا حاولتموا أدبا
ودونكم مثلاً أو شكتُ أضربُهُ فيكم وفى مصر إن صدقاً وإن كذبا
سمعتُ أن امرأً قد كان يألفُهُ كلبٌ فعاشا على الاصلاح واصطحبا
فمرّ يوماً به والجوعُ ينهبُهُ نهباً فلم يبق إلا الجلد والعصبا

يبكى عليه وفى يمناه أرغفة لو شامها جائع من فرسخ وثبا
فقال قوم وقد رقّوا لذى ألم يبكى وذى ألم يستقبل العطبا :
ماخطب ذا الكلب؟ قال: الجوع يخطفه منى وينشب فيه الناب مغتصبا
قالوا وقد أبصروا الرغفان زاهية : هذا الدواء فهل عالجته فأبى ؟!
أجابهم ، ودواعى الشح قد ضربت بين الصديقين من فرط القلى حجبا :
لذلك الحدّ لم تبلغ مودتنا أما كفى أن يرانى اليوم منتحبا ؟!
هذى دموعى على الخدين جارية حزناً ، وهذا فؤادى يرتمى لهبا

يسوق حافظ الى قومه هذه القصة اللذيذة التى تصف الحنان الكاذب ، وتمثل الحبّ الغادر ، ليأخذ السبيل على الذين يدّعون حبّ مصر من أبنائها ، ويكثرون من ترديد الاقاويل الزائفة فى هذا المعنى ، حتى اذا حانت ساعة العمل تركوا البلاد فى غمرتها ، ووقفوا يتباكون خلف أنصارها ، أراد شاعرنا الموقر أن يأخذ السبيل على هؤلاء ليساهموا بأموالهم فى اقامة أكبر دار للعلم والثقافة العصرية فى مصر ، وانظر ماذا يقول بعد اداء قصته .

أقسمت بالله إن كانت مودتنا كصاحب الكلب، ساء الامر منقلبا
أعيذكم أن تكونوا مثله ، فنرى منكم بكاء ، ولا نلفى لكم دأبا
إن تقرضوا الله فى أوطانكم ، فلكم أجر المجاهد ، طوبى للذى اكتتبا

فى هذه الطائفة من منظومات حافظ فى هذا الباب ما يغنى عن الاسترسال ، ويفى بالمطلب المبتغى ، وقد ترامت بشاعرنا الكبير همته الادبية ، فتباعد مداه ، وتقاذفت غايته ، ومن الاغراض التى تناولها ونظم فيها ، وهو يسير ممعناً ، ويذهب متدفقاً فى تلك المطارح البعيدة والمنازع القصية : الشمس — غادة اليابان — حرب اليابان — المارتينك — فيكتور هوجو — زلزال ايطاليا — أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ تولستوى ـ وقد أجاد حافظ فى كلّ هذه الابواب اجادة كبيرة ، تدلّ على عبقريته وعلوّ منزلته . فمن قوله فى مناجاة تولستوى بعد موته :

حياة الورى حرب وأنت تريدها سلاماً ، وأسباب الكفاح كثير
أبت سنّة العمران الا تناحراً وكدحاً ولو انّ البقاء يسير

تحاولُ دَفْعَ الشرِّ والشرُّ واقعٌ وتطلبُ محضَ الخيرِ وهو عسيرُ
ولولا امتزاجُ الشرِّ بالخير لم يقم دليلٌ على أن الالـهَ قديرُ
ولم يبعث اللهُ النبيين للهدى ولم يَتطلَّع للشرير أميرُ
ولم يعشقِ العلياءَ حُرٌّ، ولم يَسُدْ كريمٌ، ولم يَرْجُ الثراءَ فقيرُ
فكم في طريق الشرِّ خيرٌ ونعمةٌ وكم في طريقِ الطيِّباتِ شرورُ

موقف تأمل

هذا هو حافظ ابراهيم، فهل ترى وراء كل هذا مزيداً لشاعر مصرى يعيش في مصر؟ إن في مصر لحياةً زاهرة ولكن لغير الاديب المهذب، ودنيا ناضرة ولكن ليست للشاعر الحرّ، وهل تظن أن حافظاً يهزل حيث يقول:

فما أنت يامصرُ دارَ الأديبِ ولا أنتِ بالبلدِ الطيِّبِ

أتراه متجنياً عليها أو ظالماً لها أو عدوّاً يضمر لها البغض ويريد بها السوء، وهو الذى أذاب نفسه الكريمة شعراً فى سبيل حُبها ومن أجل حياتها؟ أليس هو الذى يقول:

لهفى عليكِ متى أراكِ طليقةً يَحمى كريمَ حِماكِ شعبٌ راقِ؟

أتريد ان تعرف لمَ يقول حافظ بعد هذا وغير هذا (فما أنت يامصر دارَ الأديبِ...)؟ هو وحده يحدثك، وهذا جوابه:

عقنى الدهرُ ولولا أننى أوثرُ الحسنى عققتُ الادبا
أنا لولا أنّ لى من أمّتى خاذلاً، ما بتّ أشكو النُّوَبا

ما أراك بحاجةٍ إلى المزيد بعد هذا، ولكنى أزودك قبل الفراغ من هذا الموقف لتظلّ ذاكراً. قال حافظ من قصيدة:

سلامٌ على الدنيا سَلامَ مُوَدِّعٍ رأى فى ظلام القبر أُنساً ومغنما
فما عصمتنى من زمانى فضائلى ولكن رأيتُ الموتَ للحرِّ أعصما

أخذ حافظ بنصيب من رتب الدولة، وأقيمت له حفلة تكريم كبرى، ثمّ

استُعْمِلَ فى دار الكتب وكلّ هذا عطاءٌ نَزْرٌ ونائلٌ مُصَرَّدٌ ، وليس من هذا شيء يُرضى النفس الجيدة والعقل الكبير ، فرحمة الله عليك أيها الصديق .

نظرة فى شعره

أسلفنا لك أن حافظاً شاعرٌ فحلٌ متمكن الشاعرية قليل الأنداد، وقصصنا عليك من أمره ما فيه عظة لك بالغة ، فكن معنا فى انصافه والتماس المعذرة له اذا رأيته يهفو تارة أو يتبرم بالشعر فيتعسف فيه تارة أخرى. وانك لتراه على هذه الحال فى القصيدة الواحدة من شعره : تراه الشاعر العبقرى المنيع فى موضع منها والشاعر المتهاون المستهدف للنقد فى موضع آخر . أنظر الى قوله :

ما ذا ادَّخرتَ لهذا العيدِ من أدبِ ؟ فقد عهدتكَ ربَّ السَّبقِ والغلبِ

البيت بارع يجرى على نسق جميل تلمس فيه قوّة الدافع الوجدانى وتسمع له جرساً بعيد الاثر طويل الرنين . وانك لتراه مصقولا ناعماً كثير الايماض مُستطير البريق . ولكن أترى لو أنّ حافظاً أمعن النظر فى هذا البيت أ كان يغفل عما فيه من التخاذل ؟ انه ليعلم أن قوله (ادَّخرت) يفسد عليه غرضه وينأى به عن المنزلة التى أرادها لنفسه ، وهل يفتقر الشاعر الفيّاض الى الادخار وهو الذى يسبق الاقران ويغلبهم ؟

أعجب من هذا البيت قوله فى البيت الثانى من القصيدة :

تشدو وترهفُ بالاشعار مُرْتجلاً وتُبرزُ القولَ بين السِّحرِ والعجبِ!

فهو فى البيت الاول شاعر مدّخر لا يأخذ موقفه الا اذا استعدّ ، وهو فى البيت الثانى حاضر البديهة متدفّق الطبع ، يقول الشعر ارتجالا ويا بعد ما بين الصورتين . أما قوله(ترهف بالاشعار)فخطأ لغوىّ ، يقال أرهف الرجلُ السيفَ ورهفه اذا شحذه ورقّق حدّه ، ومراد الشاعر أن يقول إنه يشدو بالاشعار ويرقّق صوته فى انشادها فأخطأ ظاهر ، وقال :

وتَصقلُ اللّفظَ فى عينى ، فأحسبنى أرى فِرِنْدَ سُيُوفِ الهندِ فى الكتبِ

أنت ترى البيت من الشعر الرنّان وإنك لمأخوذ بجمال هذا التشبيه الذى يُريك رونقَ السيف وشَعاعَهُ فى المَشُوفِ المُضْلَمِ من الكلام ، ولكنك فى غير

حاجة الى الاذن إذا قلت إن جملة (تصقل اللفظ فى عينى) ظاهرة الخلل والفساد لأن مرجع الصُّوَر اللفظية الى الذهن — أو هو الذوق الفنى — لا الى العين. فما كان لها من مختلف الآثار فثمَّ الموضع وهنالك الحكم ، شأنها فى ذلك شأن الصور المعنوية ولا خلاف ، والعين والكتب فى البيت — أو فى هذا الباب كله — يستويان حُكماً لأن رونق الكلام واشراقه لا يكونان فى الورق، وأولى بهذا الوصف أن يكون فى حسن الخط وجمال الرسم لا يعدوهما ، ومن عبث المتنبي فى هذا الباب قوله :

وَمَا قُلتُ من شعرٍ تَكَادُ بُيُوتُهُ إذا كُتِبَتْ يَبْيَضُّ من نورها الحِبرُ

وأشدُّ من هذا فى معرض العبث أن يقول :

وما أناوَحْدِى قُلْتُ ذاالشِّعرَ كُلَّهُ ولكنْ لشعرى فيكَ من نفسهِ شِعرُ

قال شاعرٌ قديمٌ فى حسن الخط :

يا مَنْ اذا خَطَّ الكتابَ يمِينُهُ أهدى الينا الوشيَ من صنعاء

والشطر الثانى لابى تمام وأصله(أهدىاليها) . وقال التنوخي فى هذا الباب:

وَكَأنَّهُ لَيْلٌ يَمُوجُ خِلالَهُ صُبْحٌ مُنيرْ
وبدائعٌ تدع القلوبَ تكاد من طربٍ تطيرْ

ومنه قول كشاجم :

وكأنَّ البياضَ والنُّقطَ السُّودَ عبيرٌ رَشَشْتَهُ فى مُلاَءِ
وكأنَّ السُّطُورَ وَالذَّهَبَ السَّاطِعَ فيها كواكبٌ فى سماء

وأين شاعرنامن المعانى يصفها ويقول لنا ما هى ؟ أتراه اكتفى من وصفها بقوله فى البيت السابق « وتُبرزُ القولَ بين السِّحر والعجب » ؟ كلاّ ! فما هذا من الوصف الفنّى فى شىء ، وإليك بعض ماقيل فى وصف الكلام. قال أبو تمام فى الحسن بن وهب :

تنشَقُّ فى ظلم المعانى إن دجتْ منهُ تباشيرُ الكلامِ المشرقِ

وقال البحترى :

وبديعٌ كأنَّهُ الزَّهَرُ الضَّا حِكُ فى رونقِ الربيعِ الجديدِ
مُشرق فى جوانبِ السَّمع ما يُخْ لِقُهُ عَوْدُهُ على المسْتَعيدِ

أمَّا المتنبي فيقول :

اذا ما صافحَ الاسماعَ يوماً تبسَّمت الضمائرُ والقلوبُ

لا أزيدك على هذا فحسبك أن تعرف المذهب وترى تصرّف القوم فيه وأحسب لو أن البحترى قال « مشرق فى جوانب النفس » لكان أجود وأنّ البَوْنَ لكبيرٌ بين « سمع البحترى » و « عين حافظ » .

قال حافظ فى هذه القصيدة :

انى دعوت القوافى حين أشرقَ لى عيدُ الأمير فَلَبَّتْ غُرَّةَ الطَّلبِ

غُرّة كلّ شيء أوّله ، يريد أن القوافى لبّته مُسرعة وهو مأخوذ من قول ابن الرومى :

يا مَنْ تَنَافَسُ فى أوصافه كلمى تَنَافُسَ العرَبِ الامجادِ فى النَّسبِ

وهو مأخوذ من قول أبى تمام :

تغايَرَ الشعرُ فيه إذْ سهرتُ له حتىّ ظننتُ قوافيهِ ستقتتل

وفى بيت أبى تمام من التهويل الشعرى ما ترى . وقال فى قصيدته (ياليلةً ألهمتنى ما أتيهُ به) :

انى أرى عَجباً يدعو الى عجبٍ الدهرُ أضمرَهُ والعيدُ أفشاهُ

يقول هذا البيت فى وصف المشاهد التى رآها ليلة المهرجان فانظر كم بينه وبينُ قول ابن الرومى فى تهنئة بعيد النيروز :

لم يَبْقَ للارض من سرّ تكاتمهُ الا وقد أظهرته بعد إخفاء ؟

قال حافظ يصف حديقة الازبكية فى قصيدته هذه :

أم الحديقةُ ذاتُ الوشىِ قد جُلِيَتْ فى مَنْظَرٍ يستعيدُ الطَّرْفَ مَرْآهُ ؟

المنظر والمرأى واحد ، وقد أراد شاعرنا أن يقول ان الحديقة برزت فى منظر أنيق يغرى العين بادمان النظر فوضع (مرآه) موضع (رؤيته) فاخطأ وقال :

أرى المصابيحَ فيها وهى مُشرقة كأنها النَّوْرُ والوسمىُّ حيَّاهُ

تشبيه معكوس لأن المصابيح أشد إشراقاً من الزهر ، ولعل الصورة التشبيهية هنا قائمة فى اختلاف ألوان المصابيح ومحاكاتها لالوان الازهار ، وهو ما لا يستفاد من هذا البيت أو سواه من أبيات القصيدة ، واليك ما يقوله أبو الحسن التهامى لتعرف مأخذ التشبيه :

وإذا تأملت الكواكب خِلْتها زهراً تَفَتَّحَ ، أو عُيُوناً حُوَّلا

وانظر ما يقول ابن النبيه :

والليلُ تجرى الدرارى فى مجرَّتِهِ كالروض تطفو على نهر (أزاهُرُه)

وأزاهرُه فى البيت خطأ ، فالصواب ، زهر وأزهار وأزاهير — قال حافظ بعد البيت المتقدم فى صفة المصابيح :

أو إنما هى ألفاظٌ مُدَبَّجةٌ وكلُّ لفظٍ تَجَلَّى فيهِ مَعْناهُ

شبَّه شاعرنا المصابيحَ فى البيت السابق بالازهار ، ثم عاد فشبهها فى هذا البيت بالالفاظ المدبجة ومعانيها فلم يتجاوز ما قدمناه لك من بيان وايضاح ، فانت ترى الانتحال ظاهراً فى البيتين بل نحن نزيدك فنذكر لك قول المتنبي :

كأن المعانى فى فصاحة لفظها نُجومُ الثريّا أو خلائقكَ الزُّهْرُ

قال حافظ :

أرى (سُمُوَّ خديوينا) وقد بُسِطَتْ بالعدلِ والبذلِ يُمناه ويسراهُ

رحم الله شاعرنا الفحل انى لأظنه ردد كثيراً فى (سمو خديوينا) هذه فلما أبت أن تفارقه وطَّنَ لها نفسه وأدخلها بيته كارهاً ثم ذهب يردد قول جرير :

انَّ البغيض له منازل عندنا ليست كمنزلة المُحبِّ المُكْرَمُ

وبعد ، فبيت حافظ صورة من قول البحترى :

ولِىَ البلادَ فكان عدلاً شائعاً ينفى الظلامَ ونائلاً موهوبا

وللقوم مذهب معروف فى هذا الباب يقع فيه قول الحطيئة :

يداك خليج البحر ، احداهما دمٌ يَفيضُ ، وفى الأخرى عطاءٌ ونائلُ

وقول مسلم بن الوليد :

وما مرّ يومٌ قطّ الا جرتْ به على الناس من كفّيك بُؤمى وأنعمُ

وقوله :

غاد على كسبِ المحامد رائحٌ فى راحتيه منيّةٌ ونُشورُ

وقول ابن هانىء الاندلسى :

وللدهر سِجْلٌ من حياةٍ ومن رَدًى ولكنّه من بين كفّيكَ ينهى

قال حافظ :

أرى أريكةَ عبّاسٍ تحُفّ بها وقايةُ اللهِ والاقبال والجاه

يقال حَفهُ وحَفّ حولهُ وحَفّهُ بالشىء فقوله (تحفّ بها) خطأ لا يسوغ.

وفى القرآن الكريم (حافّين من حول العرش وحففناهما بنخل) وقال البحترى :

يَحُفّونَ مَرْجُوّاً كأنّ سُيُوبَهُ سُيُوحُ الْعِراقِ غُزْرُها وَفُورها

ويقول جرير .—

وَبَنُو الوليدِ من الوليدِ بمنزل كالبدرِ حُفّ بواضحاتِ الأنْجُمِ

ومن قول الاخطل فى الخمر :

لها رِدَآنِ ، نَسْجُ العنكبوتِ وقد حُفّتْ بآخرَ من طينٍ ومن قارِ

وقد وقع ابن هانىء الاندلسى فيما وقع فيه حافظ من الخطأ . فقال فى القائد

جوهر :

يَحُفّ بهِ القُوّادُ والأمرُ أمرُهُ وَيَقْدُمُهُ رَأْيُ الخلافةِ أجمع

وممّا نُسب الى عنترة وهو بعيد :

حَفّتْ بِهِنّ مَنَاصِلٌ وَذَوابِلٌ وَمَشَتْ بِهِنّ زَوَامِلٌ ونواجِ

ولعلّ هذا وأمثاله منشأ الخطأ فى قول حافظ — قال فى (جائزة الشعر) :

إنّى فتحتُ لها صدراً تَلِيقُ بهِ إن لم تُحلّوهُ فالرحمنُ حلاّه

كانت الجائزة الاولى فى هذه المسابقة نوطاً ذهبيّاً وهى التى عناها حافظ وقد حُكم بها لقصيدته هذه . يقول إنه فتح لها صدره وفتح الصدر هنا لامعى له فهى لا توضع داخل الصدر ولا تُعلّق على ظاهره فيحلّ الشاعر ما يليه من الازرار

ويميط ماعليه من الثياب ، وهو لوفعل ذلك لبقى صدره مُقفلاً فالتعبير اذاً عامّى محض مانشكُّ فى أن شاعرنا الكبير ترخّص فيه لِيُداعِبَ المحكَّمين ويشغلهم بقصيدته .

قال فى عيد تأسيس الدولة العلية يذكر خلفاء آل عثمان :

وقام رجالٌ بالامامة بعده فزادوا على ذاك البناء وطنَّبوا

وقال جرير :

ان الوليدَ خليفةٌ لخليفةٍ رَفَعَ البناءَ على البناءِ الاعظمِ

قال شاعرنا من قصيدة أخرى يصف شجاعة الجيش العثمانى وشدة مخاطرته :

يُدانى شُخُوصَ الموتِ حتىّ كأنما لهُ بين أظفارِ المنيّةِ مَطلبُ

الوصف فى المنزلة العليا من البراعة ، ولكنه ليس بالجديد ، فهو قد تقلب فى صُوَرٍ شتىّ من الشعر القديم ، وما نريدُ لك إلا أن تتفقهَ فى الأدب ، فاليك طائفةً من هذه الصُّوَر ، قال أبو تمام :

مُسْتَرْسلينَ إلى الحتوفِ ، كأنما بين الحتوفِ وبينهم أرحامُ

وقال المتنبي :

وَقفتَ ومافى الموتِ شكٌّ لواقفٍ كأنك فى جفنِ الردى ، وهو نائمُ

وقال ابن هانىء :

ولقد تكون لكَ الأسنّةُ مضجعاً حتّى كأنّكَ عن حِمامكِ غافلُ

وهذا ابن معتوق يقول :

وَخُضْتُ إليها الحتفَ حتّى كأنّنى أُفَتّشُ أحشاءَ المنيّةِ عن سِرّ

قال حافظ :

مَلكتَ عليهم كُلَّ فجٍّ ولُجةٍ فليس لهم فى البرِّ والبحر مهربُ

ويقول ابن هانىء :

أين المفرّ ولاَ مَفرّ لهاربٍ ولكَ البَسيطانِ : الثرى والماءُ

قال حافظ :

تقاذفهم أيدى الليالى كأنهم بها مثلٌ للناس فى القول يُضربُ

وقال أبو تمام :

أبقى على جولة الأيام من كنفى دِضوى وأسير فى الآفاق من مثلِ

وقد أبرز المتنبي هذا المعنى فى صورة أخرى فقال :

يُخيل لى أن البلاد مسامِع وأنى فيها ماتقول العواذلُ

ومن قول أبى تمام فى موضع آخر :

كأن له دَيناً على كل مَشرِقٍ من الارض أو ثاراً لدى كل مغربِ

قال حافظ من قصيدته (ماذا أصبت من الأسفار والتعب ؟) :

انى احتسبت شباباً بت أنفقه وعزمة شابت الدنيا ولم تشبِ

ويقول البحترى :

صَحِبُوا الزمان الفرط إلا انه هرِمَ الزمانُ وعِزُّهم لم يَهرمَ

ويقول ابو تمام (شابت نواصى الليالى وهى لم تشبِ) . وقال حافظ من هذه القصيدة :

متى أرى النيلَ لا تحلو مواردُه لغيرِ مرتهبٍ لله مرتقبِ ؟

ويقول أبو تمام فى المعتصم .

تدبيرُ معتصمٍ بالله منتقمٍ لله مرتقبٍ فى الله مرتهبِ

قال حافظ :

وكم لبستُ الدجى والتربُ ناعسةٌ والليلُ أهدأ من جاشى لدى النُّوَب

التُّربُ اسمٌ من التراب زعم حافظ أنه جمعٌ فأنه خطأ ، ولبسُ الدجى أو الليل مما كثر تداوله على ألسنة الشعراء . قال حاتم الطائى :

وليلٍ بهيمٍ قد تسربلتُ هولَهُ إذا الليلُ بالنكس الضعيف تجهما

وقال العتابى :

سَحبتُ له ذيل السُّرَى وهو لابسٌ دُجَى الليلِ حتى مجّ ضوءَ الكواكبِ

اذا ادّرعَ الليلَ الجلى وكأنه بقيةُ هندىٍّ حُسامِ المضاربِ

ويقول ابن الرومى :

لَبِسَتْ دُجَاهُ الجُونَ ثُمَّ هتكتُها بِوَجْنَاءَ يَنْمِيهَا غَرِيرٌ وَشَدْقَمُ

ومن شعر البديع الهمذانى (عَلَيَّ أن ألبسَ الظلماءَ والبَيْلَبا) و يقول غيره (ويلبسُ من ظلمائها ثوبَ ثاكل) فامّا قول شاعرنا (والليل اهدأ من جاشي لدى النوب) فمأخوذ من قول ابى طالب الرقى :

ولقد ذكرتك والظلامُ كانه يومُ النَّوى وَفؤادُ من لم يَعشقِ

قال حافظ من قصيدته (طُفْ بالاريكة) :

شَكا عُمانُ وضجَّ الغائصون بهِ على اللآلى وَضَجَّ الحاسِدُ الشَّانى

كم رام شأوي فلم يدرك سوى صَدَفٍ سَامحتُ فيه لنظَّام وَوَزَّانِ

و مُحصَّل البيتين فى قول السرىّ الموصلى :

والشِّعرُ بحرٌ حُزْتُ أنفسَ دُرِّهِ وتنافَسَ الشُّعَراءُ فى حَصْبائه

وقال من قصيدته فى تتويج الملك ادوارد :

يُصَرِّفُ الأمرَ من مصر إلى عَدَنٍ فالهند فالكابِ حتى يَعْبُرَ الجُزُرَا

ويقول المتنبي فى كافور :

يُدَبِّرُ الملكَ من مصرٍ إلى عَدَنٍ إلى العراقِ فأرضِ الرُّومِ فالنُّوبِ

وقال :

سَعيتُ الى أن كدتُ انتعلُ الدَّما وَعُدْتُ وما أعقبتُ الاَّ التَّندُّما

وقال ازهر بن هلال التميمى يصف جواده :

أعاتك ما ولَّيتُ حتى تبددت رجالى وحتى لم أجد مُتقدَّما

وحتى رأيت الوَرْدَ يدمى لبَانَهُ وقد هاجَهُ الابطالُ (فانتعل الدما)

وقال ابن هانىء فى خيل المعزّ :

له المقرباتُ الجُرْدُ (يُنعلها دماً) إذا قَرعتْ هَامَ الكُماةِ السنابكُ

ومعنى البيت كله مأخوذٌ من قول الشاعر :

وما زلتُ أقطعُ عرض البلاد من المشرقين إلى المغربينْ
وأدّرِعُ الخوف تحت الدُّجى وأستصحبُ النَّسرَ والفرقدينْ
وأطوى وأنشرُ ثوبَ الهموم إلى أن رجعتُ بِخُفَّىْ حُنينْ

وقال :

نُكبوا وأقفرت المنازلُ بعدهم لو كُنت حاضر أمرهم لم يُنكبوا

وهو من قول المهلهل فى كليب :

وتكلموا فى شأن كُلّ عظيمة لو كنتَ شاهد أمرهم لم ينبسوا

قال فى قصيدة (روزفلت) :

واخبر الناسَ كيف سُدتم على النا س وجئتم بمعجزاتِ الدهورِ

اخبرَ من الافعال الرباعية وحكمه حين يكون فعل امر ثبات حركة الهمز فى اوله فيقال (اخْبِرْ) ، وعندنا ألاّ رُخصة فى قواعد اللغة فلا يشفع فى مثل هذا الخطأ البيّن ان يكون البيت مُستقيم الوزن . قال حافظ بعد هذا البيت :

وملكتم أعنَّة الريحِ وَالما ء وَدُسْتُمْ على رقابِ العصورِ

يقال داسَ الرجلَ والشىءَ لا دَاسَ عليه فالفعل مُتعدٍّ بنفسهِ والخطأ فى البيت واضح ، وقوله (الدهور) فى البيت الاول و (العصور) فى الذى يليه من أشنع عيوب القافية . ومن قوله فى هذه القصيدة :

قف وعدّد مآثر العلمِ واذكر نِعمَ اللهِ ذكر عبدٍ شكور

فى مادّة عدَّدَ شبهات لغويّة لم تفصل المعاجم فى امرها وقد اختُلف فى تفسير قوله تعالى (الّذِى جَمَعَ مالاً وَعَدَّدَهُ) فقالوا جعله عُدَّةً للدّهر وقالوا غير ذلك واليك طائفه من اقوالهم .

قال الخازن : وَعَدَّدَهُ أى أحصاه من العدد ، وقيل هو من العُدّة ، استعدّه وجعله ذخيرةً وغنىً له .

وقال البيضاوى : جعله عُدة للنوازل ، أو عَدَّهُ مرةً بعد أخرى ، ويؤيده أنه قُرِىءَ وَعَدَدَهُ على فك الادغام .

وقال الألوسى : عَدَّهُ مَرةً بعد أخرى حُبّاً له ، وشغفاً به وقيل جعله

أصنافاً وأنواعاً ، وقال غير واحد ، أى جعله عُدّة ومُدّخراً لنوائب الدهر ومصائبه ، وَقُرِئ وعَدَدَه أى قومه الذين ينصرونه .

وقال الطبرى : عَدَّدَهُ أحصى عَدَّهُ .

وقال الفخر الرازى : فيه وجوه ، أحدها أنه مأخوذ من العُدَّة ، وهى الذخيرة ، وثانيها عَدَّدَهُ أى أحصاه ، وجاء التشديد لكثرة المعدود كما يقال (فلان يُعَدِّدُ فضائل فلان) وثالثها عَدَّدَهُ أى كثرَهُ ، وقرأ بعضهم وَعَدَدَهُ بالتخفيف .

أمّا الزمخشرى شيخ اللغويين فيقول : عَدَّدَهُ جعله عُدَّةً لحوادث الدهر ، وَقُرِئَ وَعَدَدَهُ بالتخفيف من قولك له عُدَدٌ وَعَدَدٌ ، وقيل وَعَدَهُ بمعنى وعدَّهُ على فك الادغام ، نحو ضنِنُوا .

هذه أقوال المفسرين ، أمّا معاجم اللغة فتقول : عَدَّدَ المال تعديداً جعله عُدّة للدهر ، قال الاخفش : ومنه قوله تعالى (جمعَ مالاً وَعَدَّدَهُ) ويقال جعله ذا عَدد ، وَعَدَّدَ الميّتَ عَدَّ مَناقبه .

يعوزنا بعد كل هذا أن نستشهد بالشعر من أقوال الثقات ، ولا يحضرنا الآن من الشواهد سوى قول أبى تمام :

وقائعُ أصلُ النَّصر فيها وَفرْعُهُ إذا عُدِّدَ الاحْسانُ أولم يُعَدَّدِ

وقول الشريف الرضى فى تهنئة أخيه الشريف المرتضى بمولودة .

لله شمسُ عُلاً جاءت بجوهرةٍ غرّاءَ من قمرٍ بالمجدِ مَسعودِ
ما عَدَدَتْ منك إلا نطفةً سلكتْ إلى الأمانى طريقَ الماء فى العُودِ

يدل سياق الكلام فى بيت أبى تمام على أنه يريد الاحصاء ، أمّا الشريف الرضى فيذهب الى معنى آخر ، والمعوّل فى كل هذا على العرب ، فالشبهة ما تزال قائمة ونحن نتجاوز بيت حافظ الى قوله :

ليت شعرى أكنتَ تدعو اليهم يومَ كانوا على تخُوم الثغور ؟

اختلف علماء اللّغة فى كلمة (تخُوم) فقال بن السّكّيت إنه سمع أبا عمرو يقول المفرد تَخُوم بالفتح ا والجمع تُخُمٌ كصَبُورٍ وصُبُرٍ .

وقال الفرّاء ، انما هى تُخُوم ، وَاحِدُها تَخْمٌ و تُخْمٌ ، وقد أخذ حافظ بهذا

القول كما أخذ به أبو تمام من قبل فقال :

أَحَلَّهُمُ النَّدَى سِطَةَ المعالى إذا نَزَلَ البخيلُ على التُّخُومِ

قال حافظ من قصيدته فى كتاب قاسم أمين :

رجائىَ فى قومى ضعيفٌ كأنه جَنانُ وزيرٍ سَوَّدَتْهُ مناصِبُهْ

يجرى الشاعر فى هذا البيت على نسق الظاهر الحرمى إذ يقول :

وليلٍ كوجه البرقعيدىّ ظُلمةً وَبَرْدِ أغانيهِ ، وَطُولِ قرونهِ

قطعتُ دياجيهِ بنومٍ مُشرَّدٍ كعقل سُليمانَ بن فِهدٍ ودِينهِ

بذى أَوْلقٍ فيه التفاتٌ كأنّهُ أبو جابرٍ فى خَبطهِ وجُنونهِ

الى أن بدا وجهُ الصباحِ كأنّهُ سَنا وَجهِ قرواشٍ وضوءِ جَبينهِ

وقال فى حريق ميت غمر :

جلَّ من قَسَّمَ الحظوظَ فهذا يَتغنَّى ، وذاكَ يَبكى الديارا

وهو ينظر إلى قول الشاعر :

سبحانَ من قَسَمَ الحظو ظَ فلا عتابَ ، ولا مَلامَهْ

قال حافظ من قصيدة أنفذها من السودن إلى الاستاذ الشيخ محمد عبده :

فناديتُ باسم الشَّيخِ والقيظُ جَمرُهُ يُذيبُ دماغَ الضَّبِّ والعقلُ ذاهلُ

فصرتُ كأنى بين روضٍ ومَنهلٍ تدبّ الصَّبا فيه وتشدو البلابلُ

وهو صُورة محرّفة من قول الشاعر :

وليلٍ وصلنا بين قُطريهِ بالسُّرَى وقد جَدَّ شوقٌ مُطمِعٌ فى وصالكِ

أربّت علينا من دجاهُ حنادسٌ أعدنَ الطريقَ النَّهجَ وعرَ المسالكِ

فناديتُ يا أسماءُ باسمكِ فانجلت وأسفرَ منها كلُّ أسودَ حالكِ

وفى هذه القصيدة يقول شاعرنا :

فقلتُ إذا شاءَ الامامُ فأوبتى قريبٌ ، وربعى بالسَّعادة آهلُ

وإلاّ فانى قافُ رؤبةَ لم أزل بقيدِ النّوى حتى تغولَ الغوائلُ

البيت الأول من قول الشاعر :

عليكِ سلامٌ لا زيادةَ بيننا ولا وَصلَ الاّ أن يشاءَ ابنُ مَعمر

والثانى من قول المعرى :

ما لى غدوتُ كقافِ رؤبةَ قُيِّدَتْ فى الدهرِ لم يُقدرْ له إجراؤها ؟

وقد نبّه شارحُ الجزء الاول من ديوانه على المأخذ الثانى ولكن هذا التنبيه لا يشفع له ، ورؤبة هذا هو رؤبة بن العجاج التّميمى من أكبر الرجّازين وأقدرهم ، وقافه قاف أرجوزته التى يقول فى مطلعها :

وقاتمِ الاعماقِ خاوى المخترَقْ مُشتبهِ الاعلام لمّاعِ الخفقْ

وقال من قصيدة أخرى يمدح بها الاستاذ :

طَلعتَ لها باليُمنِ من خير مطلعٍ فكُنتَ لها فى الفوز قِدْحَ بن مُقبلَ

الضمير فى (لها) عائد على الأمّة ، وكان الوجه أن يقول (طلعت عليها) ومن الشواهد على ذلك قولهم (طلع البدر علينا) و (طلعتُ عليها بالردى أنا والفجرُ)

طلعوا على مروانَ يومَ لقائهِ من كُلّ أرْوَعَ بالقَنا دَعّاس

وفى قدح بن مقبل يقول الصفىّ الحلّى :

وما زلتُ فيهم مثلَ قِدْحِ بن مُقبلٍ بِسَبْعِينَ أمسى فائزاً غيرَ خائبِ

وقال حافظ :

رأيتكَ والأبصارُ حولكَ خُشّعٌ فقلتُ أبو حفص بِبُرديكَ أم على ؟

وقال البحترى :

بأرْوَعَ مِنْ طَيّ كأنَّ قَميصَهُ يُزَرُّ علَى الشّيخين زَيْدٍ وحاتمِ

وقال غيره :

وَقد يَتَغابى المرءُ عن عُظمِ شأنهِ ومن تحتِ بُرْدَيْهِ المغيرةُ أو عمرو

وقال فيه من قصيدة أخرى :

كأنَّ فؤادى إبرةٌ قد تَمَغْنَطَتْ بحبكَ ، أنّى حُوّلتْ عنكَ تعطفُ

نتخطى قوله (تمغطست) إذ لا رأىَ لنا فيها بعد أن تواضع كُتّابُنا على هذا النحو من الرطانة ، وحسبنا أن نذكر لك شيأ مما قيل فى هذا المعنى . قال الصفىّ الحلّى :

انما هذه القلوبُ حديدٌ ولذيذُ الالفاظِ مغناطيسُ

وقال آخر :

وَقَفَ الهوى بى حيثُ أنت فليس لى متأخرٌ عنهُ ولا متقدَّمُ

وقال حافظ :

له كلَّ يومٍ فى رضى الله موقفٌ وفى ساحةِ الاحسانِ والبرّ موقفُ

وفى الموقف الاول ما يغنى عن هذه الزيادة ، وقال :

كأنَّ يراعى فى مديحك ساجدٌ مدامِعهُ من خشيةِ اللهِ تذرفُ

وقال بعض المتقدمين فى القلم :

وذى خضوعٍ راكعٍ ساجدٍ ودمعهُ من جفنهِ جارِ
مُواظبٍ الخمسَ لأوقاتها منقطعٍ فى خدمةِ البارى

وقريبٌ من هذا قول ابن المعتز :

خاشعٌ فى يديهِ يلثمُ قرطا سا ، كما قبَّلَ البساطَ شكورُ

وقول محمود بن احمد الاصبهانى :

أخرسٌ يُنبيكَ إطراقهُ عن كلِّ ما شئتَ من الامرِ
يذرى علَى قرطاسهِ دمعةً يُبدى بها السرَّ ، وما يدرى
كعاشقٍ أخفى هواه ، وقد نمَّتْ عليهِ عبرةٌ تجرى

وقال حافظ فى الاستاذ من قصيدة أخرى :

قالوا صدقتَ ، فكان الصدقَ ما قالوا ما كلُّ منتسبٍ للقولِ قوَّالُ

وقال صفى الدين :

وما كلُّ من هزَّ الحسامَ بضاربٍ ولا كلُّ من أجرى اليراعَ بكاتبِ

وقال فيه :

لى كلَّ حولٍ لبيتِ الجاهِ منتجعٌ كما تُشدُّ لبيتِ اللهِ أرحالُ

المنتجع المكان يُقصد ، والشىءُ يُطلب ، وبيتُ الجاه فى قول حافظ هو المكان ، فالخلل فى البيت ملموس ، وجمعُ رحلٍ على أرحال خطأ ، والصواب رِحال وأرحُل.

قال يصف مِدْحَته :

تَفتّحَ الحمدُ عنها ، حين أسعدها منك القبولُ ، وفيها نَوَّرَ القالُ

وقال المتنبيّ :

قطَفَ الرجالُ القولَ وَقْتَ نَبَاتِهِ وقطفتَ أنتَ القولَ لمَّا نوَّرَا

قال حافظ فى الشيخ من قصيدة أخرى :

ما أجزل اللهُ ذُخرى قبل رُؤْيتهِ ولا انتفعتُ بإيمانٍ وتوحيدِ

وقال ابن هانى فى المعزّ :

لولاكَ لم يكن التفكُّرُ واعظاً والعقلُ رُشداً ، والقياسُ دليلا

لو لم تكن سَبَبَ النَّجاةِ لأهلها لم يُغنِ إيمانُ العبادِ فتيلا

قال شاعرنا فى رثاء الشيخ :

لقد كُنْتُ أخشى عادىَ الموتِ قبلهُ فأصبحتُ أخشى أن تطولَ حياتى

وقال النابغة الذبيانى :

فإنْ تَحْيَ لا أَمْلَلْ حياتى وإنْ تَمُتْ فما فى حياتى بعد موتكَ طائلُ

وقال البحترى فى غلامه نسيم :

أعْظَمُ الرُّزْءِ أنْ تُقدَّمَ قَبْلى وَمِنَ الغبْنِ أنْ تُؤَخَّرَ بعدى

ولصفى الدين الحلى فى المعنى :

ما بقائى مِن بعدِ فقدِكَ الاّ كبقاء الرياضِ بعد السَّحابِ

قال حافظ يتغزل من قصيدة فى الشاعر العظيم محمود سامى البارودى :

تَيَمَّمْتُهَا والليلُ فى غير زيّه وحاسدها فى الأفق يُغرى بىَ العِدَى

لا نريد الاستقصاء فى النقد وسرد المآخذ ، ولسنا بمتجاوزين قول المتنبي :

أزورهم ، وَسوادُ الليل يَشفع لى وأنثنى ، وَبَياضُ الصُّبح يُغرِى بى

قال :

وقال كبيرُ القوم قد ساء فالُنا فانا نرى حتفاً بحتفٍ تَقَلَّدَا

فليس لنا الاّ اتقاءُ سبيله وإلاّ أعَلَّ السَّيفَ مِنّا وَأوْرَدَا

يقال تَقَلد السَّيْفَ لا تَقلد به ، والمعنى أنه كان متقلداً سيفاً وانه كان كالسّيف فى مضائه وحدّته ، وهو مأخوذ من قول الشاعر :

مَتى تَهْزُزُ بَنى قَطَن تجِدْهُمْ سُيُوفاً ، فى عَوَاتِقِهِمْ سُيُوفُ

وقوله أعَلَّ وأورد فى البيت الثانى متنافر ، والسَّبيل أن يقال أعلّ وأنهل . قال الشاعر :

تَحُومُ وتغشاها العِصِىّ ، وحولها أفاطيعُ أنعامٍ تُعَلُّ وَتُنْهَلُ

وقال البحترى :

يا دَارُ لا زَالَتْ رُبَاكِ مَجُودَةً مِنْ كُلِّ غادِيَةٍ تُعَلُّ وَتُنهَلُ

قال ، يعنى (فتاة الخدر) :

وترجو رجاءَ اللصّ ، لو أسْبلَ الدُّجى على البدر سِتراً حالكَ اللَّون أسودَا

ولو أنّهم قَدّوا غدائر شَعْرِهَا لحاكُوا لهُ منها نقاباً إذا بدَا

قوله (وترجو رجاء اللص) من التعابير النابية فى مثل هذا المقام ، وقوله (غدائر شعرها) من التراكيب الفاسدة ، وهل كانت الغدائر شيئاً آخر غير الشعر ؟ والمعنى فى البيتين مطروق . ومنه قول ابن هانى فى البيت الثانى :

يَعزُّ على الحسناء أنْ أطأ القَنَا وأعْثُرَ فى ذيلِ الخميس العرمرمِ

تَوَدُّ لو انّ اللّيلَ لُفَّ بشعرها لِيَسْتُرَ أوضاحَ الجوادِ المسوَّمِ

قال :

اذا ذَكروا منه النَّسيبَ رأيتنا ودَاعِى الهوى منّا أقامَ وأقعدَا

وإن ذَكروا منه الحماسَ حَسِبْتَنَا نرى الصَّارمَ المخضوبَ خدّاً مُوَرَّدَا

يصف حافظ شعر البارودى فى هذين البيتين ، وفى البيت الاول من سوء التركيب ما لا يخفى على الناقد البصير ، فأنت ترى إن كلمة (منّا) وما وراءها صُورة ناطقة من صور العجز عن أداء المعنى واصابة الغرض على وجه مقبول ، ونسق سائغ ، وقوله (أقام وأقعد) من الكلمات التى أفرط الشعراء فى استعمالها وتجافوا بها عن مواطن الرفق ، ومواضع الاناة ، وانى لمقتصدٌ لك فى ايراد الشواهد . قال بعضهم :

(وأقام قلبي فى الغرام وأقعدا) .

وقال الشريف الرضى فى البرق :

كلما أنجدَ عُلْوِيَّ السَّنا قامَ بالقلب اشتياقٌ وقعدْ

وقال :

وانّ قوامَ الدين قد عبَّ بحرُهُ وَعيداً أقامَ الخالعين ، وأقعدا

وقال المتنبي :

أبدَى العُداةُ بكَ السُّرورَ كأنهم فَرِحُوا ، وعندهُمُ المقيمُ المُقعدُ

أما قوله (الحماس) فى البيت الثانى تخطأ لغوى ، والصواب الحماسة ، ومعنى البيتين يتمثل فى قول السرى الموصلى :

جَدٌّ يَطيرُ شِرارُهُ وفُكاهةٌ تَستعطفُ الأحبابَ للأحبابِ

وفى عجز البيت معنىً مُقنِعٌ من قول عنترة :

فَوددتُ تقبيلَ السُّيُوفِ لأنّها لمعت كبارقِ ثغركِ المتبسّمِ

يقول حافظ إن الحماسة فى شعر البارودى تدفع بالمرء إلى غمرات القتال فاذا به من شدة الشوق اليها ، وفرط الشّغف بها ، يري السيف المخضّب بالدم فى صورة الخدّ المورّد اشراقاً وحسناً — يقول حافظ هـذا ، فما ذا ترى أنت ؟ ألا ترى الرجل مُقبلاً على السّيف يُقبّله ؟ هذا ما أراده الشاعر ، وهو معنى قول عنترة :

كم وقفةٍ لكَ ، والأبطالُ طائرةٌ والحربُ تضربُ صنديداً بصنديدِ

تقولُ للنفس ، إن جاشت اليكَ بها : هذا مجالُكِ سُودي فيه أو بِيدِى !

فى البيت الاول صورة من قول مسلم بن الوليد :

يَلقَى المنيّةَ فى أمثال عُدّتها كالسَّيلِ يَقذفُ جُلموداً بجلمودِ

أمّا البيت الثانى فيقع فيه كثير من الصُّوَرِ ، وإنّما لذا كرون لك شيئاً منها . قال الشاعر يعنى نفسه :

وقولى كلّما جشأت وجاشت مَكانَكِ تُحمدى أو تستريحى

وقال غيره : (لنا الصدرُ دون العالمين أو القبرُ)

وقال المتنبّى :

عِشْ عزيزاً أو مُتْ وأنت كريمٌ بين طعـــن القنا وخفق البنود

وقال ابن هانىء : (فامّا حياةٌ أو حِمامٌ مواشكُ)

وقال أبو تمام :

فأثبتَ فى مُستنقعِ الموتِ رجله وقال : لها من تحت أخمُصكِ الحشرُ ا

قال حافظ فى رثاء عثمان بك السيد أباظه :

يا ساقِيَيّ أرانى قد سَكنتُ إلى ماء المدامعِ عن ماء العناقيدِ

وقال مسلم بن الوليد :

لا أجمعُ الحلمَ والصَّهباءَ قد سكنت نفسى إلى الماء عن ماء العناقيدِ

وقد ختم شاعرنا الكبير قصيدته بقوله :

وعظّم اللهُ فى عثمان أجركمو فى رحمة اللهِ أمسى خيرَ مفمودِ

وهو ظاهر العيوب ، فلا طائل فى نقده ، وما أشبه الشطر الثانى من البيت بهذيان المؤرخين من اخواننا الشعراء .

وقال فى وصف السفينة التى رجع عليها الاستاذ الشيخ محمد عبده من الجزائر إلى مصر :

فَهْيَ تَسري كأنّها دعوةُ المُضْ طَرّ فى مَسْبَحِ الدّعاء المُجابِ

وقال شاعر قديم فى لحية كثيفة :

لو أنّها دُونَ السّماء غمـــامةٌ ضاقت مَسالكُ دعوةِ المظلومِ

وقال من خمرياته :

خمرةٌ قيل إنّهم عصروها مِن خُدودِ الملاحِ فى يوم عُرْسِ

ويقول أبو تمام :

وردية يحتثّها شادنٌ كأنّها من خدّه تعصَرُ

وقال ديك الجن :

معتّقةٌ من كفّ ظبيٍ كأنما تناولها من خدّه فأدارَها

ومما قيل فى المغنى لشاعر قديم :

أقول له ، وقد حيّا بكأس لها من مسكِ ريقته ختامُ
أمِن خدّيك تُعصر ؟ قال : كلا ! متى عُصرت من الوردِ المدامُ ؟

قال من قصيدته (غادة اليابان) :

هكذا الميكادُ قد علّمنا أن نرى الاوطانَ أُمّاً وأبا
مَلِكٌ يكفيكَ منه أنّهُ أنهضَ الشرقَ ، فهزّ المغربا

وقال ابن هانىء فى المعتمد على الله :

مَلِكٌ يكفيكَ منه أنه وجدَ الدُّنيا ، فأعطى ما وَجدْ

كلمة الختام

للنقد الفنى الصحيح سُنَنٌ صمّاء ، وأحكام مُستبدّة ، أوّلُ واقعٍ تحت سلطانها القاهر شخصُ الناقد وأدبُه ، وفكرُه وارادتُه ، فهو أسير هذا السلطان الذى يتحكّم بكلّ قوّته فى كلّ نفس قويّة الشعور بواجب الامانة ، شديدة الايمان بحق النقد النزيه ، وقداسة العدل الادبى ، وليس لك فى هذه القضية من مرشد أمين كنفسك ، فانت حين تقرأ لاحد النُّقّاد شيئاً لا تملك الاّ ان تضع الناقد منذ الكلمة الاولى فى المحلّ الاول من مكان النظر ، وموضع التأمل ، فهو يتلقى الحكم فى مَساقط النّظرات ، ومواقع الفكر والخواطر التى تستولى من جهتك على ما أثبت فى كتابه من وُجوه النقد وأساليبه ، وصوره وأوضاعه ، وليس للمنقود من هذا الحكم الاّ أثرُهُ يخلصُ اليه من وراء الناقد كما يخلص اثر الكتابة من الصحيفة العليا إلى التى تحتها بفعل (الورقة السارقة) . ومُجمل القول فى النقد انّه مُديَةٌ من العلم والذوق ، فى نِصابٍ من العدل والامانة .

أعلمُ هذا حقّ العلم ، وأُحِبُّ أن يكون غيرى من أدبائنا وكتّابنا على علمٍ صادق به ، وما أريد أن أعيب أحداً ، ولكنّى أوثِرُ أن يكون لنا نقاد مُدرّبون أصحّاء العقول والاقلام ، وأُهيبُ بالذين لايملكون هذه الأداة أن يراعوا حرمة الأدب ، وأن يكون لهم من نفوسهم زاجرٌ عن الاغارة على حرمه المقدس عابثين مُعربدين ، ولقد جهدتُ طولَ حياتى ألاّ أجعل لهذه المُدية الجارحة سبيلا إلى

يدى ، فلعلّى لا أراها وقد وُضِعتْ فيها مرة أخرى ،وعسى ألاّ أكون قد جرحت نفسى بما كتبته عن الصديق حافظ ، وما أدّعى أنى وفّيتُ النقد حقّه، فقد تجاوزت عن كثير ممّا يقع فى هذا الباب ويدخل تحت حكمه .

وبعد ، فليس بمنصف من يظن ان هذه الأخطاء وما اليها فى شعر حافظ مما يجرح أدبه ، ويضع من مقامه وقدره ، فقد وقع لكثيرين من فحول الشعراء ، ومنهم : أبو تمام ، والبحترى ، ومسلم بن الوليد ، والمتنبى ، وابن هانى ، وابن الرومى ، مثل ما وقع له من هذه الهنات ، فما غضّ من أقدارهم ، ولا زحزحهم عن مراتبهم .

والشاعر اذا كثرت محفوظاته ، ازدحمت الصوّر اللّفظية والمعنوية فى ذهنه فاختلط بعضها ببعض اختلاطاً يجعل الاحتراس من أشقّ الامور وأصعبها ، فقد يقع المعنى ، أو الشطر من البيت ، او البيت كلّه ، من هذه المحفوظات فى شعره ، وهو يظنّه من وحى شاعريته ، وفيض قريحته ، وقد يتبيّن ذلك ويعرفه بعد حين ، وهذا ما نقوله عن ذلك القسم فى شعر حافظ ، فأما الاخطاء اللغوية فمنشأ الكثير منها شيوع هذا النوع من الخطأ فى الصحف والمجلات ، وفى الكتب التى لاسلطان لأدب اللغة عليها .

وقد كان من شاعرنا الكبير أن نظم قصيدة رنانة فى (ذكرى شكسبير) قال فى مطلعها :

يُحَيّيك من أرض الكنانة شاعرٌ شَغُوفٌ بذكرى العبقريّين مُغْرَمُ

وحدث أن لقيته بعد نشرها فقال لى : أقرأت قصيدتى فى شكسبير ؟ قلت : نعم ، وابتسمت . فضحك رحمه الله وقال : وماذا نصنع يا أخى وقد ابتلانا الله بلغة الصحف ؟ لقد أغرم كتّابها بكلمة (شغوف) فهى لاتفارق أقلامهم ، ولا تنجلى عن شفاهنا ، والصواب (مشغوف) كما تعلم ، لقد جعلت مكانها كلمة (ولوع) وانتهى الامر .

رحمك الله ياحافظ وأحسن اليك ؟

احمد محرم

مرثية مطران لحافظ

عظَّمَ اللهُ فيك أَجْرَ الضادِ ... وبنيها من حاضرٍ أو بادِ
راعَ آفاقَها نعيُّكَ حتى ... لكأنَّ النَّعِيّ بُوقُ التَّنادى
كلُّ قطرٍ فيه فتىً عربيٌّ ... فيهِ عينٌ شكرى وقلبٌ صادِ
حدثٌ ألْهبَ الصدورَ التياعاً ... حيث دوّى وفتَّ فى الاعضادِ
من سماءِ الاهرامِ جللَ قيسُو ... نَ والْتقى السَّوادَ فوق السوّادِ
وعلى بهجةِ المرابعِ فى لُبـ ... ـنانَ أرْسَى سحابةً مِنْ حِدادِ
ليس بدْعاً أنْ عُمّ الشامُ والاحز ... انُ فيهِ تقضُّ كلَّ وسادِ
ما تراهُ يقضى الصديق الذى با ... دأ بالفضل من حقوق الودادِ

***

كيف حالُ الاخوانِ فى مصر يا حا ... فظُ مِن وحشةٍ لهذا البِعادِ ؟
أين زينُ النَّدِيّ منهم — وهُم فى الظرْفِ ما هم — وأين أنسُ النادى ؟
كلُّ حفلٍ شهدتهُ كنتَ فيه ... قِبْلةَ السامعين والأشهادِ
يأخذون الحديثَ عنك كما يشتفُّ مَنْ يرتوى مِنَ الوُرّادِ
فاذا ما تنادروا وتنادر ... تَ فأعجبْ بورْىِ تلك الزِّنادِ
فطِنٌ تشرح الصدورَ وما تؤ ... ذى دُعاباتُها سوى الانكادِ
ربما كانت العظاتُ الغوالى ... فى شظايا ابتسامها الوقّادِ

***

كيف حالى وأنت ادرى بما خلَّفتَ لى من فجيعةٍ وسهادِ ؟
أسعدى ياهواتفَ الايكِ نوحى ... أنا فى حاجةٍ الى الإسعادِ
أبتغى البثَّ والشجا غضٌّ مِن صو ... تِى وحرُّ الاسى أجفَّ مِدادى

***

ويحَ أُمّ اللغات ممّا دهاها ... فى طريفِ الفخار بعد التلادِ
ذاقت الثُّكلَ فى بنوّتها الامجـادِ بعد الأبوّةِ الامجادِ

فى رفاقٍ ردّوا على كلّ أصلٍ من عُلاها نضارةَ الاعوادِ
نــضّرَ الله عهــدَهم وسقاهم ما سقى الاولين صَوبُ العِهادِ

***

نخبةٌ فلمّا أُتيحَ لعصرٍ مثــل مجموعهم من الافرادِ
أيقظوها من الرقاد وقد جا زَ مَداهُ أقصى مدًى للرقادِ
وأعادوا جمالهــا فى زُهاه يتراءى قديمُهُ فى المعـادِ
أين سامٍ وأين صبرى وحفنى ورفاقٌ جاروهمُ فى الهـوادى ؟
لحقَ اليومَ حافظ بالمجلين وما كان آخراً فى الطـّرادِ
شـاعرٌ لم يُبـارِهِ أحدٌ فى الأ خذِ بالمستحبِّ والمستجادِ
يُحْكِمُ الصَّوْغَ فى القِلادِ فما يأ تى صَناعٌ بمثلها فى القـلاد
ناثرٌ تنفث اليراعةُ منهُ نَشْوةَ الخمر فى مجاجِ شِهادِ
لم يَكَدْ فى مصايد اللؤلؤ الفا خرِ يُبقى فريدةً لا صطيادِ
فى تراكيبهِ وفى مفردات اللف ظِ حارت نفاسةُ الحُسّادِ
كان فى سَمْعهِ رقيبٌ عليه يَـقِظٌ من جَهابِذِ النُّقّادِ
يقع الزَّيْنُ منهفى موقع الزَّ يْنِ ويَـنبو بالشَّين نَبوَ سَدادِ
فالمعانى تتيهُ بين المعانى بسـنيِّ الحُلِيِّ والأبرادِ
والمبـانى تعزُّ بين المبـانى بمتين الاسبـابِ والاوتادِ

***

عَدِّ عن وصفك الأديبَ وقلْ ما شئتَ فى الفاضل الوفىِّ الجوادِ
مَنْ يعزّى عنه المروءةَ أمستْ وبنوها الابرارُ غيرَ عدادِ ؟
شيمةٌ لا يطيق كلفتها غيــــرُ أولى العزمِ والحماةِ الجماد
مَنْ يعزّى عنهُ الوفاء وقد كا ن يرى نقضَهُ من الإلحادِ ؟
خُلُقٌ ليس فى الضعافِ وما يحمـ لُ أعباءَهُ سوى الأجـلادِ

لم يساوِم به فينعمَ بالأ | لا ، ولم يَرْعَ فيه جانبَ آدِ
مَنْ يعزّى عنهُ الصراحةَ ؟ كا | ن الغُرْمُ فيها والغُنْمُ فى الاهمادِ
لم يَسَعْهُ وفى الضمير خلافٌ | أن يرى الاعتدالَ فى المناَدِ
ما فتوحُ الآراء والجبن يطويـ | ـها كطىِّ النصالِ فى الأغمادِ
منْ يعزّى القصّادَ — علماً توخوا | أو نوالاً — عن مُسعفِ القُصّادِ
ذي الايادى من كل لونٍ ، واغلا | هن فى المأثرات بيضُ الايادي ؟

* * *

مَنْ يعزّى كنانةَ اللهِ عن را | مى عِداها بسهمهِ المصرادِ ؟
عن فتاها الشاكى السلاحين والماضيهما فى شوا كلِ الاضدادِ ؟

* * *

انما حافظٌ فتاها ومنها | وبها نخرهُ على الأندادِ
نشّأتْهُ وأيّدَتْهُ بروحٍ | عبقريٍّ من رُوحها مستفادِ
بعد أن كان حاكياً وهو يشدو | جعلَتْهُ المحكِىَّ بين الشوادى

* * *

نظمَ الشعرَ فى الصّبى نظمَ واعٍ | لقِنٍ ناشىء على استعدادِ
بادىء صوغه وفيه فنونٌ | بارعاتٌ لا يتّسِقنَ لبادى
ما تعاصَى عليهِ عن عفوِ طبعٍ | رُدَّ طوعاً لهُ بفضل اجتهادِ

* * *

غير أن القريضَ لم يكُ فى مضطربِ العيشِ مغنياً من زادِ
أوجب الرزقُ فانتأى حافظٌ يكدَحُ فى بيئةٍ من الأجنادِ
موحشا فى مجاهل النُّوبِ والسودانِ بين الأغوارِ والأنجادِ
تتقضَى أيامُهُ فى ارتياضٍ | وعلى أهبةٍ لغيرِ جلادِ
ولياليهِ فى الخيام ليالى | وَسِنٍ رازحٍ من الإجهادِ

فى الصميم الصميم من نفسه الحرّ قِرْمٌ مُراوِحٌ ومُغادِى
أىّ جيش يدرّبون لمصر وولاةُ التدريب فيه الأعادِى ؟!
ولِمَنْ تملأ الفضاءَ وعيداً عُدَدٌ من حديدهِ الرعّادِ ؟!
ذاك ما ظلّ فيهِ حيناً وحَسْبُ النفس شغلاً بهِ عن الإغرادِ
غيرَ بَثٍّ يبثُّهُ إن أتاهُ طائفٌ من خيالهِ المعتادِ

* * *

للمقادير فى شئون الجماعات تصاريفُ رائحاتٌ غوادِ
فُتِنَ الجيشُ والبواعث كُثْرٌ فتنةً لم تكن بذاتِ امتدادِ
فاستطار السُّوّاس واضطربتْ أحـلامُ زُرْقِ العيون فى القوّادِ
رابهم حافظٌ فعُوقِبَ فى جلسـة مَن عاقبوه بالإبعادِ
أخذوهُ بالظنّ من غير تحقيـقٍ وما آخذوا على افنادِ
فتولَّى ، وما لمؤتنفِ العيش بعينيه من ضياءٍ هادى
والجديدان يضربان عليهِ كلَّ رَحْبٍ فى مصر بالأسدادِ
موغَرا صـدرُهُ لِما سِيم فى غيرِ جُناحٍ من جَفْوَةٍ واضطهادِ
عاطل النوب من كواكبه الزُّهْرِ ومن سيفهِ الطويلِ النجادِ
فهو فى مصر والبجادُ من الرقّة فى الحال غير ذاك البجادِ
لَقِيَ البؤسَ ، والأديبُ من البؤس قديماً فيها على ميعادِ
حائراً فى مذاهب الكَسْب لا يفرقُ بين الإصدار والإيرادِ
عائفاً خطةَ الجُداة وفيه طَبْعُ حُرٍّ يجود لا طَبْعُ جادِى
ولقد زادهُ شجى أنّ سُوقَ العلم كانت فى مصر سوقَ كسادِ
وسجايا الرجال رانت عليها لوثةٌ من قديم الاستعبادِ
فهـمُ وادعونَ لاهُونَ بالزينـاتِ والتُّرّهاتِ والأعيادِ
عِبَرٌ مرّ فى جوانحه ما لاحَ منها مرَّ النّصال الحِدادِ

* * *

فتغنى — أستغفر الله — بل ناح نواحاً يذيب قلب الجماد
باكياً شجوه ترن قوافيه رنين النبال فى الاكباد
ذاك والقول ليس يعدو شكاة لو جرت أدمعاً جرت بجساد
وعتاباً لولا البراءة منه عاجلاً كان سبة الآباد

* * *

برئت مصر منه بالحق لما نشطت من جمودها المتمادى
طرأت حالة تيقظ فيها لدعاة الهدى ضمير السواد
فاذا حافظ وقد بش ما فى نفسه من جهامة وارْبداد
وبدا للمنى الجلائل فيها أفق واسع المدى لارتياد
ما تجلى نبوغه كتجليه وقد هب (مصطفى) للجهاد
يوم نادى الفتى العظيم فلبى من نبا قبله بصوت المنادى
ووَرى ذلك الشعور الذى كا ن كميناً كالنار تحت الرماد
فتأتى بعد القنوط الدجوجى رجاء للشاعر المجواد
مس منه السواد فانبجست نار ونور من طى ذاك السواد

* * *

أكبر الدهر وثبة وثبتها مصر منفتكة من الاصفاد
وثغاء غدا هزيماً فألقى رعبه فى مرابض الآساد
ما الذى أخرج الشجاعة من حيث طوتها قرون الاستبداد
وجلا غرة الصلاح فلاحت تزدهى من غياهب الافساد
فاذا أمة أبية ضيم ما لها غير حقها من عتاد
نهضت فجاة تنافح فى آ ن عدوين أسرفا فى اللداد
أجنبياً ألقى المراسى حتى تقلع الراسيات فى الاطواد
وهواناً كأنما طبع الشعب عليه تقادم الاخلاد
حلبة يعذر المقصر فيها والخواتيم رهن تلك المبادى
ليس تغيير ما بقوم يسيراً كيف ما عودوه من اماد؟

غير أن الإيمان كان حليفاً لقلوب الطليعة الأنجادِ
فاستعانوا به على ما ابتغوه ، غير باغين ، من بعيد المرادِ

* * *

لم يَطُل عهدُ مصر بالوثبة الأولى ودون الوصول خَرْطُ القتادِ
فتراخى فيها وثيقُ الأواخى ووهى الجَزْلُ من عُرى الاتحادِ
آيةٌ أخفقت فقيَّض أخرى أثرٌ من عناية الله بادِ

* * *

فزعت دنشواىُ تحمى حماماً من مُلمِّين كالذئاب الاوادى
فتصدّى للذَّوْد عنهُ جفاةٌ من شيوخٍ بها ومن أولادِ
حادثٌ روَّع العميدَ — أيخشاهُ وسلطانُهُ وطيدُ العمادِ ؟
لا ، ولكنَّ عزَّةً أخذتْهُ عن غرورٍ ببأسه واعتدادِ
سفَهٌ جرَّأ العبيدَ المناكيدَ على معتقيهم الأجوادِ
فخليقٌ بهم أشدُّ قصاصٍ حلَّ بالآبقين والمرَّادِ
ساقها مُثلةً توهَّمها خيراً وكانت عليه شرَّ نآدِ
ذاع فى الشعبِ وصفُها ففشتْ آلامها فى القلوبِ والاجسادِ
وكأن السياطَ يحززن فى أجـلاده والحبالَ فى الأجيادِ

* * *

أى عالى الجبين فى الرَّوع قاضى ظالميهم بجأره المدّادِ
كان ترجيعُ حافظٍ نوْحَ موتورٍ فدوَّى كالليث بالايعادِ
فى قوافٍ بهنَّ تنطقُ لو أوتيتْ النطقَ ألسُنُ الاحقادِ
علّمتْ خافضى الجناح لباغٍ كيف شأن الحمامِ والصيَّادِ

* * *

وعد الصابرون بالفوز وعداً حققتْهُ أنباؤهم باطّرادِ

انما الصبر فى النفوس جنينٌ يرهقُ الحاملاتِ قبل الولادِ
كيف يأتى به ارتجالٌ ولم يأ تِ ارتجالٌ يوماً بقول مُجادِ
خُلُقٌ عزّ فى الجماعاتِ مِنْ فَرْ طِ تكاليفهِ وفى الآحادِ
طالما خان فى النضالِ الجماهـ ـيرَ فألقتْ لغاصبٍ بالقيادِ

* * *

بعد وثبٍ فى إثر وثبٍ عنيفٍ وارتدادٍ فى الشوط غبّ ارتدادِ
ساورَ الأمـةَ الترددُ والتا ثَ عليها فى السير وجهُ الرشادِ
وتبدّى الاحجامُ فى صورة زلاّ ءِ جرّت إقدامَ أهلِ الفسادِ
بالدعايات والسعايات حاموا حولها للسوّام أو للروّادِ
لا تسلَ يومذاك عن جَلَدِ القا دةِ فى مُلتقَى الخطوبِ الشدادِ
كلما ازدادت الصعابُ أبَوْا إلاّ كفاحاً وعزمُهم فى ازديادِ
يبذلون القُوَى وفوقَ القوى غير مبالين انها لنفادِ
والزعيمُ الأبرُّ أطيبهم نفساً عن النفس فى صراع العوادى
يئسَ الشعبُ هل ينجّيه إلاّ حَدَثٌ من خوارق المعتادِ
مصطفى مصطفى بحسْبك إنْ يُذْ كَرْ فداءٌ أن كنت أوّلَ فادِ
مصطفى مصطفى ليهنئك أن أحييت قوماً بذاك الاستشهادِ
دبّ فيهم رُوحٌ جديدٌ له ما بعده فى القلوبِ والاخلادِ
تنقضى الحادثاتُ بعدكَ والرُّ وحُ مقيمٌ فيهم على الآبادِ
كاد يومٌ شُيّعتَ فيه إليهم لحةً من جلالِ يومِ المعادِ
صدروا عنه بالتعارف فيما بينهم وهو قوّة الاعدادِ
واستشفّوا لبأسهم فيه سرّاً كم تحامَى أن يدركوهُ العادِى

* * *

هذه مصرُ الفتيَّةُ هبّت فى صفوفٍ فَتيّة للذيادِ
رجلٌ مات مخلفاً منهُ جيلاً رابطَ الجأش غير سهل المقادِ

إن دعاهُ الحفاظ أقبل غلما نٌ سراعٌ من القرى والبوادى
أحدثوا فى البلاد عهدَ لجاجٍ فى تَقاضى حقوقها وعنادِ

* * *

عهدُ بَثٍّ من أنفسٍ تلتظّى بعدَ طول الخمودِ والاخمادِ
تَخذتْ عبقريةُ الشعرُ فيهِ سُلَّماً للعروج والإصعادِ
أبلغت حافظاً من الحظّ أوجاً رَاد منه العلياء كل مرادِ
مَن رأى الشاعرَ المفوّهَ يوماً وحوالَيْهِ أُمة فى احتشادِ
مُوفياً من منصَّةِ القولِ يرنو باتِّئادٍ ولحظهُ فى اتّقادِ
واسع المنكبين منفرج الحقـ وين يخطو خطاهُ كالمتهادى
باسماً أو مقطّباً عن محيّاً بارز العارضين فوق الهادى
عزّ منه العذار إلا تفاريقَ خفافاً فى الوجنتين بدادِ
ينشد الحفلَ فاتناً كلَّ لُبٍّ ببديع الالقاء والانشادِ
وبشعرٍ لا يطرف الجفنُ فيهِ صادرٍ عن حَمِيَّةٍ واعتقادِ
من رأى حافظا نذيراً بشيراً جائلاً صائلاً بغير اتّئادِ
غَرِداً كالهزارِ آناً وآناً حَرِداً كالخِضَمِّ ذى الازبادِ
ينبر النبرةَ العزوفَ فما تسـ مع إلاّ أصداؤها فى الوادى
وكأنّ الاثيرَ يحمل منها كهرباءً تهزّ كلّ فؤادِ
فهى عزٌّ للأرْيَحِىّ المفادى وهى ذلٌّ للخائس المتفادى
وهى خفقُ اللواء يحدوه من إيقـاع أبطاله إلى المجدِ حادِ
ذاك أن الرُّوحَ المرَدَّدَ فيها روحُ شعبٍ والصوتَ صوتُ بلادِ

* * *

أيها الراحلُ الذى ملأ العصـ ر بآثارهِ الرِّغابِ الجيادِ
أعجزَتْنى قبل التمام القوافى والقوافى تضنُّ بالإمدادِ

فَـدْكَ منها بيان مفخرةٍ واء ذر قصوراً بها عن التعدادِ
بتْ قريراً فإن ذكراك فينا أجْدرُ الذكرياتِ بالاخلادِ

خليل مطران

حافــــــــــــــظ

فى رأي مطران

— ١ —

بين الشعراء والنقاد اليوم معركة حادة عنيفة غير حازمة ، تجاوزت الانصاف والفن وعدت على الخلق ، وخرجت من هذه الدائرة السامية دائرة التهذيب والابتكار إلى نوع من المهاترة يضر الشعر والفن ويفسد الصلة بين الادباء جميعاً : فكل فريق سيء الظن بصاحبه يتهمه بالعجز والقصور ، هؤلاء النقاد لا يكادون يعرفون للشعراء كفاية أو جهدا ، ويقولون ليس عندنا شعراء يستطيعون الاضطلاع بما تستلزمه النهضة الادبية المعاصرة ويسدون فراغ هؤلاء الذين أدركهم الموت وكانوا أبراراً سابقين .

وأمّا الشعراء فلا يبالون بهذا كله ، فهؤلاء النقاد جاحدون وهم أعجز عن تقدير الشعر ، وتذوّق جماله ، واستبطان دخائله وأسراره ، وقد خرجوا من ذلك بقاعدة عدّوها أو حسبوها جديدة: هى ألا ينقد الشاعر إلا شاعر .

على أنك إذا نظرت إلى رأى الشعراء بعضهم فى بعض رأيت شراً مستطيراً ، واختلافاً كبيراً ، وسوء ظن يربى على مابين الشعراء والنقاد . فالمسألة فى الحقيقة ليست مسألة شعراء ونقاد وانما هى مسألة طبيعية ، ونتيجة لازمة لاختلاف الأذواق والشخصيات ، ولاختلاف طرائق النظر والتفكير ، ثم هى بعد ذلك مسألة هذه الصلات الاجتماعية والخاصة التى تصل بين الناس جميعاً ، وتعرض روابطهم الى الاستقامة أو الاضطراب . فاذا نحن حمدنا هذه الشخصيات ونزعتها الى الاستقلال فقد يكون حمدنا أكثر إذا وُجّه هذا الخلاف إلى الشعر وخدمته دون هذا التنابذ والمهاترة .

وأما نقد الشاعر صاحبه وعرفانه ذلك فهي مسألة قديمة عرفها السابقون وحاولوا صرف النحاة واللغويين والعلماء الخلص عن نقد الشعر ، وقالوا لا يعرف الشعر الا من دفع به الى مضايقه ، فالناقد في الأصل نصف شاعر بل ويجب أن يكون نصفه شاعراً ونصفه الآخر عالماً ، فالشاعر وحده يحتكم إلى ذوقه ومذهبه الفني وفي هذا جور واعتساف ، والعالم وحده يحتكم إلى الافكار والمذاهب العلمية فيفسد الفن وجماله. ولكن الناقد يجمع بين الذوق الفني الجميل والمقياس العلمي السديد ، ويلائم بين هذين العنصرين ويكوّن منهما أحكامه التفسيرية او الابتكارية الخالقة .

وكل ما يعنيني اليوم من هذا الصراع أنه دليل الحياة والشعور بالحاجة الى نهضة إن لم تصل بالشعر الى أسمى درجاته فهي محاولة تضع الاسس وترسم السبيل الى مستقبل وطيد زاهر .

— ٢ —

ومع ذلك فأحبّ أن أقرب من جماعة الشعراء ، ولكنه قرب لا يفيدهم شيئاً ، أحب أن أعرض عليهم صورة من نقد شاعر لشاعر ، بل من نقد شاعر زعيم ، نقد مطران لحافظ ، ولا يظن هؤلاء الشعراء أن هذا فناء في مذهبهم واعتراف بتفاصيله.

كلا ، فليس مطران عندي شاعراً من هذا النوع الذي يشيع بين شعراء العربية قديماً وحديثاً ، وإنما هو طراز جديد في الشعر العربي ، هو شاعر العقل والشعور جميعاً ، وقلما تجد هذا النوع بين السابقين وإن حاول بعض المعاصرين أن يكونه . مطران فيما أرى عالم وأديب معاً ، وهو إذن ناقد ، وإذا كان لا بد من الافصاح فيجب أن نلاحظ أن هذا الثالوث المقدس — الذي جمع بين حافظ وشوقي ومطران على زعامة الشعر الحديث — ليس متحدَ المزاج والطبيعة وإن تجانس في الدرجة والتسامي ، فهم شعراء كبار يتفقون في ذلك ولكنهم يتمايزون بعد ذلك في كل شيء أو في أغلب الأشياء ، فاذا كان لحافظ سرعة البديهة ، وحلاوة النفس ، وصفاء العبارة وترديد آمال مصر وآلامها ، فان لشوقي براعة الغناء ، وقوة الاسلوب ، وحسن التصوير ، وإن لمطران صحة الفكرة . ووحدة القصيدة ، وصدق النظرة ، والثقافة الشاملة وسماحة الطبع وسمو الأخلاق ، ومعنى هذا للمرة الثانية أن مطران ليس شاعراً فقط أو هو شاعر من هذا الطراز المثقف ، هو عالم وأديب : صياغة بديعة ، وشعور صادق ، وخيال ، خيال عام ، وأفكار سديدة . فاذا التمست عند حافظ وشوقي الجمال الفني فالتمسه عند مطران والتمس معه اللذة

العقلية ، وغذاء الفكر والعاطفة أو غذاء النفس جمعاء . مطران هو الخطوة الموفقة السابقة أمام شكرى وأبي شادي والعقاد والمازنى وأضرابهم من شعراء الثقافة الحديثة .

أليس مطران شاعرا فذاً فى بابه ؟ ألست أنا محقا فى اعتبار مرثيته دراسة نقدية لزميله فوق أنها قطعة شعرية باكية ؟

الحق ان هذه المرثية مظهر صادق لرأى مطران فى حافظ فهى تاريخه أو ترجمته ، ومظهر صادق لشعور مطران نحو حافظ فهى تمثل عاطفة الشاعر نحو الشاعر ، وهى عاطفة مزدوجة فيها حزن الصداقة الشخصية ، وحزن الرابطة الأدبية ، . . فكيف أرّخ مطران زميله ؟

— ٣ —

لدارسى الشعر مذاهب ثلاثة مشهورة . ومن العجيب أن مطران يلمّ بها جميعاً فى قصيدته ويوفق فى ذلك توفيقاً بارعاً ، نعم هو توفيق بارع يجمع بين هذا التقرير العلمى الصحيح ، وهذا التصوير الفنى المؤثر الجميل .

فهذا المذهب التاريخى الذى يعدّ الشعر مرآة الحياة الاجتماعية ، ولابد لفهم الشعر من فهم هذه الحياة ، ومذهب السير ذلك الذى يعد الشعر مرآة لحياة الشاعر ، ولابد إذاً من درس سيرة الشاعر حتى يفهم شعره فهماً صحيحاً ، ثم هذا المذهب الفنى الخالص الذى يقف عند النصوص الشعرية ويتبين خواصها الفنية شارحاً معللا. ولكل مذهب أنصاره ومحاسنه ، وهى كلها فى رأى مطران — وأنا أوافقه على ذلك — لازمة لفهم الشعر ونقده نقداً منصفاً سديداً ، وقد فعل . نعم فعل وزاد - كما قلت لك - حرارة العاطفة وبراعة التصوير .

ولست الآن أدرس مطران حتى أقف عند فنه وشخصيته، ولكنى أدرس حافظاً فى رأى مطران ، فلأسرْ فى طريقى وليعذرنى القراء إذا عرضت لمطران فيما مضى أو فيما يلى فذلك لأنى أحببت أن أشركه مع النقاد أو أضمه حيث يجب أن يوضع فى إستواء تفكيره واكتمال نواحيه ، وذلك لأنى قد اتفق معه فى الآراء عن حافظ وقد أخالفه . فهو إذاً مميرى وزميلى فى هذه الدارسة ، بل هو أساسها كما علمت . وقد عرض لى أن أذهب هذا المذهب المدرسى فأُرتب القصيدة ترتيباً علميا ، أبدأ بهذه القطع التى تدرس العصر ، وأثنى بسيرة الشاعر ، ثم بفنه ...

ولكنني اعتبرتُ ذلك عدواناً على أسلوب مطران فاحتفظتُ به ووقفتُ عند استعراض أبواب المرثية وتسجيل ما يعنّ من الملاحظات .

أمّا مطلع القصيدة فعاطفة عامة تنتظم حزن الشرق العربى لوفاة حافظ وتمثل الرابطة اللغوية ، وهو مطلع لا يوازيه فى صدق العاطفه إلا مطلع رثاء مطران لشوقى على فرق بين عاطفة الأخوة هناك وعمومها هنا ، فتلك عاطفة حادة باكية ، وهذه عاطفة جليلة حزينة ، فحافظ له هذه المنزلة الأدبية فى بلاد الشرق العربى التى فقدتْه مأتمُها جميعاً ، ثم نرى شخصية حافظ الفكهة المحبوبة تأتلف حولها القلوب وترى فى أفاكيه حافظ مسرة النفس ، ومرارة النقد ، وخالص الموعظة ، ولكن مطران أشد الناس حزناً لفقد صديقه ، واللغة ذهبت بموته بعد أصحابه السابقين الذين يمتاز منهم بحسن اختيار الألفاظ وضوع العبارات وحسن التأليف ومراعاة مقتضى الحال .

حافظ وفىٌّ كريمٌ ذو مروءة وصراحة ، مخلص لأمته :

بعد أن كان حاكياً وهو يشدو جعلته المحكيَّ بين الشوادى

نشأ حافظ يمرن على قرض الشعر معتمداً على الطبع والمرانة جميعاً ، يوفَّق أحياناً ويخفق حيناً ، ولكن الشعر لا يقوت صاحبه فاذا بحافظ بين الجنود فى السودان يضيق بقيود العسكرية الصورية التى يدرب مصر فيها أعاديها ، وينفس عن نفسه بالقريض ، ولكن فتنة تثور فى الجيش ويبعد حافظ على أثرها من السودان . وتضيق به سبل العيش ويشمله البؤس ويحترق بين فقر مدقع وعزة نفس عزيزة فيبكى ويكون شعره باكياً حزيناً يصور نفسه المتألمة :

باكياً شجوَه ترنّ قوافيه رنينَ النبال فى الأكبادِ

ثم تكون الحركة الوطنية بزعامة مصطفى كامل . وإذا بنهضة تكافح عدوين : أجنبيٌّ محتلٌّ ، وداخلىٌّ هو ذلك الهوان الذى طال مداه على البلاد فصار كالطبع الذى يصعب انتزاعه ، والذي يستلزم من الزعماء صبراً ودهاءً وبراعةً وإيماناً وطيداً . وكانت حوادث دنشواى وعسف الانجليز وازدراؤهم بالمصريين ، فكان حافظ لسان مصر الغاضبة الحانقة ، وحافظ موتور لنفسه ولمصر معه .

وكثرت فى تلك الايام السعايات وكثر المارقون ، ولكن الخلصاء بزعامة مصطفى

صبروا وصابروا وبثوا فى الامة روح التآلف والتعارف ، وامتدت آثاره إلى اليوم، فكان حافظ شاعر مصر الناهضة .

— ٤ —

أرأيت أن مطران استطاع أن يؤرخ عصر حافظ وأن يلم بسيرة حافظ ، وأن يدرس فنّ حافظ فيجمع بذلك بين هذه المذاهب الدراسية الثلاث ؟

نعم استطاع أن يبين أهم الحوادث السياسية والاجتماعية الاولى التى أثرت فى شعر حافظ وانشائه ولا سيما شعره فى الشباب والرجولة ، ثم صور لنا حياة حافظ وبؤسه ، ومزاجه وخلقه وطريقة تكوينه الشعرى . ثم هذه الاطوار الشعرية التى امتاز بها شاعر مصر الكبير ناشئاً ، وشاكياً ، ومترجماً روح مصر ونهضتها الاولى ، وأخيراً هذا الرثاء الحار الجميل .

وأنا لا أحب أن أزيد على ذلك شيئاً ، إلا أن هناك أموراً ثلاثة يجب الوقوف عندها :

فأولها أن مطران لم يتناول جميع الحوادث التى تتصل بشعر حافظ ، ولم يذكر كلّ الرجال الذين اتصلوا به وبشعره كالشيخ محمد عبده والشيخ أبى خطوة وغيرهما . ولا بأس فى ذلك فما كان الشعر مجال الاستقصاء الشديد وإلا فسد وذهب جماله ، وحسب الشاعر الإلمام والايماء وكفى .

وثانيها أن مطران لم يستكمل حياة صاحبه واعتذر بالقافية ، وفى رأيى أن ليس هذا عذراً كافياً ولا سيما لدى مطران فيستطيع تغيير القافية ويستطيع تكرار القافية . . ويستطيع غير هذا . . ولكن هل أستطيع أن أرد ذلك إلى أسباب أخرى سوى ما ذكر ؟ أيكون السبب أن مطران لم يشأ التورط فى هذه الفترة الأخيرة التى تضطرب حولها السياسة الحاضرة والتى قد يكون أكثرها سراً مكتوماً ؟ مهما يكن من الأمر فعذر مطران هنا ضعيف .

وثالثها أمر يتعلق بفن مطران نفسه ، والحق أنه فنّ عجيب : فيه كما قلت لك شخصية علمية أدبية مزدوجة لم تتوافر لغير مطران بهذه السعة والقوة والجمال ، وأرجو أن أفرغ لدرس مطران نفسه فى فرصة أخرى .

رحم اللهُ حافظاً ومدَّ فى عمر مطران .

أحمد الشايب

حافظ ابراهيم

ناحية من أثره فى الأدب

حقاً لقد جلّت مصيبة مصر فى حافظ أديباً وكاتباً وشاعراً ، ومحاضراً ومفاكهاً ومنادراً . وحافظ فى هـذا كله حقيق من مؤرخى الأدب العربى بأن يعقدوا له الأبواب ، ويسبغوا الفصول . ولست أسوق هذه الكلمة القصيرة لأدلّ على موضعه فى الأدب العربى ، وأثره بمنظومه ومنثوره فيـه . فذلك شىء قد فرغ منـه ، أو هو شى لمّا يئن بعد الحديثُ فيه ، على ما يظهر . أما أنه قد فرغ منـه فذلك بأن أديباً أو متأدباً فى العالم العربى لا يجهل حظ حافظ من هذا أو يقدره حق قدره . وأما أنه لم يئن بعد ، فلقد تظاهر صدر من صفوة العلماء والشعراء والكتاب على أن يدونوا فى حافظ ضخام الكتب يحصون فيها شعره ، ويستقرؤن نثره ، ويطلبون المأثور من كلمه ، وكل طريف من بدائهه فى مناقلاته ومنادراته ، وكلها حلو طريف ، وبعد أن شمر القوم فى هذا واجتمعوا له وجعل يستحثُّ بعضهم بعضاً فيـه ، طاف بهم أوبنا على الصحيح (فما أبرؤ نفسى) طائف من السكون والفتور ، والجمود والركود ، فما عدتَ تسمع من أحدٍ فيه حسّاً .

وأكبر الظن أن السبب فى هذا يرجع الى السياسة ، فاخواننا من السياسـة فى شغل لقد صرفهم عن كثير ، حتى عن الوفاء بما اجتمعوا له واستحمسوا من خدمة الادب العربى فى ذكر حافظ ابراهيم !

وبعد ، فانما أسوق هذه الكلمة القصيرة لأدلّ على ناحية واحدة ممـا أجدى به على الأدب العربى هذا الشاعر العظيم :

رُزق حافظ ، رحمه الله ، الى الطبع وإدراك الملكة ، خـلالاً ثلاثاً لا تستوى لكثير : سلامة الذوق ورهافة الحسّ . والثانية قوة الحافظة . والثالثة نطاقة اللسان .

وكان حافظ رجلا يبهره حسن الصياغة ، ويأخذه فيه جمال التعبير ، فما يسقط فى قراءته فى فنون الشعر والنثر ، على لفظ شريف أو صيغة ناصحة مشرقة ، كمل بهاؤها وترقرق ماؤها ، الا تهافتت نفسه عليها وراح يلتهمها التهاماً ، وهى آخذة منه مأخذ أحلى الأصوات فى أدقّ الآذان .

ولقد قلت لك إن حافظاً كان قوى الحافظة ، ولقد بلغ من هذا موضعاً عجباً .

ولو قد كان حافظ فيمن لم ندرك أيامهم ، فلم نشهدهم ونلابسهم لأحلنا ما يروى عنه فى هذا على ما يتزيَّد به القصاص ، ويسرفون فى المبالغة فيه طلباً للافلاق والاغراب.

ولقد كان ، رحمه الله ، يتناول الصحيفة فيها القصيدة لشاعر كبير ، أو المقالة لكاتب مبرّز، فاذا عيناه تجمزان فيها جمزا حتى يأتى على غايتها. ثم يطرح الصحيفة ، حتى ما تشك فى أنه إنما كان يطلب نماذج من بعض أقطارها ليعجل عليها الحكم السريع النظر ، فما يروعك بعد أيام ، بل بعد شهور ، بل بعد سنين طوال ، إلا أن تبعث المناسبات ذكر هذه القصيدة أو هذا المقال ، فاذا حافظ يروى ، بظهر الغيب ، أنخر ما فيه أو أحقه بالزراية لبلوغه الغاية من الفسولة والاسفاف!

على أننى شهدت أن حافظاً لم يكن يعلق بحافظته مما يقرأ إلا ما يستجيد ويستملح ، وأحياناً ما يستسخف ويستقبح إذا كان لبعض من يكرههم ويتصدَّى لتشهيرهم والزراية عليهم.

والعجب أن الشائع فى الاعتقاد أن من كان سريع الحفظ كان سريع النسيان فاذا صحت هذه القضية فقد حقَّ أن يستثنى عليها هذا حافظ ابراهيم!

وقبل أن أتحول عن هذا الموضع من الحديث أقول إن حافظاً قبض إلى رحمة ربه وليس فى داره من الكتب إلا ثلاثة أجزاء أو أربعة من الأغانى (طبعة بولاق القديمة) وكتاباً أو اثنين فى الفرنسية ، وأثارة من الأقاصيص (الروايات) العصرية المترجمة إلى العربية فى لهجة أدنى إلى العامية ، فلقد كلف دهراً بقراءة هذه الأقاصيص حتى إذا غادر داره دسّها فى (جيبه) ليقرأها كلما تهيأ له ذلك .

وتسألنى : كيف أنه على كثرة محصوله ووفرة محفوظه من بارع الشعر ورائع النثر لا يجمع من الكتب إلا ما أحصيتُ ؟ فأجيبك بأنه لم يدع ديواناً لشاعر متقدم إلا قرأه ، وكذلك قرأ كثيراً من كتب أعلام البيان ؛ على أنه ما فرغ من قراءة ديوان شعر أو كتاب تجول فيه ألوان البلاغات إلا خلاّه ودفعه عنه باهداء أو طرحه مطرحه حيث كان تغنياً بما أصاب منه وشكته حافظته العاتية . ولقد أذكر أنه من نحو اثنتى عشرة سنة دفع إلىّ كتاب (المكافأة) لأحمد بن يوسف الكاتب المصرى ، واستحثنى على قراءته وتقليب الذهن فيه تروّياً من ناصح بلاغته ، فقرأتُ الكتاب مرة بعد مرة ، وتعلقتْ بحافظتى منه كلمات وصيغ سرعان ما تخاذل أكثرها وتساقط عنها مسقط البقلة الذابلة . ثم إذا صاحبنا بعد السنين التوالى ينتظمه المجلس ،

فيروى القصة من الكتاب برمتها كما جرى بها قلم الكاتب ما تكاد تنشز عليه منها كلمة ، وخاصة ما أشرق لفظه ، وتبهجت ديباجته . وما شاء الله كان !

ولقد زعمتُ لك أن حافظاً كان نطقاً ذرب اللسان ، وكان الى هذا رجلا يألف ويؤلف فكان يطاب مجلسه المتأدبون ، وكان هو عظيم التفقد لمجالس الاسمار كثيرَ الاطلاع عليها فلا تراه قط الا جياشاً بلسانه فى المجلس ، يتنقل فى خفة وظرف ، بين جد القول وهزله ، وهو أثناء هذا وهذا ينبوع يفيض بالأدب فيضاً ، ويأبى إلا أن يدفع فى حديثه بأحلى ما وقع له من رائع الصيغ .

دعك مما أفاد حافظ نفسه فى هذا الباب ، فى شعره ونثره جميعاً ، وما أجدى به على من قرؤوه شاعراً ومن قرؤوه كاتباً ، فذلك مما يخرج عن حدود هذا الحديث . وإنما الذى اريد أن اقوله إن حافظاً ، رحمه الله ، كان مجلة ادبية حية متحركة يُفشى فصيح العربية حيث كان ، ويصلح للمتأدبين أخطاءهم البيانية ما وقعت له . وكثير من الشعراء لقد كانوا يعرضون عليه قصائدهم قبل ان يطلعوا بها على الناس فيثبت لهم المتجلجل ، ويقوى المتخذل ، ويرفع المسفّ ، ويذكى الخابى . فحافظ من هذه الناحية كان قوة قوية فى إشاعة فصيح العربية وإظهار المتأدبين على كرائم المحفوّات من ألوان بلاغاتها . فكان أثره واضحاً فيما نشهد اليوم من إشراق الديباجة ، وتلاحم النسج ، وفحولة الكلام . ولا يذهب عنك بعد هذا ان حافظاً قد استظهر صدراً صالحاً من الصيغ والتعبيرات الجميلة أدت فى صفاء وسلامة كثيراً من متخير المعانى التى جاءت بها الحضارة الحديثة .

وقبل ان أختم هذا الحديث اذكر عن حافظ خلة من خلاله إنصافاً للحق واثباتاً لصحيح التاريخ : ذلك بأنه مما انعم الله به عليه انه كان قليل الصبر على النظر فى كتب العلم والاجتماع فى حفظ قواعده والمطاولة فى تفهم قضاياه واستخراج مسائله . علوم اللغة وغيرها عنده فى هذا بمنزلة سواء ، بل لم يكن له صبر على مراجعة معاجم اللغة فيما يغم عليه من مفرداتها ، ولعل الامر إذا كرثه فى بعض هذا تقدم الى غيره به فرجع اليه بما اصاب . اؤكد ان حافظاً قد ثوى وليس فى داره معجم واحد من معاجم اللغة . ولكن لقد تهيأت للرجل فرصة لم تتهيأ لكثير ، فقد عاشر من اول شباب السن الى غاية العمر اعلام العلم واللغة والادب فى عصره ، وداخلهم ولابسهم وحضر مجالسهم وحاضرهم ونادرهم وأخذ عنهم . فاتسقت له بهذا مجموعة

قيمة من علوم اللسان وسواها من قضايا الدين وعلوم الحياة. وناهيك بمن طوى العمر كله فى مصاحبة الشيخ محمد عبده والأشياخ حمزة فتح الله، وابراهيم اليازجي، ومحمد المهدى، وحفنى بك ناصف ، وسامى باشا البارودى ، واسماعيل باشا صبرى ، وسعد باشا زغلول، وأخيه فتحى باشا ، وأحمد حشمت باشا ، وابراهيم بك المويلحى ، وولده محمد بك ، وعمه عبد السلام باشا ، وابراهيم بك اللقانى ، والشيخ على يوسف ، وأستاذنا احمد لطفى السيد بك ، وعبد الحميد بدوى باشا ، واحمد بك أمين ، والمرحوم عبد الحميد باشا مصطفى ، وأستاذنا العظيم الشيخ احمد بك ابراهيم ، وأصدقائنا الدكتورين هيكل وطه حسين والاستاذ الجليل خليل مطران وغيرهم، وسواهم من كل مَن يجرى فى أبواب العلم والأدب على عرق كريم ، حتى وهو ضابط فى السودان ، لقد لازم استاذنا العلامة المرحوم الشيخ الخضرى بك ، وراجعه كثيراً ، وتروّى عنه فى قوانين اللغة كثيراً ، ولعله كذلك قد اتصل هناك بأستاذنا العلامة الشيخ عبد الوهاب النجار وأخذ عنه وذلك مما لا أتبينه إلى الآن .

ولعله قد تعاظمك بادىء الرأى ما زعمت فى بعض هذ الكلام من أن مما انعم الله به على حافظ رقة الصبر على الاكباب على كتب العلم ، وفيها علوم اللسان ولعله لو قد فعل لما كان منه كلّ حافظ إبراهيم !

حافظ إنما طلب العلم فى أصفى موارده ، وحصله من أكرم مناجه . وانت خبير بأن العلماء إذا أقبلوا فى اسمارهم على مذاكرة العلم ، تخيروا اللب والمصاص ، واصطفوا من مسائله ما جلّ معناه وقويت اسبابه ، وخاصة ما اتصل منها بوسائل الحياة ، واطّرحوا ما لا غناء فيه مما يكظ الذهن ولا يكاد يجدى فى تطبيق قضاياه الكثيرة ، وقواعده الوفيرة فى دنيا ولا فى دين . وحافظ كان رجلاً متسعّر الذكاء ، صافى الذهن ، جوهرىّ الطبع ، قوى الحافظة ، كما أسلفت عليك ، فأصاب مع هذا من صحبة من ذكرت من اولئك العلماء ، وطول مذاكرتهم ومراجعتهم من الفوائد العلمية فى شتى العلوم ما لا يكاد يدركه الحساب .

وإن تعجب فعجب انني ارى ان عدم إكباب حافظ على مراجعة معاجم اللغة قد أجدى عليه فى صنعته كثيراً ! ذلك بأنه — وأرجو ان يعى هذا الناشئون فى الادب بوجه خاص — ذلك بأنه ليس كل كلمة فى المعجم تصلح للاستعمال دائماً فى المعنى الذى وجهها عليه ، فان الكلمة قد تصلح فى هذا المقام ولا تصلح لذاك ،

وقد تتسق لهذه الصيغـة وتحلو وترقّ ، إذ هى تنشز على تلك وتَستصعِب .

لهذا آثر حافظ أوشاء له القدر ألا يأخذ مفردات اللغة الا من اكرم مناجمها ، وألاّ يطالعها إلا وهى فى عقود نظامها ، فيما حصل من رائع الشعر ، وما استظهر من فاتن النثر ، فعرف فى شعره ونثره كليهما ، كيف يضع كل كلمة فى موضعها ، وكيف يضم الجنس الى جنسه ، ويضيف الشكل الى شكله. ومهما اختلف النقدة فى شعر حافظ وفى شاعريته فانهم لم يفترقوا قط فى أنه كان أمهر الصاغة فى هذا الزمان .

وخلة أخرى تتصل بهذا المعنى ، وهى أن بعض الشعراء إذا أعوزتهم القافية فزعوا الى المعـاجم حتى إذا سقطوا عليها استـكرهوها على النظم فخرجت ، فى الغالب، غريبة شامسة ، أو قلقة نابية . أما حافظ فقد سلم من هذا ، وإنك ما تـكاد تطالع صدر بيته حتى تراك قد أطللتَ من نفسك على القافية .

* * *

هذه ناحية من جدوى حافظ إبراهيم على اللغة والأدب . أسأل الله تعالى أن يرحمه الرحمة الواسعة ، وان يعوض الادب العربى عنه خير العِوض ؟

عبد العزيز البشرى

حافظ ابراهيم

بين ظرفه ومجونه

وماذا أقول عن حافظ ابراهيم ، وأى جانب من جوانبه أتناول بالنقـد والبحث والتمحيص ؟

إنما أود أن أمرَّ فى هذه العجالة على ناحية مع نواحيه البارزة الممتازة التى أتيح لى أثنـاء اتصالى به ردحاً من الزمن أن أتبينها وأعجب بها : تلك هى روحه الفـكهة الطروبة ، بل نفسه المَرِحة الضاحكة ، بل قلبه العامر بالظرف والايمان مما كان يبدو فى نظر بعض الناس استهتاراً وقلة اكتراث .

أتحدث فى هذه الـكلمة القصيرة عن ظرف حافظ ، ومجون حافظ ، وخفة حافظ ، وكرم أخلاق حافظ ، بل سعة نفسه إلى أبعد مدى وأقصى حدّ .

كان حافظ فى أخلاقه ومزاجه وروحه ونفسه وسخائه وشجاعته ومنطقه وحديثه بل فى كل حركاته وسكناته وسائر مزاياه أديباً كل الأديب .

وإنى لأذكره فى جلسته فى « بار اللواء » وقد التفّ من حوله الصحفيون والأدباء والمتأدبون وداروا حوله فى شبه حلقة وحافظ لا ينقطع « الجرسون » عن التردد على مجلسه ذهاباً وجيئة فاذا ما انتهى مجلسه كان حسابه غير يسير .

وإنى لأذكر صحفياً يُعتبر الآن من ذوى اليسار راهن حافظاً على أمر من الأمور فلما خسر حافظ الرهان أخرج من جيبه فدية رهانه ورقة مالية من فئة الخمسين جنيهاً ، وكان موقفاً عجباً كاد يُخيَّل إلىَّ بعده أنى لا أعيش فى هذا العالم المادى العنيف !

وأذكر أنى دعوتُ حافظاً إلى القناطر الخيرية حيث كنت أسكنها عام ١٩٢٣ إلى غذاء متواضع وقد جاء اليها فى بعض أصدقائه كلهم أيسر منه حالاً وأوفر مالاً ، وكانوا يركبون فى ذهابهم وعودتهم سيارة « تاكس» وقد دفع لسائقها مائة وخمسين قرشاً وهى تربو على تكاليف غذائى . فلما أظهرت له دهشتى أظهر لى دهشة أشدّ منها وعجب كيف أنى أود ان اعلمه الاقتصاد فى آخر الزمن !

وإنى لأعلم انه جنى من آخر طبعة لكتابه « البؤساء » حوالى ألفى جنيه أنفقها جميعها فى نفس الشهر الذى استولى عليها فيه !

أليس عجيباً أن تتاح لحافظ فرص عدة للثراء ثم يموت دون أن يقتنى منزلاً يسكنه فى حياته أو كفافاً من المال ينفع مَن بعده مِن ذوى قرابته ؟

وشهدت حافظاً فى داره بحلوان فى رمضان وقد استوى للافطار على مائدته جمعٌ من أصدقائه وألوان الطعام تغدو وتروح من كل شهى الطعم جيد الصنع ولكن فى أطباق من الصاج ، والتمر الهندي يقدم فى بوادق من الصاج أيضاً .

وإنى لأذكر فى تلك الجلسة أديباً كبيراً وقد قال : « لا ينقص هذه الأكلة الشهية إلا الثلج وهو لا يتكلف ملاليم» فبادره حافظ : « فلتفرض أنك فى بيتك! »

وأذكر أنه سُئل عن صديق من أصدقائه الأفذاذ وكيف أن صديقه هذا يفضل الولائم والتردد على الموائد وهو ولله الحمد فى عيشة وارفة راضية بل كيف أن صديقه على ضعف صحته شديد النهم فقال : « إنه قضى أربع عشرة سنة يأكل (اردفر) فى الازهر ! »

وأذكر ان اصدقاءه أرادوا ان يعبثوا معه ويماجنوه فى ليلة من ليالى رمضان ويختبروا مائدته وكانت مضرب المثل ومهبط الأدباء والعظماء فانقسموا فريقين وقد دخل فريق منهم فى ساعة الغروب فلم يكادوا ينتهون من إفطارهم حتى هاجمه الباقون، ومع ذلك فقد استطاع حافظ ان يستر موقفه وان يرد كيدهم ويدحض غلة من مجونهم وان يقدم لهم الوفير من الطعام فى أصنافه التى كان يولع بها وتجيدها طاهيته الماهرة .

وخرج حافظ الى مقهى الجندى فى الاوبرا — وكان يتردد عليه أخيراً من داره بالجيزة عصر كل يوم ، يدفع أجرة للعربة أكثر من ثلاثين قرشاً ذهاباً وجيئة ليدخن نرجيلته هناك فى حوالى خمس دقائق ، ثم يدفع ثمنها لخادم القهوة وينقده أكثر من ثمنها نظير خدمته وينصرف — والتقى به إذ جلس فى ذلك المقهى أحد أصحاب الصحف الاسبوعية وقال له : « إنما كنت أتفقدك لاقترض منك جنيهاً أنا فى أشد الحاجة اليه » فضحك حافظ وقال له : « عمرك اطول من عمرى ! »

إنى لن أنسى له رحمه الله جلسات رائعة فى دار المغفور له محمد عثمان اباظه باشا بربعماية من اعمال مركز منيا القمح ، فقد كان مجلسه فيه ندوة أدبية معدومة النظير أذكره وقد رأى شابين أحدهما وسيم الطلعة والآخر دميمها فقال من فوره للدميم مشيراً لصاحبه الوسيم: « هكذا أبناء الامهات الذين تدفع المهور الغالية لأمهاتهم ! »

كما لن أنسى طرفة لأحد أدبائنا الافذاذ إذ بادره بقوله : « وعلى هذا القياس تكون المرحومة والدتك قد دفعت (دوتا) للمرحوم والدك ! »

ودعاه صديق له ليطلعه على مقبرة بناها لوالده فقال له حافظ : وكم كلفتها ؟ فقال الصديق : « مائة جنيه بالميت ! » فقال حافظ : « دى رخره تربة تردّ الروح ! »

وسمع حافظ أن امام العبد لايفتأ يذكر أنه هو الذى خلق حافظاً فلما التقى امام بحافظ دلف اليه فى شأن مادى فقال حافظ : « والله يامولاى كما خلقتنى ! »

ورأى حافظ اماماً يكتب والقلم يتساقط منه المداد فقال « جفف عرقك يا امام! »
ورأى إماماً فى بذلة بيضاء وقميص أبيض وربطة عنق سوداء فقال له : « زرّر قميصك الافرنجى ! »

وكان حافظ رحمه الله كثير التشكك فى صحته مشغولاً بها، يتوهم فى نفسه الأمراض

كلها ، لا يسأل عن علة إلا سأل عن عوارضها ليرى أهى منطبقة عليه أم بعيدة عنه ، ثم يميل فى النهاية إلى الأخذ بأنه مريض لمجرد تشككه فى شعوره بعارض من عوارضها . وقد ينتهى بالاحساس بها فيتداوى منها ويتحدث طول وقته عنها . التقى بطبيب من أصدقائه فبادره بشكواه من الأعور وأشار إلى أعلى فخذه الأيمن فردَّه صديقه الطبيب بأن وهمه بعيد عن الواقع الذى يعترف به الطب لأن الأعور يكون فى الجهة اليسرى فعارضه : « وانت مالك يا أخى يمكن يكون أعور يمين ! »

ولو حاولت أن أسرد كل نوادر حافظ لامتدّ بى الوقت فلأترك المقام لغيرى يتناول بقية جوانبه الممتازة وكلها بارزة ، فقد كان حافظ رحمه الله رجلاً بكل معانى الرجولة ، أديباً بكل معانى الأديب ، وكان طيب القلب عامر النفس صافى الروح لا يحمل لأحد حقداً ولا يحاول الكيد لاحد .

وكان حافظ ينعى على أهل هذا الزمن وهذا البلد بوجه خاص ذلك القتال العنيف من أجل تلك الحياة القصيرة الزائلة ، بل ذلك النضال القوى من أجل ذلك العيش التافه المحدود ، وكان لا يرى المال إلا وسيلة من وسائل العيش لا غاية من غايات الحياة .

وكان رحمه الله يعرف الشىء الكثير عن رجالات هذا البلد ماضيهم وحاضرهم فقد أدرك أكثرهم فى صدر شبابه وبدء صباه ، وكانت صلته بالمرحوم الشيخ محمد عبده تمكنه من الاشراف من كثب على تصرفات كثير من الناس وحركاتهم وسكناتهم ومحاولاتهم ، لهذا لم يكن يرى واحداً منهم بالعين الأخيرة الكبيرة بل كان ينظر لهم دائماً بالعين القديمة الصغيرة ، يذكر عن كل واحد من البارزين حادثة أو موقفاً أو مناسبة ثم يعلق عليها بطرفة من طرفه او فكاهة من فكاهاته ويتندر بذلك فكان حديثه لا يملّ وكلامه لا يرغب عنه .

وكان حافظ يتبرم بميل طائفة كبيرة من جمهرة الناس هنا إلى المبالغة : فالعرب كل واحد منهم « شيخ عرب » ! وأين العرب أنفسهم ؟ علم ذلك عند الله ! والنبوغ لا يتسع إلا لواحد : فالدكتور على باشا ابراهيم جراح وكل من عداه « حمار » وسامى الشوا موسيقار وكل من عداه « حمار » ، ومحمد عبد الوهاب « المطرب الوحيد » وإذن فليس مطرب سواه ، وهذا المهندس ليس فى مصر غيره ، وذلك

الكاتب أكتب الكتاب، إلى غير ذلك من المبالغات التى تواضع الناس على أنها الاصل المقبول والواقع المعقول!

وكان حافظ يشكو من تدخل بعض المصريين فيما لا يعنيهم وانصرافهم عن شئونهم للاعتكاف على شئون غيرهم . وينعى على مصر اشتغالها كلها بالسياسة سواء فى ذلك صغيرها وكبيرها ، عالمها وجاهلها ، ذكيها وأبلهها ! وقد سمعته يقول إن انجلترا وهى سيدة الممالك تترك لعشرات من رجالها الاشتغال بادارة دفة سياستها ، أما مصر فان بها أربعة عشر مليون سياسى ! وكانت له رحمه الله نظرات ثاقبة فى المواقف السياسية وفى المشتغلين بها ونبوءات تحقق منها الشىء الكثير.

وبالرغم من أن حافظاً قد تعرض لكثير من سخط الدهر وقسوة الزمن وشظف العيش وخشونته إلا أن شيئاً من ذلك لم يؤثر فى خلقه ولا فى رأيه فى غيره من الخلق بل ولا فى الزمن والعيش والحياة .

رحم الله حافظاً وعزّى عنه أسرة الأدب وألهمهم السداد والتوفيق فى القيام ببعض ما لهذا الأديب الفذ عليهم وعلى البلاد من حق ، وكفاء ما كان له فى الأدب المصرى الوطنى من أثر ؟

حسن الحطيم

حافظ واللغة الفصيحة

كنتُ وعدت الصديق العزيز محرر (أپولو) أن أكتب كلمة للعدد الخاص بذكرى حافظ ، وأخذت أسوّف ، ولى أعذار فى التسويف حتى كاد يونية ينصرم ، وعدت أفكر فى التحلل من ذلك الوعد ، فانى على سفر ، وفوق كاهلى واجبات لا بدّ من انجازها .

ولكن ذكرى حافظ كانت تهيجنى فى كل لحظة ممثّلة فى بيته الحزين :

مرضنا فما عادنا عائدٌ ولا قيل أينَ الفتى الالمعى

ومرّ بالبال أنى شُغلت عن شهود جنازته ، فمن المروءة ان لا أُشغل عن شهود ذكراه .

وأنا أقف فى موكب هذه الذكرى عندنقطة صغيرة : هى عمل حافظ فى انهاض اللغة الفصيحة .

١ — كان حافظ من المفتونين بأدب اللغة العامية وكان يحفظ كثيراً من المواويل والازجال ، وكان ينشد محفوظاته تلك فى حماسة وإعجاب ، ولكن اتصاله بالاستاذ الامام محمد عبده حوّله الى قوة طاغية فى مناصرة اللغة الفصيحة ،وصداقته للوزير المصلح احمدحشمت باشا دفعته الى التفكير فى رياضة تلامذة المدارس على فهم لغة القرآن ، فأنشأ قصيدته المشهورة على لسان اللغة العربية :

أنا البحر فى أحشائه الدر كامنٌ فهل ساءلوا الغوّاصَ عن صدفاتى

وأخذ يخلق المناسبات للسخرية من أقطاب الأدب الحديث الذين عجزوا عن وصف ما جدّ من المخترعات على حين استطاع البدوى ان يسبغ على ناقته ابلغ الصفات واشرف النعوت ، واليك قوله فى مقدمة ترجمة البؤساء :

« تباركت اسماؤك اللهمّ ! أيدعى البعير ، وهو ذلك المركب الخشن بهذه الاسماء التى تضيق عنها بطون الكتب وهذه مراكب البخار والسكهرباء لانكاد نجد لأُسمائها مرادفاً فى هذه اللغة ؟ فما عسى ان تكون حالنا بجانب ذلك العربى الذى يقول فى وصف عيشه :

الابيضان أبردا عظامى الماء والفتُّ بلا إدام

وهو فوق راحلته ظالع على قتب يكاد يدمى عجانه تحت شمس تكاد تأكل ظلها فى مفازة .

تمشى الرياحُ بها حيرى مولهةً حسرى تلوذ بأكناف الجلاميدِ

اذا أردته على ان يصف تلك الراحلة العجفاء ، وأردتنا على ان نصف ونحن نستطيب من صنوف الطعام ما يضيق بهصدر الخِوان ، ونتبوأ أريكة «الاوتمبيل» تحت ذلك الظل الظليل ، فى مخارف ضفاف النيل ، على فراش وثير ، ومتكأ من حرير ، بين نسيم عليل ، وماء سلسبيل ، ذلك المركب الذلول الذى لا تلحق به صافنات الخيول ، فوقفنا أمامك موقف الحائر ، لا نعرف له اسماً يدل على مسماه ، ولا مرادفاً فى اللغة يؤدى معناه ! نخذوا ايها القادرون على الاصلاح بيد اللغة ، وانظروا كم ادخل فيها آباؤكم من كلمة فارسية . وهذا كتاب الله بين ايديكم يأذن لكم بما ندعوكم اليه ، وهذا باب الاشتقاق وباب النحت لا يزالان بحمد لله مفتوحين لم

يصبهما ما أصاب باب الاجتهاد فادخلوا منهما آمنين » .

وخلاصة هذه الكلمة أن تخلف اللغة عن وصف المخترعات الحديثه ليس من عيوبها ، وانما العيب عيب الكسالى العاجزين الذين لم يخلقوا من الألفاظ والتعابير ما حمق البدوىّ الضالّ فى الصحراء . وسخرية حافظ التى قذف بها الأدباء منذ عشرين عاماً لا يزال لها مكان : فعندنا بحمد الله مئات من الأشباح الجميلة ترمى اللغة بالضعف والتخلف ، كأن اللغة تخلق نفسها خلقاً ثم تتقدم طائعة خاشعة لخدمة الأدباء سكان القهوات !

٢ — ومن اجمل ما قرأت لحافظ رأيه فى قوة الاصطلاح ، وهو رأى نشره فى مقدمة كتاب الاقتصاد الذى اشترك فى ترجمته مع الأستاذ الجليل خليل بك مطران . وهو يرى أن الاصطلاح ليس بأوهى قوة من النقل ولا هو بدونه فى مراتب الهيمنة على اللغات « فما من كلمة تنبت ولا من لفظة تذوى الا وللاصطلاح يد فى حظها من الموت أو الحياة » .

وكانت حياة حافظ نفسها دعاية لقوة الاصلاح ، وان كنا لاحظنا أنه كان يخالف بين قوله وفعله ، فكان فى مجالسه من أوسع الناس صدراً ، وأعرفهم بحرية الرأى ، فاذا نظم قصيدة أو انشأ رسالة تكلف وتحذلق واستوحى المعاجم واغلق الباب فى وجه الاصطلاح !

٣ — واهم خدمة قدمها حافظ فى حياته الى اللغة الفصيحة هو تمكنه من الأدب القديم ، فقد كان يشعرك بجودة محفوظه وتنوّعه ان العرب أفصح الناس وابلغ الناس ، وكان يتدفع فى انشاد الشعر القديم تدفع السيل ، ثم يطوف بحدائق الملح والفكاهات البدوية والحضرية ، فلا تنصرف الا وانت أشوق الى دراسة الأدب الفصيح الذى يمكّن مثل هذا المحدّث من ناصية اللباقة والظَّرف وحلاوة الحديث .

وبعد ، فهذا ما سمح به الخاطر المكدود ، ولنا عودة فى الذكريات المقبلة ، فلن يكون هذا آخر العهد بشاعر مصر والنيل

زكى مبارك

صفحة مجهولة

من حياة حافظ

من أوليائه

فى صيف سنة ١٣٠٥ هجرية كنت طالباً فى الجامع الأحمدى بطنطا وقد سافرت فى ايام العطلة الى بلدنا القرشية ؛ ثم عدت فى أواخر شعبان من تلك السنة الى طنطا ، فاذا باخوانى واصدقائى يلوذون بفتى غض الاهاب جديد الشباب وقد أسرعوا بتقديمى اليه وتقديمه الىّ باسم الأديب الشاعر « محمد حافظ ابراهيم » ولم تمر الا عشية أو ضحاها حتى أحسست من نفسى ميلا اليه بجاذب من الأدب الذى كان نهمة نفسى حتى آل ذلك الى غرام بأدبه وما يشتمل عليه من ظرف ولطف محاضرة وبديهة مطاوعة وسرعة خاطر وحضور نادرة .

وكان دأبنا فى رمضان تلك السنة أن نصلى المغرب والعشاء والتراويح معاً ثم نلبث فى سمر ممتع ومطارحة للشعر ومذاكرة فى نوادر الأدب وما كان يطرف الحضور به مما يقف عليه من جيد القريض الى أن يأتى وقت السحور . ثم نعود بعد السحور إلى ما كنا فيه الى انبثاق الفجر فنؤديه ثم نخرج بغلس الى خارج المدينة حتى نصل الى قرب بلدة قحافة ثم نعود وقد آذنت الشمس بالطلوع فيذهب كل واحد منا الى بيته ثم نعود الى مثل ذلك إذا جنّ الليل .

وكان الذين اعتادوا الخروج معنا الى ما نخرج اليه هم :

(١) محمد حافظ ابراهيم (٢) محمد حلمى الجيزى أفندى عمدة الجيزة سابقاً (٣) السيد محمد ابراهيم صلاح التاجر بطنطا الآن (٤) الشيخ محمد ابراهيم البيومى من مدرسى الازهر الآن (٥) كاتب هذه السطور عبد الوهاب النجار .

ظل هذا دأبنا مدة شهر رمضان وفى أواخره بصرنا بيشروش جميل الصورة فى حديقة مدرسة الفرير ، فتقدم واحد منا وطرق بحلقة الباب ليفزعه فكان المنظر جميلا . فعاودنا ذلك العمل ثلاث ليال . ولكن جماعة الفرير ظنوا تعمدنا ذلك لاقلاق راحتهم ، فلما كانت صبيحة آخر يوم من رمضان خرجنا من المسجد بغلس وأسرعنا الخطا حتى أتينا إلى مدرسة الفرير والظلام لم يقوض خيامه ، وما أن تقدم واحدٌ منا لتحريك حلقة الباب حتى هبّ جماعة من الفلاحين قد أكمنهم جماعة الفرير للقبض

علينا فعلقت حبائلهم بمحمد حافظ ابراهيم شاعر النيل ومحمد حلمى الجيزى أفندى. أما أنا والشيخ محمد ابراهيم البيومى فاسلمنا أرجلنا للريح وطرنا مع البازى عليه سواد ولما أمنّا الطلب وقفنا ننتظر اخوينا الى ان فضحنا النهار ولم يبق للانتظار فائدة فذهبنا بحسرة ما بعدها حسرة — وكان السيد محمد ابراهيم صلاح قد تخلّف عن الذهاب معنا فى هذه المرة .

ولما كان هذا اليوم آخر أيام رمضان ذهبت إلى بلدنا لقضاء العيد هناك وقد اتفقت مع السيد محمد ابراهيم صلاح والشيخ محمد ابراهيم البيومى على أن يكتبا إلىّ بما يتم من أمر حافظ ومحمد افندى حلمى وأن يلحنا لى لحناً أعرفه، وذهبت وأنا على أحرّ من الجمر - وفى اليوم الثانى من أيام العيد وافتنى تذكرة بوستة من المرحوم حافظ بك بما تمّ :

وذلك انه لم يرتفع النهار حتى ذاع الخبر وأرسلت التلغرافات لقنصلية فرنسا . وعلم كل من المرحومين نيازى افندى مهندس تنظيم طنطا وهو خال حافظ والشيخ محمود الجيزى شقيق حلمى افندى ، فذهبا إلى جماعة الفرير وكلماهم فى هذا الشأن فرضوا باطلاقهما (وكانوا قد سلموهما إلى الضبطية) بشرط أن يعودا إلى المدرسة ويستسمحاهم ، ففعلا وانتهى الأمر باطلاقهما .

ومما حصل لحافظ فى ذلك العهد أن خاله أغلظ له القول مرة فى شأن من الشؤون وزجره ، فكتب إلى خاله :

ثقلتْ عليك مؤونتى   إنى أراها واهيهْ
فافرحْ فانى ذاهبٌ   متوجّهٌ فى داهيهْ !

وكان كثيراً ما يشكو الدهرَ ويندب سوء حظه ويتبرم بأحداث الزمن ويتمنى لو يوافيه حمامه — فمن ذلك قوله :

عجبتُ لعُمرى كيف ُمدّ فطالا   وما أثرتْ فيه الهمومُ فزالا
وللموتِ ما لى قد أراه مباعداً   وجُلُّ مرادى ان أوسَّد حالا
فللموتُ خيرٌ من حياةٍ أذَى بها   ذليلاً ، وكنتُ السيد المفضالا

ولقد أوردت عليه هذه الأبيات قبيل وفاته فتعجب أن يكون هذا الشعر صادراً منه .

ومن آيات ذكائه أنه كان يسمع الفقيه فى بيت خاله يقرأ سورة الكهف أو سورة مريم أو سورة طه فيحفظ ما يقول ويؤديه كما سمعه بالرواية التى قرأ بها الفقيه !

وكان إذا وقف على بيت نادر أو شعر بارع يبادر الى قبل أن يُسمعه انساناً آخر ويسمعنى ما أعجبه ، وكان لا يُعجبه الا كل مرقص مطرب .

حافظ المحامى

كانت المحاكم الأهلية حديثة الوجود ، وليس للمحاماة قانون مسنون ، ولا توجد شهادات حقوقية فى طائفة المحامين ، ولم يكن نظام الامتحان قد استحدث ، فكل ذى قضية جاء بشخص وقال إنى وكلته قُبل منه .

وقد ضجر حافظ من فراغه ، فذهب الى المرحوم الشيخ محمد الشيمى المحامى بطنطا (بك فيما بعد) واشتغل عنده فى مكتبه ، وكان يسافر الى المحاكم الجزئية القريبة من طنطا ويترافع فى القضايا ويكسبها.

ولخلاف حصل بينه وبين محمد الشيمى بك ترك كتبه وترك له هذين البيتين :

جرابُ حَظِيَ قد أفرغتُه طمعاً ببابِ أستاذنا الشيمى ولا عجبا

فعاد لى وهو مملوءٌ فقلت له : ممَّا ؟ فقال : من الحسْراتِ واحربا !

فأسف المرحوم الشيمى بك لخروجه وحاول استرضاءه وعودته إلى العمل معه فى مكتبه فلم يقبل .

انتقل بعد ذلك حافظ ابراهيم ليشتغل فى مكتب محمد أبى شادى بك بطنطا فمكث معه مدة كان فيها مغتبطاً كل الاغتباط ، وكان أبو شادى بك يرى نفسه قد عثر على كنز ثمين فكانا يتنادران بالأدب ويتطارحان الأشعار الى أن خرج حافظ من مكتبه الى مكتب عبد الكريم فهيم افندي المحامى فمكث فيه مدة من الزمن يشتغل عنده . وكان مكتب عبد الكريم فهيم افندى ومكتب ابراهيم الهلباوى بك متجاورين ومحلهما كان بالوكالة التى جُعلت فيما بعد المعهد الاحمدى ، وكان كثيراً ما ينتقل الى مكتب ابراهيم الهلباوى بك الذى يسرّ بحديثه وأدبه .

❁ مرثية حافظ ❁

لأستاذه وصديقه القديم محمد ابى شادى بك

كان المرحوم حافظ ملولاً فكان قليل الكتابة بل نادرها ، وكان لا يأنس إلى تدوين شعره مكتفيا باملائه عن ذاكرته القوية ، ولذلك نجد نماذجَ خطه نادرةً وخاصة شعره . بيد أننا نجد حافظاً يشذّ عن هذه القاعدة فى مرثيته البليغة المؤثرة لأستاذه فى المحاماة وصديقه وزميله فى الأدب المرحوم محمد ابى شادى بك . وإليك نصّها الكامل كما كتبها ، وهى مثال من وفائه الرائع :

عجبتُ أن جعلوا يوما لذكراكا

كأننا قد نسينا يوم منعاكا

إذا سلت يا أبا شادي مطوّقةٌ

ذكرَ الهديل فشق أنا سلوناكا

وبهجة النيل والوادي وساكنِه

رجعٌ لصوتك موصول بذكراكا

لقد عشت فينا نميراً طاب موردُه

أسمى سجايا الفتى أدنى سجاياكا

فما كأُولاك في برٍّ وفي كرمٍ

أُولى كريمٍ ولا عقبى كعقباكا

قضية الوطن المغبون قد ملأت
أنحاء نفسك شغلا عن قضاياكا

أبليت فيها بلاء المخلصين لها
وكان مسعاك أنى شئت فتاكا

أجملت يا فضلو في قصائدهم
حتى لقد نظروا بالحمد مثواكا

لم يبق لي قيد شبر صاحباي ولم
يتح لي القول لا هذا ولا ذاكا

يا مدمن الذكر والتسبيح كشتا
ها أنت في الخلد قد جاورت مولاكا

لو لم يكن لك في دنياك تضحية
سوى زكي لقد جملت دنياكا

عفيف ابطه

* * *

رحل بعد ذلك حافظ ابراهيم الى مصر ودخل المدرسة الحربية وكان دخولها منتهى ما يتمناه . وعقب ذلك رفعت دعوى على خاله محمد نيازى افندي بمحكمة طنطا الاهلية وحُكم عليه بسنتين . فنظم حافظ قصيدة للخديوى المرحوم محمد توفيق باشا يستعطفه بها على خاله ، فوقعت قصيدته من نفس الخديوي موقعاً حسناً فأصدر عفوه عن خاله وعينه مدرساً للامراء أحمد سيف الدين ومحمد ابراهيم وشويكار هانم ، وبقى بعد مفارقتهما عهد الدراسة يستولى على مرتبه الى وفاته .

وأما حافظ فقد تخرج من المدرسة الحربية سنة ١٣٠٩هـ. وتقلبت به الاحوال الى أن صار شاعر النيل غير مدافَع . فرحمه الله رحمة واسعة وعوض مصر والعربية فيه خيراً ؟

عبد الوهاب النجار

حافظ لسان عصره

أصبحتُ أجفل من الشعر وأفرق من الكلام فيه وأستجير منه بالحذر ، وأحسب ذلك لأنى عانيتُ أزم التعبير به زمناً فأخفقتُ ، وعدت أندم على ما أضعت فيه من جهد وعمر ، وأعجب للغرور الذى كان يزين لى الزهو به . ولست أتكلف التواضع ، فان هذا ما أنطوى عليه الآن من احساس ورأى ، وقد يتفق لى أحياناً أن تقع عينى على جزء من ديوانى فأفتحه وأقلب صفحاته واقرأ ابياتاً هنا وأخرى هناك ثم أطوى الكتاب وأرده الى حيث كان مدفوناً وليس بى الا الدهشة من أنى كنت أعدّ هذا كلاماً يستحق النشر والاذاعة . وكنت قديماً أتطاول على الشعراء وأتناول بالنقد واقسو فى ذلك عليهم واعنف ، بل لقد افتتحت — او على الأصح كان مما افتتحت به — سيرتى فى الكتابة بأن نقدت حافظاً رحمه الله فى سلسلة مقالات كنت أعتز بها وأعتدها شيئاً ثميناً فجمعتها ونشرتها فى كتاب بيع من نسخه القليل وتكدس اكثرها عندى فبعته لبقال رومى — لعله أمّى أيضاً — ليلف فى ورقاته ما شاء من جبن وزيتون أو يفعل بها ما هو شر من ذلك . وقلت

وقد خلصت أنفاسى واستراح قلبي : هذا خيرٌ ، فما يستحق مثل هذا النقد الا هذا المصير .

ولم يتغير رأيي فى الشعر ولكنى صححت موقفى من حافظ ، فهو عندي لسان العصر الذي عاش فيه ، وصوت الشعب الذى انجبه . ولم يكن العصر يحتاج الى ارفع من هذه الطبقة ، ولا كان الشعب يقدر ان يحسّ روحه الا فى مثل شعر حافظ . نعم ظهرت المدرسة الحديثة فى الشعر والأدب على العموم منذ أكثر من عشرين سنة ولكنها لم تكن مدرسة « شعبية » فلم تستحوذ على الجمهور استحواذ حافظ عليه ، ولم تستولِ على هواه مثل استيلائه ، ولم يتصل ما بين هذه المدرسة الجديدة وبين الشعب الا بعد أن أخذت دائرة الثقافة فى الاتساع .

لحافظ شاعر شعبي ، ولست أقصد الى الازراء به أو الغضّ منه ، فما أريد أكثر من ان اقول انه يصور روح الشعب الموجع الحزين المتجلد فى شيء من الوجوم والدهشة والحيرة : الحيرة فى امر نفسه ، والحيرة فى امر هذه المقادر التى لا تجرى الا بالدواهى والأرزاء . وما قرأت شعراً لحافظ الا أحسست ذلك منه . وا كبر ظنى ان غيرى من القراء مثلى . وليس بالقليل ان يكون رجلٌ لسان امة والهاتف بنجوى ضميرها وسر روحها ، مهما كان الرأى فى قيمة الشعر من حيث هو شعر وبغض النظر عن بواعثه وعن الروح التى صدر عنها الشاعر والغاية التىاعتمدها وقصد اليها ؟

ابراهيم عبد القادر المازني

موكب الذكريات

أو

الناى الباكى . . .

(مهداة إلى روح المغفور له محمد حافظ ابراهيم شاعر الجمال والذكريات)

ما لكَ اليومَ واجماً يا خيالى   كيف لا تَرسمُ الدموعَ الغوالى؟
سقطتْ فوقَ صفحةِ الخدّ دُرّاً   وتهادتْ مضيئةً كاللآلى

هبطتْ : كلُّ دمعةٍ كوكبٌ نجمٌ ، عظيمُ الضياء ، سامى الجمالِ
وبروحى أفديك من ألم الوجدِ ، حياتى ، ومن ضنىً وهزالِ

« ٠ »

وعجيبٌ يا فتنتى أن نلوحى ثرةَ الدمع ، وهو من قبس روحى
كان خيراً — لو ترأفين بحالى — حُبْسُه ، إننى كثيرُ الجروحِ
أفلا تعلمين أن فؤادى مَنبعُ العشق والهوى والطموحِ ؟
أوَهل تُنكرين أن دموعاً منكِ تُعرى شغافَ قلبي الطليحِ ؟

« ٠ »

ولرُبَّ ابتسامةٍ منكِ بالأمس أضاءت ببسمةٍ للسعادهْ
وأحاطت روحى بهالة حُسْنٍ طالما قد خصَصْتُها بالعبادهْ
وفؤادي يا طالما عندها صاغ قصيداً مُنضَّداً فأجادهْ
صاغه من نسائم الفجرِ شعراً وسقاه وجدانه ووِدادهْ

« ٠ »

والذى يقتل الشعورَ ادّكارى زمنَ الوصل إذ وقفتِ جوارى
والعيونُ الظِماء تُوحى مع الصمتِ كلاماً يهيج منه أوارى
والشفاهُ الرقاقُ تهفو على القُربِ لرشفٍ محبَّبٍ واعتصارِ
ولهيبٌ من وجنتيكِ مضىءٌ فحمةَ الليل .. يا له من نارِ !

« ٠ »

كيف أنسى النخيلَ فى جانب الجدولِ طالت تروم لمسَ السماء
ترسل اللحنَ ، حينما تخطر الريح حزيناً ومُشجياً كالرثاء
شربتْ من دماء قومٍ تولّوا فاستطالتْ فروعُها فى الفضاء
وكذاك الحياةُ تفنى لتُعطى وعطاء الحياةِ بابُ الفناء

« ٠ »

كنتُ يا طالما أُصوِّبُ طرفى في فضاء الوجود أنشد فَهْمَا
لم أجدِ غير أننا في وجودٍ يُذْهِل العالمَ البصيرَ فيعمَى
كلُّ ما فيه مُلغِزٌ ، لستَ تدريه ، ولو كنتَ قد تمكنتَ عِلْمَا
بَيْدَ أنّا ، هُنا ، نحاول بالشعرِ بياناً لِكل لُغزٍ مُعمَّى

« • »

وإذا ما التوى على الفهم شيءٌ فابعثْ الشعرَ صوبَه يتهادَى
إن بالشعر ينجلى كلُّ غيْمٍ وبه تُصْبح الوهادُ مهادَا
أرغنُ العيش ، مزهرُ الروح ، نجواه سدادٌ لمن أراد السدادَا
يرسم الكونَ كيفما شاء ، لا يتبع رأياً ، ولا يلين انقيادَا

« • »

يا عزاءَ النفوسِ في ساعةِ اليأسِ ، وساقي النفوس راحَ السرورِ
قُمْ ، تَحدَّثْ عن الفؤاد ورجِّعْ نغماتِ الأسى ولحنَ الحبورِ
لا تُفرِّقْ بالله بين شجونى وسرورى ، فكلُّ ذاك شعورى
مُلْهَمَ الروح .. قُمْ أيا شِعرُ واهتفْ أنت خدنى ، وناصحى ، وأميرى

« • »

ما الغرامُ الذى به نَتغنَّى كلَّ يومٍ في نثرنا والقصيدِ ؟
أهو حبُّ الجمال والعقل ، أم هل هو حُبُّ الغِنى وحُبُّ الخُلودِ ؟
الغرامُ الغرامُ نورٌ من الروح ، سَبوحٌ بروحِ طيرٍ شريدِ
ساربٌ في سماوةِ الكونِ يرتادُ فضاءً مُنَزَّهاً من حُدودِ

« • »

يُذهِل الناسَ طائراً ، فإذا حطَّ بقلبٍ ، أصابه فاعتلاَّ
هو نُورٌ ، لكنه حينما يطرق القلبَ سعيرٌ فى نارها القلبُ يَصلى
هو روحُ الحياة ، يستعذب الخلقُ الأمانى متى بدا وأهلاَّ

يخلق العلمَ والنبوغَ ويُفنى كلَّ فنٍّ إذا طغى وتولَّى

« • »

يافؤادى ، أعِدْ علىَّ غرامى وتحدث عن شقوتى وسقامى
بُثَّ فى الشعر ما عرفتَ عن الغيد ، ولمُنى إذا رأيتَ ملامى
علم الله كم قصرتُ بيانى وقريضى على الهوى والتسامى
ولكم كنتُ أنفح الغيدَ بالشعر ، فما كنَّ يستسغن كلامى!

« • »

كيف بالله يستسيغ جهولٌ آيةً من بلاغةٍ وبيانٍ؟
كيف بالله تفهم الشعرَ أو كيف تحبُّ البيانَ هذى الغوانى؟
هن برَّزْنَ فى مغازلة الناس ، وقد فُقْنَ فى صنوف الدهانِ ...
ولقد كنتُ كيفما شِئْن دهراً ذا مجونٍ وخبرة بالحسانِ !

« • »

وسقى الله ذلك العهدَ ، قد كنتُ سعيداً به وكنتُ طروبَا
حيث كنا نرعى الكواكبَ زُهراً ونرى فى السكون سحراً عجيبَا
غمر الحُسْنُ كلَّ شىءٍ فبتنا نحسب الخلدَ فى الحياة قريبَا
يا رعى الله فى ثرى (أَجاٍ) كوخاً صغيراً لقيتُ فيه الحبيبَا...

« • »

ضرب الدهرُ بيننا فغدا الجسمُ محيلاً كدارسِ الاطلال
ونرى الشوقُ بالفؤاد فغنَّى باكَىَ الشوقِ فى القوافى الطوالِ
وله العُذْرُ ... كيف ينسى التلاقى فى ضياء الهلال والعيشُ حالى
والسكون المقيمُ أرخى سدولاً تحجبُ الحبَّ من أذى العُذَّالِ

« • »

والنسيمُ البليلُ من جانبِ الجدولِ ، يهفو يعانق الأرواحَا
هبَّ يُذكى الغرامَ فى خافقينا ثم يُنضى عن النفوس الجراحَا

يدفع القلب لاهثَ الثغرِ للرشف ، فيحسو من اللمى أقداحا
والعناق العنيف كم جمع القلبين فى سورةِ الغرامِ فناحا

« • »

مَنْ يقول الغرام اثم وعار قل له أنت جاهل لستَ تدرى
أنظرْ الحبَّ فى الخمائل يا غِرُّ ، عنيفاً ما بين زهرٍ وزهرٍ
وانظر الحبَّ فى الربى كم تبدَّى عاصفَ الشوق بين طيرٍ وطيرٍ
إنما آيةُ الحياةِ هى الحُبُّ ، فمن لم يحب عاش كصخرٍ

« • »

رُبَّ حُسْنٍ فى الروض أيقظ حِسّى وأهاجَ الكمينَ من أفكارى
كم مَشى القلبُ صوبه يتغنى بنشيدٍ ممتْ به أشعارى
حبذا وقفتى مع الزهر فى الروض ، أقول القصيد فى الابكار
والطيور الخِفافُ تطفر نشوى وسُكارى ، وما انتشتْ من عقارِ

« • »

آهِ .. ما غرَّرَ الجمالَ بقلبى فدهانى وصرتُ منه المُعَنَّى ؟
أهو أنى نفحتُه وجدانى ودمائى مراقةً ، فتجنَّى ؟
أهو أنى بكرتُ كالبلبل الصدَّاح فى الروض ساجماً أتغنَّى ؟
أهو أن الدموع منّىَ حرَّى صُغْتُها فى مديحه خيرَ معنًى ..؟

« • »

وأنا شاعرُ الملاحة مذ كانت ، وفى أىِّ صورةٍ تتجلَّى
أجتليها بخاطرى وفؤادي وبفكري ، مما ترى العين ، أحلى
نظرة القلب بعدها نظرة العين ، وشتّان بين عُليا وسُفلى
رُبَّ أعمى العينين ينظر للشىء بقلبٍ منوَّرٍ يتملَّى !

***

(روضة الشعر) كيف أزهارُكِ اليومَ ، وكيف الطيورُ فى عَذباتك؟
كيف حالُ (البحيرة) الضحلة الماء ، وكيف (النخيلُ) فى جنباتك؟
كيف (دوحاتُك) البواسقُ أسدلنَ شعوراً ، وكيف حال (مَهاتك) ؟
تمتطى (الفلك) فى (البحيرة) جذلى وتشمّ العبير من زهراتك

« • »

تبعث الشجوَ فى الفؤاد بمجدافٍ اذا صافح (البحيرةَ) رَتّلْ
وتغنى فينصتُ الطيرُ فى الدوحِ ، ويُسبى الغناءُ أرخمَ بلبلْ
زهرةُ الروض فى الاصيل وفى الفجرِ ، وريحانةُ الفؤادِ المبلبلْ
طالما صُغتُ فى هواك قريضاً زاهياً كالورودِ ، بل هو أجملْ

« • »

وحنينى إلى لقائكِ يذْوِى بفؤادى دَوِىٌّ حيرانَ جائرْ
يُرسل الدمعَ والأنينَ هباءً وإذا هَمَّ ، أقعدتْه المقادرْ
حزبتْه الأيامُ فى ميعةِ العمرِ ، وقدَّتْه بالسيوف البواترْ
حطمتْ كوخَ حُبِّه ونفتْه عن فتاةِ الاحلام أُختِ الجآذرْ

« • »

رَبِّ ، ماذا جناه قلبى فيشقى وبجمرِ الصدودِ والهجرِ يُسْقَى ؟
ماونى الدهرُ عن هواه ، فأرداه وشيكاً وسامه الخسفَ رقّا
رَبِّ إنى جُننتُ من وثبة الدهرِ ، وانى أكاد أزهق عشقَا
وتُرَى عائدٌ حبيبُكَ يا قلبُ مُنيباً ، أم عاف حُبَّكَ حقّا

« • »

وتعالى يا طيرُ واسمعْ شكاتى آخرَ الليل فى خفوتٍ وهمسِ
أرقبُ النجمَ فى الدجى رفّاقاً كفؤادى إذا طغى بىَ يأسى
وأقول القريضَ فيه عزائى وبه راحةٌ لقلبى وحِسِّى

وإذا عضّك الأسى ، فالقوافى عنـد جاماتها شرابُ التأسّى

« ٥ »

وإذا ما أردتَ نظمَ القوافى فليكنْ فى المروج والأزهارِ
إنها — لو عقلتَ — أطهرُ روحاً من مِلاحٍ ، غرامُها كالقهارِ
وقلْ الشعرَ فى جمال الأماسِى وترنم بحسنِ شمس النهـارِ
حَسَنٌ كلُّ ما على الأرضِ من زهرٍ ومن أنهرٍ ومن أطيـار

« ٥ »

ولماذا الأنينُ ؟ حطمتَ نفسَـكْ وعلامَ النحيبُ والعيشُ زَهْرُ ؟
أتعدُّ الحياةَ خلواً من الخيرِ ، وفى كلِّ ما ترى العينُ خيْرُ
لا تُحقِّرْ مستصغراً وضعيفاً ربما منه قد يُصيبك بِرُّ
رُبَّ كلبٍ أطعمتَـه ، يمنع الضُرَّ إذا ما أصاب بيتَـك ضُرُّ

« ٥ »

وعَـزاءُ النفوس أنْ تُرسلَ الشـ ـعرَ ، إلى بارىءِ الدُّنا قُربانا
يَغمر الروحَ عنـد نجواه نورٌ يُفعم القلبَ رحمةً وحَنانا
ويَشيع الهـدوءُ فى كلِّ فجٍّ وتُغنِّى قيثارتى الإيمانا
تَـنشُـدُ الخالدَ الجلالةِ والحُسْـ ـنِ ، فمِنْ حُسْـنِـه قَـبَسْتُ البيانَـا

مختار الوكيل



حافظ كما عرفته

حافظ — ومن أسماه فقد كنَّاه — يظلمه من ينظر اليه شاعراً فقط ولم ينظر اليه « رجلا » كاملَ الرجولة . يعلو عن قشور الناثر اذا ما ذكر الأدب بشعره الفحل فى الشعر ونثره الفحل فى النثر ، وبقوة بيانه وبلاغة لسانه وبعذوبة حديثه إذا حدث وسعة ذاكرته اذا روى كأنما تلك الذاكرة الواسعة دواوين عن الشعر ومؤلفات

جمة من روائع البلاغة والحكمة ومعجم عربى لا نقصان فيه ولا أخطاء .

أما اذا ذكر صفاء الذهن ورقة الخلق وبسطة الكف والسماحة وصدق الود والوفاء وسذاجة الحلم والقناعة والوفاء وكل ما عدّ العرب فى شعرهم وحكمهم وبلاغتهم من الفضائل فان حافظاً — رحمه الله — كان الأول فيه والأخير أو بعد الأخير فى ما يذم ويستنكر.

أما وطنيته الصادقة فلا يعادلها الا دينه المحمدى المتين . فلك من حافظ ما شئت الا أن تنال من هاتين الخلتين دينه ووطنيته ، ولك أن تحيله عما شئت لما طُبع عليه من سماحة الخلق وحسن الطوية الاعن هاتين العقيدتين اللتين تقيد بهما ، وقد طبع على ألا يتقيد بشىء حتى التقاليد والنقل ومتابعة الناس بعضهم لبعض فى ما يجمعون عليه اما بعد البحث والتروى واما بالتصديق والمتابعة بلا بحث ولا تدقيق . فالناس جميعاً معجبون بحضارة أوروبا وتقاليد الاوروبيين، أما حافظ فانه طاف مدن أوروبا فلما عاد منها عاد ساخطاً على تلك المدن والتقاليد « التى تجعل الناس سجناء وتحرمهم الحرية باسم الحرية » فى ما يسمونه أوطانها » .

هكذا كان يقول لنا حافظ الذى كان يكره التقيد فى ما تواطأ الناس على التقيد به سواء أكان فى مأكلهم أم مسكنهم أم أفراحهم أم أحزانهم أم مجالستهم أم مسايرتهم أم معاملتهم ومع ذلك كان الشاعر الفحل المقيد بالقافية والروىّ وكان الكاتب البليغ الفذ المقيد بالسجع والعبارات الموجزة كأنها فى أوزانها قطع من الموسيقى بمقاطعها ومصارعها .

حافظ يظلمه من ينظر اليه من ناحية واحدة ولم ينظر اليه رجلاً بارزاً كل البروز من كل ناحية من نواحى نفسه وخلقه ، سواء اتفق ذلك مع خلقنا ونفسيتنا أم لم يتفق وسواء أكان مما ألفنا مدحه لانطباعنا عليه أم لم نألفه ، وسواء اتفق الناس على عدّه حسناً مواتياً ام لم يتفقوا ، فحافظ كان شخصية بارزة وأول الادلة على بروز شخصيته انك اذا التقيت به مرة واحدة كانت هذه اللقيا الواحدة كافية لأن تطبع فى ذهنك صورة جسمه القوىّ العضل الطويل العريض المتناسق المتلائم الاعضاء ورقة صوته وغنته وحركة يديه الفصيحة وتهدّل جسمه اذا مشى على حركة يدين كمجذفى السفينة وارسال عباراته فى التبسط أو فى الجواب كأنما كل نبرة توكيد جازم قاطع لا يقبل جدلاً ولا حواراً . كذلك هبّات الحكمة فى ذهنه

تجرى على لسانه وكأنها قطعة من الوحى بعبارة وجيزة ولفظ جزل تنفذ كالسهم المطلق الرنان فتقفل باب الحوار والجدل وتكون الحجة الدامغة والبرهان القاطع .

حافظ شاعر ، والشعر قطعة من الموسيقى أو هو هى ، والشرقيون موسيقيون بطباعهم ومزاجهم يستهويهم اللحن والنغم ،لذلك غلبت الشاعرية فى حافظ ووصفه وصفاته مع انى لا أجد مفاضلة بين شعره المنتقى ونثره المنمق المتين البليغ العبارة ففيمَ كانت شاعرية حافظ غالبة على نثره اذا نحن لم نضع فى احدى كفتى الميزان الى جانب الشعر او النثر عاطفة القارىء العربى ونفسيته ؟

أما الخيال وأما التخيل فى شعر حافظ فقد يكون أقل منه فى شعر سواه من فحول الشعراء ، وأما الحكمة وأما الديباجة وأما الحقيقة والواقع فهى فى شعر حافظ أقوى منها وأمتن وأصدق من شعر كبار الشعراء ، فهو بشعره يتحدث الى النفوس بقوة الحجة حتى تخال البيت اذا تلاه حافظ يدوى كالقذيفة وينفذ كالسهم ، فاما أن يخلق فى نفس السامع عقيدة واما ان يهدم ايماناً ، وهو فى الحالتين يتملك العقل ويخلب اللب ويتولد عنه الاعجاب والاقناع . واىّ نفس لا تستثار بمثل قوله وهو يصف هلال غرة السنة وقد أطلّ على الالوان . . . ؟ واي نفس شموس تنفلت من قوله وهو يرثى أحب الناس اليه الشيخ محمد عبده و«سلامه على الاسلام بعد محمد» ؟ وأية عقيدة لا تتزعزع وحافظ يقول فى تعيين رجل الأمة سعد زغلول وزيراً للمعارف « فما دام فى قصر الدوبارة ربّه — فسعدودنلوب لعمرك واحد » فهل هناك خيال فتان ساحر أم هناك حقائق رائعة ليست الخ كساءً من اللفظ الجزل الموسيقى ؟ ألم يقض حافظ ببيت من شعره على تلك الحملة الهوجاء التى أثيرت على السوريين من أجل خطة احدى الصحف بقوله عن الأمة السورية « فصافحوها نصافح نفسها العرب » ؟ ان الذين عاشوا تلك الحقبة يذكرون ان هذا الشعر من نظم حافظ كان كافياً لمحو مجلدات من أقوال الصحف ومجلدات من أقوال الخطباء فيمن نعتوهم يومئذ بالدخلاء . . .

كان حافظ كثير العناية بشعره ونثره يصقله ثم يصقله ثم يصقله ، حتى إذا ما أتم صقله ووثق بانه صار صورة صادقة لما يريد تصويره تغنى به وردّده فاذا أطرب واذا هو طرب لتلاوته عرضه على نخبة من الادباء الذين يختارهم لنقده ، فلا يستكبر ولا يعاند بل يباحث، فاذا هو اعتقد بأن الصواب ما قاله ناقده لا يعزّ عليه هدم ما بنى

وتشييد سواه ، أو نثر ما نظم ونظم غيره. وأول مختاريه كان المرحوم اسماعيل باشاصبرى وثانيهم خليل مطران الذى كان يقدمه على سواه ويخلص له فى السر والعلانية وينزهه عن الغيرة والمزاحمة ويعتقد أنه اذا نظم « حلق بخياله الى جوٍّ عال يكاد لا يلحق بنفسه فيه » لحافظ على متانة نظمه ونثره وعلى سعة معرفته بلغته وعلى سعة روايته التى لا يلحق به فيها لاحق كان أقل الشعراء والكتاب استئثاراً برأيه وأكثرهم تساؤلا وسؤالا واستفهاماً ، والأثرة والانانية بالادب أول دليل الفقر بالبضاعة والجهل بالصناعة.

اذا لم يكن حافظ ممن ارتدوا فضيلة ضبط النفس فكان يقول للأعور يا أعور بلا محاسنة ولا مصانعة فانه كان شديد العناية بالانتقاد فانظر اليه وهو ينتقى الفاظه للنظم وعباراته للنثر تجده فيها الصائغ الذى يقلِّب جواهره ، وانظر اليه وهو ينتقى جلاَّسه وعشراءه تجد الحصيف الذى يبحث عن اللطافة والذكاء والانانية فلو أنه خيِّر بين معاشرة أكابر العالم ومعاشرة الشيخ عبد العزيز البشرى ومحمد البابلى لما تردد فى نبذ الاكابر واختيار هذين العشيرين وأمثالهما ليروِّح عن نفسه ما يكنه وليجد فى هذه النكتة مظهر الذكاء والفطانة واللطف ، واذا ثارت نفسه لأمر استحال عليه أن يضبط جماحها ليجامل أو يصانع .

واذا هو لم يوهب حب النظام والأناقة حتى شعره ونثره كان يكتبه على نتف من الاوراق تذوب بين أصابعه ، فأنه أوتى قوة الذاكرة حتى يستطيع أن ينشد :

علمى معى حيثما يممت يتبعنى   صدري وعاء له ، لا بطن صندوق
إن كنت فى البيت كان العلم فيه معى   أو كنت فى السوق كان العلم فى السوق

فليس اذن من العجيب ألاَّ يجدوا شعر حافظ بين أوراقه وليس من العجب ألاَّ يجدوا بين مخلفات حافظ ورقاً فكل ما نظمه حافظ كان مطبوعاً فى ذهنه ، وكل ما حفظه حافظ كان مصوناً فى ذاكرته ، والمحفوظ من نظمه هو القليل النادر كالقصائد التى أملاها على صديقه محمد ابراهيم هلال فطبعها فى مجلدين وكالقصائد التى نشرتها الصحف. وأما مانظمه ولم ينشر — لأنَّ نشره غير موموق على بلاغته — فكثير ورواته قليلون لأنه كان يكتفى أن يرضى نفسه بنظم ماهو فيض منها وعفو السجية دون أى اهتمام بحفظه أو تدوينه ولا تأخذه بالسيئة هوادة ولا بالحسنة مصانعة خصم أو صديق . ولا أخشى ان أشبهه بالبحر ركوداً إذا لم يطب له الكلام أو الموضوع

الذى يعالج ، وبالبحر فيضاً وتدفقاً اذا طاب له الكلام أو الموضوع الذى يعالجه .

* * *

عرفته فى أواخر سنة ١٨٩٩ وقد جاء من السودان أو بالأحرى جيء به منه حيث كان ضابطاً فى الطوبجية — المدافع — بتهمة التآمر ورفاقه الضباط الثمانية عشرة مع الخديوي عباس باشا الثانى ومكاتبته سرا بعد افتتاح الخرطوم عرفته وشوقى يقدمه لصاحب « الأهرام » كاتباً وشاعراً ليتولى عملاً بالاهرام ، لأن حافظاً ورفاقه أحيلوا الى الاستيداع بطلب اللورد كرومر وكيل الدولة الانكليزية وكان يطلب من الخديوى فوق ذلك اعلان استنكار عملهم والخديوى يماطل ويتردد فلما أحيلوا إلى المعاش اهتم الخديوى بأمرهم ليجدوا مرتزقهم .

وهذا ما أوصل حافظاً الى الخدمة بدار الكتب وكانت قبل هذه التسمية الحديثة تسمى المكتبة الخديوية لأن الخديوي اسماعيل أنشأها، ومع اهتمام الخديوى عباس بامره التحق حافظ بالشيخ محمد عبده وأصدقائه كسعد زغلول باشا وقاسم أمين واللقانى وأمثاله لان حافظا لم يؤتَ فضيلة ضبط النفس كما قلت فاطاع نفسه الى حيث مالت مزدرياً بمنفعته . وباستطاعتى أن أقول إن أواصر الصداقة تمكنت بيننا وازدادت مع الايام تمكناً فعرفت منه خوالج نفسه واطلعت على كل بيت نظمه وسطر كتبه قبل إذاعته ونشره . وتعب الكثيرون من أصحابه فى ان يحملوه على التداوى من داء السكر فلم يفلحوا ووفقت الى ان اقنعه بالتداوى ولكنى لم اوفق إلى حمله على الاستمرار لانه كان ملولا نفوراً بطبعه .

أكتب اليوم هذه الكلمة عنه وأكاد أحس بروز شخصيته بروزاً يطبعها فى كل ذهنى كأنه ماثل امامى ، وكان يلقانى كلما وقع نظرى عليه فى أواخر أيامه بهذه الكلمة : « لقد عشنا طويلا وعمّرنا . أفلا تحسُّ مثلى بدبيب الفناء وقرب الموت ؟ »

إن حافظاً أحس بدبيب الموت فى جسمه قبل أن يصل اليه ففاجأه وهو ينتظره وذهب إلى ربه بجبهة ناضرة وعين ناظرة ؟

داود بركات

حافظ كما عرفته

لعل فى أعناق بنى أباظة واجباً كبيراً نحو الذى قال فيهم :

بنى أباظة لا زالت دياركمو أفقَ البدور وغاباً للصناديدِ

فقد طوّقهم حافظ بمديحه الخالد ، وقلدهم من جميل شعره الرصين ، بما سوف يبقى على مر السنين ، وليس فينا من لا يشعر نحو شاعر مصر الكبير بدين يتطلب الوفاء ولكن شعوراً آخر يقعد بنا عنه هو : العجز عن حسن الاداء .

ولكنى دعيت لتخليد ذكرى صديقى بعد أن هجرت الصحافة للفلاحة ، والطرس إلى الفأس ، لا تبرماً بالادب ، ولكنه الملل واليأس ، وجئت اليوم متثاقلا ، بهمة متداعية فاترة ، ألقى الدلو فى الدلاء ، وأزاحم بمنكبى الادباء والشعراء ، تلبية لداعى الوفاء.

عرفت حافظاً من ثلاثين عاماً ، يزورنا فيملأ بيوتنا بهجة ويشيع فيها المرح ويَصرف أبناء الأسرة وشبابها إلى معالجة الادب والرياضة العقلية والمفاضلة بين الشعراء وتذوق النكات اللاذعة حلوة أو مرة ، ويرجع الفضل فى ارتباطنا به للامام الشيخ محمد عبده فقد كان صديقاً حميماً للمغفور له سليمان باشا أباظة أحد وزراء المعارف السابقين ، وكان الباشا أديباً كبيراً وشاعراً مجيداً . فأعجب حافظ به ، وافتتن هو بشعر حافظ وأدبه . ووجد الشاعر فى عميد أسرتنا ما يصبو مثله له : الأدب والشعر والجاه والوفاء وكرم الاخلاق . فلم لا يتعلق به وكفى بالأدب وحده صلة بين الرجلين تجمع بينهما وتوثق بين قلبيهما العلاقة مع امتناع المنافسة ؟!

لقد والله سمعت حافظاً غير مرة ينشد بيتاً لسليمان باشا أباظة من قصيدة له فى رثاء أخيه المغفور له السيد باشا أباظة :

ولو أن إظلام الليالى من الاسى ووقع الخطوب السود ماطلع الفجرُ

ويقول وددت لو أن لى هذا البيت من الشعر بنصف ديوانى كله .

وسمعته يردد مع شديد الاعجاب قول الباشا فى الفخر :

سيوفُ ثباتى فى قراع الشدائد تجردها أيدى التجلدِ لا يدى
يقولون سالمهن إن كنت ذا نهى وعزمى يقول الحزم قمع المعاندِ

ثم مات سليمان فحمل صديقه الشاعر قيثارته يرسل من نغماتها أشجى عبارات الأسى ويبكيه بقصائد تلمس خلالها الحزن الصادق ذا اللوعة المحرقة .

هل قرأت قوله :

أنَّى حللتُ أرى عليك مآتما فلمن أوجِّه فيك حسن عزائى ؟
لبنيك أم لذويك أم للكون أم للدهرِ أم لجماعة الجوزاء

« • »

لا تحملوه على الرقاب فقد كفى ما حملت من منّة وعطاء
وذروا على نهر المدامع نعشه يسرى به للروضة الفيحاء
تالله لو علمت به أعواده مذ لامسته لأورقت للرائى

« • »

خلقٌ كضوء البدر أو كالروض أو كالزهر أو كالخمر أو كالماء
وشمائل لو مازجت طبعَ الدجى ما بات يشكوه المحب النائى
ومناقبٌ لولا المهابة والتقى قلنا مناقب صاحب الاسراء
وعزائم كانت تفلّ عزائمَ ال احداث والايام والأعداء

« • »

شوقتنا للترب بعدك واشتهى فيه الأقامةَ واحد العذراء

« • »

وهل قرأت قوله :

أيهذا الثرى إلى مَ التمادى بعد هذا أأنت غرثانُ صادي
أنت تُروى من مدمع كل يوم وتُغذّى من هذه الأجسادِ
قد جعلت الانام زادك فى الدهر وقد آذن الورى بالنفادِ
فالتمسْ بعده المجرة وردا وتزوّدْ من النجوم بزادِ
لست أدعوك بالتراب ولكنْ بقدود الملاح والاجيادِ

بخدود الحسان ، بالاعين النجل ، بتلك القلوب والاكبادِ

لم تلدنا حواء إلا لنشقى ليتها عاطل من الأولادِ

سلمتنا إلى صروف زمان ثم لم توصها بحفظ الودادِ

« • »

خبرينا جهين لا تكذبينا ما الذى يفعل البلى بالجوادِ

كيف أمسى وكيف أصبح فيه ذلك المنعم الكثير الرماد ؟

« • »

رحم الله منه لفظاً شهياً كان أحلى من ردّ كيد الأعادى

رحم الله منه طرفاً تقياً ويميناً تسيل سيل الغوادى

رحم الله منه شهماً وفياً كان ملء العيون فى كل نادِ

« • »

ألهم الله فيك صبراً جميلاً كلّ من بات ناطقاً بالضادِ

بتّ فى حلة النعيمِ وبتنا فى ثيابٍ من الأسى والسهادِ

« • »

اتصل حافظ بسليمان باشا ثم بأبنائه وأفراد الأسرة جميعا ونشأت بينه وبينهم صداقة كانت تزداد مع الأيام رسوخاً ومتانة حتى امتنعت الكلفة وأصبح يحسب نفسه واحداً منهم ولا يحس فى بيوتهم بوحشة الاغتراب . والتفوا به يكرّمونه ويشيدون به ، ويتغنون بشعره ويشجعونه ، فكثر فيهم شعره، وما نشر فى ديوانه منه إلا القليل ، وإذا كان لكل شاعر شيطان أو ملاك مُلهِم فان ملاك حافظ كان مشغوفاً « ببنى أباظة » يلهمه فى مديحهم المعجزات ، أما شيطان الدكتور طه حسين فلا يغريه إلا بالطعن والتعويض والهجاء . فهو يقول « بأن شعره فى رثاء أصدقائه « الاباظيين » متكلف لا يدل على حزن صادق ولا لوعة وانما دفع اليه بواجب المجاملة وانك تحس عند ما تقرأه كأنك تقرأ شعر طالب وضع أمامه نماذج من الشعر القديم وأراد محاكاتها فأخذ معانى القدماء وذهب مذهبهم فى

الغلو السقيم » ، ويشبه الدكتور تعزيته « للأباظيين » بتعزيته للانجليز فى فقد ملكتهم . . . . . .

ولست أدرى لمَ يكون الامر كذلك وقد حدّثتُ القراء بنشأة ما كان بيننا من صلة ، ولمَ يُشبّهنا الدكتور طه بالانجليز غفر الله له وأجدادنا عرب علموا الناس الوطنية والثبات والتضحية ، ولمَ نعبد اليوم ما كنا نحرمه بالأمس ، ولا حرمنا اليوم ما كنا نعبده من دون الله ، ولا اتخذنا السياسة تجارة ؟..... والسبب فى هذا كله ما وجده فى رثائه من الغلو ! فهل استكشف الدكتور شعراً عربياً له أو لغيره فى الرثاء أو المدح خالياً من المبالغة والاغراق . . . . وهل أقدم الأمثلة أم أترك القراء يبحثون ؟

أما ما يعجب به الدكتور طه ويحبذه فهو رأيٌ للأُستاذ « لطفى السيد بك » فى الشاعرين الكبيرين فيقول فى كتابه حافظ وشوقى : « كنت مرة عائداً مع الاستاذ لطفى السيد بعد أن حضرنا اجتماعاً لتخليد ذكرى حافظ قبل أن يموت شوقى ، وكنا نتحدث فى أمر الشاعرين فقال لطفى بك : لقد خدعنى حافظ عن نفسه كما خدعنى شوقى عنها ! كنت ألقى حافظاً أول عهده بالشعر وكان يسمعنى كثيراً من شعره فلا يعجبنى ، فقلت له ذات يوم : أرح نفسك من هذا العناء ، فلم يخلقك الله لتكون شاعراً ! ولكنه لم يقبل نصحى وحسناً فعل ، فما زال يجدّ ويكدح حتى أرغم الشعر على أن يذعن له وأصبح شاعراً ، وكنت شديد الاعجاب بشعر شوقى أقرؤه فى لذة تكاد تشبه الفتنة وأثنى عليه كلما لقيته ، فما زال شوقى يكسل ويقصر فى تعهد شعره حتى ساءَ ظنى بشعره الأخير ! »

وأكتفى بأن احتكم للقراء فى رأي استاذنا لطفى بك وموافقة الدكتور طه عليه . فان الأجماع يقول غير ذلك ... يقول بضعف شعر حافظ فى السنين الأخيرة من حياته ، أما شوقى فلم يدرك الضعف شعره ولا تطرق اليه الوهن وكل من قرأ قصة « مجنون ليلى » وقد أخرجها فى آخر حياته يرى فيها البرهان الساطع ، والدليل الناصع القاطع . فما تلوتها مرة الا أخذتنى هزة الطرب ونشوة العجب ، واكبرت لغة العرب ، وشعرت بأن شوقى أراد أن تنهزم كل اللغات أمام الضاد ، فتم له ما أراد !

وفى الحق لقد جعلت « مجنون ليلى » الكثيرين مثلى تكبر فى عيونهم اللغة العربية

والشعر العربى القصصى ، وكنت أقرأ لهيجو وكورنيل وراسين ولامارتين ، وأقرأ للشعراء الحديثين من الفرنسيين فتلسع فؤادي الغيرة والحسرة ، وكنت أحسب أن لغتنا تعجز عن المجاراة ، وتقف عن المباراة ، ولا تصل لما فى الفرنسية وشعرها القصصى من روعة وحلاوة وطلاوة وعذوبة ومرونة حتى قرأت « مجنون ليلى » فغيرت اعتقادى وامتلأت نفسى غبطة .

وقد حدّثت حافظاً عن « مجنون ليلى » فحبّذ وأثنى ، وكنت فى العادة اذا ما أطلقت المديح فى شعر شوقى يثور محاولاً أن يثنينى عن الثناء بنقده المر وقدرته على تخريج اللفظ وتشويه المعنى ، أما رواية « مجنون ليلى » فقد سلم معى أنها معجزة المعجزات وآية الآيات .

فليسمح لى الدكتور طه المعجب بالفيلسوف ديكارت القائل بنظرية الشك حتى يصل الى الحقيقة ، ان أشك فى اسناده هذا الرأى لاستاذنا الكبير لطفى السيد بك .

لقد كنا نعجب بشعر حافظ منذ كنا أطفالا ثم يافعين ، ونرى فيه زعيماً من كبار الزعماء الوطنيين المخلصين ، نتغنى بشعره ونفضله على سائر الشعراء لأنه كان يضرب على الوتر الحساس ، ويهيب بالشباب ويلهب العواطف ويحفز الهمم ، ويكافح اليأس والتواكل ويدعو للجهاد والامل .

وكان شوقى فى منصبه الرسمى لا يستطيع أن يخوض غمار السياسة بحرية وصراحة فانفرد حافظ يستولى على القلوب وأحرز مكانة لا تدانيها مكانة .

فأىُّ أديب لم يتغنَّ بقصيده فى جميع ضروب الشعر ، وأى أديب لم يهرع إلى سماعه يتدفق فى الحفل بصوته الجهورى الممتع والقائه البديع الخلاب الذى كان يدوى بين الجماهير فيضم سحراً وفخامة جديدين الى ديباجته الساحرة الفخمة ؟

وان عهدنا بحافظ لقريب وشعره مازال عالقاً بالاذهان ، فلست أحب أن أعيد عليكم قصائده الخالدة فى البارودى ، وعثمان أباظة ، والاستاذ الامام ، وقاسم أمين ، وصبرى ، وعلى يوسف ، والمويلحى ، والاخيرة خمرية بذّ فيها أبا نواس ولم يبلغ شأوه فيها أحد :

أوشك الديكُ أن يصيح ونفسى بين همٍّ وبين ظنٍّ وحدس
يا غلام المدامُ والكاسُ والطا سُ وهيّيء لنا مكاناً كأمس

واطلق الشمسَ من غياهب هذا الدنّ واملأ من ذلك النور كأسى
وأْذنَ الصبح أن يلوح لعينى من سناها فذاك وقت التحسّى
وادعُ ندمان خلوتى وائتناسى وتعجّلْ واسبلْ ستورَ الدمقسِ
واسقنا يا غلامُ حتى ترانا لا نطيق الكلام الا بهمسِ
خمرة قيل إنهم عصروها من خدود الملاح فى يوم عرسِ
مذ رآها فتى العزيز مناماً وهو فى السجن بين همٍّ ويأسِ
أعقبته الخلاصَ من بعد ضيقٍ وحبَتْه السعودَ من بعد نحسِ

« • »

وقد نزع فى الجزء الثانى والثالث من ديوانه إلى الاجتماعيات فاهتز لشعره العالم العربى كله وتبوأ المكان اللائق به تحت الشمس وأخذ بعض الناس يفاضلون بينه وبين شوقى ، وتلك مرتبة لم ينلها قبله أحد .

هل قرأت « غادة اليابان » ؟

لا تلم كفى إذا السيفُ نبا صحَّ منى العزم والدهر أبى
ربَّ ساع مبصر فى سعيه أخطأ التوفيق فيما طلبا

« • »

وفى « الامبراطورة أوجينى » :

أين يوم القتال يا ربة التاج ويا شمس ذلك المهرجانِ ؟
أين مجرى القتال أين مميت المال أين العزيز ذو السلطان ؟

« • »

وفى « الزوجية » :

حطمتُ اليراع فلا تعجبى وعفتُ البيانَ فلا تعتبى
فما أنتِ يا مصرُ دارَ الاديب ولا انتِ بالبلدِ الطيب

« • »

وفى « فيكتور هيجو » :

أعجميٌّ كاد يعلو نجمه فى سماء الشعر نجمَ العربى

صافح العليــاء فيهــا والتقى بالمعرى فوق هام الشهبِ

« ٠ »

وفى « دنشواى » :

أيهــا القــائمون بالامر فينــا هــل نسيتم ولاءنا والودادَا

خفضوا جيشكم وناموا هنيئاً وابتغوا صيدكم وجوبوا البلادَا

وإذا اعوزتــكمُ ذاتُ طوق بين تلك الرُّبَى فصيدوا العبادَا

« ٠ »

أما قصائده فى تأبين الشيخ محمد عبده ومصطفى كامل وسامى البارودى وفى عزل السلطان عبدالحميد فقد جاوزت حــدَّ الابداع وجرت مجرى المثــل . فعظم خطره ، وتألق نجمه ، ووجم خصمه وأصبح شاعر النيل غير مدافَــع .

وكان اذا خلونا به يحمــل على شوقى وشعره ، ولــكنه لا يتنازل لنقــد غيره . ولا يسلم له بالامامة ولا يعترف له بالزعامة . وكان يحِب كبير الشعراء خليل مطران ويخلص له وطالما سمعته يطنب فى مدحه ، ويذكر الاساتذة محرماً والــكاشف ونسيماً بالخير ، ولا يذكر بالخــير الــكاتبين المــازنى والعقاد وله فيهما وفى الدكتور طه حسين رأىٌ معروفٌ .

وكان فيما ينشره عفَّ اللسان جمَّ الأدب ، ولــكنه كان هجّــاءً شديدَ القسوة على خصومه فيما لا يعدّه للنشر . هجا المرحوم سعد زغلول باشا متهماً إياه بالأنانية ومغرياً به سمو الخديوى السابق فقال :

أنا ! أنا ! منــه كلَّ يومٍ لهــا صــدًى بيننا يرنّ

أدرك أنا وهى فى صباها ان لم تقل نحن ... قال نحن !

وغضب على المرحوم السيد توفيق فقال :

وليلةٍ بتُّ بهــا ساهراً أجر ذيل الفحش والفجر

حتى ظننتُ وليلتى عجبٌ أنى ببيت السيد الــ . . . .

وحمل على شاعرين كبيرين فقال :

لى عدوّان لن يناما عنى ولو نامتْ الخطوبُ

مخنثٌ كلــه ثقوبٌ ومــدمنٌ كله عيوبُ!

وقال يسبُّ كاتباً من أكبر كتاب مصر:

أخسُّ من دبَّ على ظهرها ودبت الناسُ على ظهرهِ!

وقال يهجونى فى عقر بيتى ويمدح خادمى أحمد:

اذا جئتهم طالبا لقمةً رأيتَ مظاهرةً قادمهْ!

ألا بارك الله فى أحمدٍ ولعنة الله على الخادمهْ!

ثم سأل ما اسم هذه الفتاة؟ قالوا فاطمه، قال حسن! فليكن البيت هكذا:

ألا بارك الله فى أحمدٍ ولعنة الله على فاطمهْ!

وهكذا كنا نتمتع بحديثه الشهى ونقضى معه أياماً لن تعود غفرله الله، وطيب ثراه، وجعل الجنة مثواه؟

ابراهيم دسوقى أباظه



حافظ الرجل وحافظ الشاعر

قال كارليل الفيلسوف الانجليزى العظيم فى كتابه (الأبطال وعبادة الأبطال): الرجل العظيم لايزال المنقذ الوحيد لعصره من مهاوى الفناء والعدم، وهو الشعلة الأولى التى تمتد إلى سائر المواد فتشعلها.

والاخلاص العميق البالغ البعيد المدى الكريم فى أصله هو أول خواص الرجل العظيم سواء أكان إلـهاً أم نبياً أم شاعرا أم كاتبا أم ملكاً، ونحن نسمى هذا الرجل رسولا. فهو رسول أرسل الينا من العالم المجهول الغير المحدود برسالته. فلنا أن نسميه شاعراً أو نبياً أو الهاً إذ ليس هناك فرق كبير بين النبي والشاعر، فهما فى الاصل واحد. فكلمة Vates فى اللاتينية معناها «نبى» ومعناها «شاعر». وكل مافى الامر ان النبي قد تناول ذلك السرّ الالـهى من الجانب الأخلاق كالخير والشر والمحظور والمباح، والشاعر قد تناوله من جانب الجمال. فالأول يوصى الينا بما يجب عمله، والثانى يكشف لنا عن مواضع حبنا وسرورنا، ولكنهما فى حقيقتهما كجزءين متداخلين لايمكن فصل أحدهما عن الآخر.

هذا مجمل ما قاله هذا الفيلسوف عن العظيم والشاعر ، وهذا ما أراه جديراً بان أصف به حافظ ابراهيم الرجل العظيم والشاعر الفذ كما وصفتُ به من قبل لورد بيرون الشاعر الانجليزى العظيم .

أما حافظ الرجل وحافظ الشاعر فقد يتعذر علينا ان نفصل أحدهما عن الآخر، وهذا شأن كل رجل عظيم فقد تضفى شخصيته العظيمة بألوانها الزاهية على كل شيء حوله وتصبغ شعره بصبغتها الخاصة وتطبعه بطابعها المعين . فلا نستطيع رؤية احدهما جيداً عن الآخر ، بل لا يمكننا فهم احدهما إلا إذا فهمنا الآخر . ولكنى ارى ان شخصية حافظ الرجل هى شخصية حافظ الشاعر ، ولا ألقى هذا الكلام على عواهنه ، ولكنى أقوله وأنا واثق منه كل الثقة ، متثبت منه تمام التثبت ، معتمداً على ما أعرفه عن الرجل نفسه وما انطوت عليه نفسه العالية من نبل وسمو وفضائل .

فحافظ أكثر شعرائنا الحديثين اتصالا بنهضتنا : فقد عمل على اذكائها بقلبه وبيانه وبروحه وماله ، لم يتطرق اليه اليأس ولم يشك أو يتململ شأن الرجل الضعيف، بل ثبت فى ميدان الجهاد ثبوت الأبطال البواسل يذود عن وطنه الذى أحبه وتفانى فى حبه ، والذى من أجله عاش وفى سبيله مات بعد أن بعث فينا روح الأمل وضرب لنا مثلاً صالحاً للجهاد الوطنى .

لم يكن حافظ مريض الاعصاب أو ضعيف الارادة فيثور ويهيج ، بل كان قوى العود صلب القناة عظيم الصبر كثير الاناة فاستقل حمله الفادح فى ثبات وصمت وواصل جهاده المضنى الطويل بين عواصف عاتية لم تقو على زحزحته أو الرجوع به الى الوراء ، ووسط بحار هائجة لم تهبيها أو يفرق منها بل اندفع فيها وسار حتى أدى رسالته كاملة وبلغها إلى بنى وطنه وفصلها لهم تفصيلا !

لم يعرف حافظ الاثرة egoism قط— والاثرة شر عيوب الرجل — بل كان فى كل حياته حلوها ومرها كريم الخلق رضى النفس حلو الحديث يستهوى السامع ويأسره ويسر الناظر فلا يود أن يتركه ، ولكنه كان بجانب ذلك عظيماً مهيباً محبوباً : فهو عظيم فى بساطته كما أنه بسيط فى عظمته ، وربما كانت هذه ميزة تفرّد بها حافظ بين شعرائنا المصريين ، فنجد فى جانبه أنساً وفى الاستماع إليه متعة ولذة .

أما عيو به فلا إخال أحداً يعرف عيبا لحافظ إلا اسرافه الكثير — إن كان هذا الاسراف عيباً — ومهما كانت عيوبه فان حياته وما أتى عليها من صروف وما تلونت به من ألوان البؤس والفاقة ، ونفسه وما انطوت عليه من نبل وطهارة ، وطبيعته وما امتزجت به من عناصر الطيبة والوداعة ، زعيمة بمحوها وكفيلة باظهار حافظ فى أحسن صورة وفى أبهى منظر .

لقد كانت فى حافظ قوة غريبة تدفعه إلى حب الآخرين وتستهوى الآخرين الى حبه حتى يمكننا — بدون اعتساف فى القول — أن نعد حافظاً أحب الشعراء الينا ، لأننا اذا أحببنا حافظاً فاننا نقوّى حبنا للطيبة والوداعة ونزيد ثقتنا فى صفاء الطبيعة الانسانية وطهرها ، زد على ذلك أننا بحبنا حافظ نحب شعره معه ، وشعره جزء من نفسه أو هو نفسه .

شعره

وما شعر حافظ الا روحه تقمصت روح النهضة وبرزت للعيون فى أبدع قوالب الشعر وأعجب صوره ، فلم يصدر شعره عن ملكة خاصة فيه بل كان نتيجة حتمية عامة لذهن طبيعى جبار ، ومزاج قوى حاد . أفصح عن نفسه بهذه الطريقة الشعرية الرائعة ، لذلك جاء شعره صادقاً كلّ الصدق معبراً أفصح التعبير عن ذلك المزاج الحساس وتلك النفس المتألمة لوطنها الذليل ، فلم يكن أوهاماً ولا تخيلات بل كان شيئاً شعر به صاحبه وجاش فى خاطره فألهب وجد انه فأفرغه فى ذلك القالب الشعرى الخلاب.

فالصدق والاخلاص وحب الحق هى الصفات التى تميز حافظاً عن معظم الشعراء المعاصرين وهى التى صبغت شعره بصبغة ثابتة لن تزول ، وطبعته بطابع الخلود . فوفاته إذن مأساة الاخلاص .

ويظهر لى من أشعاره ان الرجل كان له عقل قوى ، وأعصاب سليمة ، وله قلب انسان يخفق بين جوانب صدره ، وانك لتسمع خفقاته فى كل اشعاره ، وانه لم يكن مريض الشعور أو ضعيف الحس ، بل كانت له عين ترى ، وقلب يشعر ، ولسان يفصح .

انظر إليه يذكر بلاده وينعى على مواطنيه التفكك وضعف الاخلاق والاسراف فى اللهو واللعب في قصيدته « غادة اليابان » :

أنا لولا أن لى من أمتى خاذلاً ما بتُّ أشكو النُّوَبا
أمةٌ قد فتَّ فى ساعدها بُغضُها الأهلَ وحبُّ الغربا
تعشق الألقابَ فى غير العلا وتفدِّى بالنفوس الرتبا
وهى والأحداث تستهدفها تعشق اللهو وتهوى الطربا
لا تبالى لعب القومُ بها أم بها صرفُ الليالى لعبا !

* * *

وانك لتجد معظم شعره قد وقفه على الافصاح عن أمانى بلاده ، وإنك لتحسّ وأنت تقرأ هذا الشعر بأنات الشاعر المتواصلة وزفراته المتصاعدة حزناً على وطنه المعذب . فشعره قد صيغ من هذه الآلام ، وزفراته قد امتزجت بأنين الشعب كثيراً . وقضى ربك ان يجعل العهد الذى عاش فيه حافظ عهد آلام وجهاد ونصب وجلاد وحرب سجال بين العدو المغتصب والشعب الوادع المطمئن . إنك تحس وأنت تقرأ شعره عن حادثة دنشواى المشئومة بأنفاس الشاعر الملتهبة وهى تتحرق وجداً على قتل الابرياء ودموعه تهمى على خديه بكاء على بنى وطنه المعذبين وهو يتساءل فى حسرة وأسى عن سبب ذلك التعذيب الشنيع الذى يصوّره فى صورة تستفز الشعور وتثير جوامد النفوس وتستدر العبرات من هول المصاب وفداحة الخطب إذ يقول :

أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو أقصاصاً أردتمُ أم كياداً !
احسنوا القتل إن ضننتم بعفوٍ أنفوساً أصبتمو ام جماداً !
ليت شعرى أتلك محكمة التف تيش عادت أم عهد نيرون عاداً ؟!

ويقول أيضاً فى موضع آخر مخاطباً العميد البريطانى :

جُلدوا ولو منَّيتهم لتعلقوا بحبال من شُنقوا ولم يتهيبوا !
شُنقوا ولو مُنحوا الخيار لأهّلوا بلظى سياط الجالدين ورحّبوا
يتحاسدون على الممات وكأسه بين الشفاه وطعمه لا يعذبُ !

ثم تراه وهو يبثّ روح الثورة فى نفوس الشبان ويحفزهم إلى المطالبة بحقوقهم

ويذكرهم بمجدهم التالد وتاريخهم المجيد حين يقول :

عارٌ على ابن النيل سبّاق الورى ... مهما تقلب دهرُه أن يُسبقَا
فتدفقوا حُججاً وصونوا نيلكم ... فلكم أفاض عليكم وتدفَّقَا
ومن البلية أن تباع وتشترى ... مصرٌ وما فيها وأن لا تنطقا !

وكذلك يقول :

رجالَ الغد المأمول ان بلادكم ... تناشدكم بالله أن تتذكَّروا
فكونوا رجالاً عاملين أعزةً ... وصونوا حمى أوطانكم تتحرَّرُوا

* * *

واذا كانت حياة حافظ قطعة من قلب الطبيعة الخالدة فان شعره قيثارة تلك الطبيعة الحزينة الباكية تشدو بآلام وطنه وأشجانه وتتغنى بمجد مصروعزها الغابر فتبعث فى النفوس همةً وتوقظ فيها حلوَ الأماني.

وقد وهبه الله قوة وبراعة فائقتين فى تصوير الاشياء تصويراً رائعاً ، فلم يكن ينظر اليها من هذا الجانب أو من ذاك ، بل كان ينفذ الى لبها وصميمها وينظر اليها بعين نافذة شاملة فسرعان ما تذوب تلك الأشياء وتتحلل أمامه وتتكشف له دفائن أسرارها ، فيعمل فيها ريشته العجيبة ويصورها أبدع تصوير ... فما أبدع تلك الأبيات التى قالها فى وصف زلزال صقلية ، فقد تعد هذه القصيدة من غرر الشعر سواء العربى أم الغربى ، فقد كان حافظ فى هذه القصيدة صادقاً كل الصدق ، دقيقاً فى تصويره كل الدقة ، شاملا في وصفه كل الشمول ، أضف إلى ذلك جمال الالفاظ وجزالتها ، وإحكام سبك المعانى الذى لا يتسنى لكثير من الشعراء ، إذ يقول :

أين رجيو وأين ما كان فيها ... من مغانٍ مأهولةٍ وغوانى؟
عوجلت مثل أختها ودهاها ... ما دهاها من ذلك الثوران
رب طفل قد ساخ فى باطن الأر ... ض ينادى : أمي ! أبى ! أدركانى !
وفتاة هيفاء تُشوَى على الجمـ ... ـر تعانى من حرِّه ما تعانى
وأب ذاهل الى النار يمشى ... مستميتاً تمتدّ منه اليدان
باحثاً عن بناته وبنيه ... مسرعَ الخطو مستطير الجنان

تأكل النار منه لا هو ناجٍ من لظاها ولا اللظى عنه وانى

غُصّت الأرض ، أُتخم البحر مما طوياه من هذه الابدان

وشكا الحوتُ للنسورُ شكاة رددتها النسورُ للحيتان

أسرفا فى اللحوم نقراً ونهشاً ثم باتا من كظة يشكوان

لا رعى الله ساكنَ القم الشمّ ولا حاطَ ساكنَ القيعان !

الرثاء

وإن كان الصدق لازماً للشاعر والشعر فى جميع فنونه فانه أشدّ لزوماً فى الرثاء بنوع خاص . وإذا عرفنا أن الصدق فى حافظ كان عنصراً من عناصر طبيعته فلا غرابة إن جاءت مراثيه كلها آيات رائعات ودرراً غوالى تسمو بصاحبها إلى مستوى شعراء المراثى العالميين . وان الذى يقرأ مرثيته المشهورة فى صديقه الامام الشيخ محمد عبده يتبين صدق ما أقول ويشعر بلوعة الصديق الذى فقد صديقه الوفىّ الأمين :

سلامٌ على الاسلام بعد محمد سلامٌ على أيامه النضرات

على الدين والدنيا، على العلم والحجى على البر والتقوى ، على الحسنات

لقد كنتُ أخشى عادىَ الموت قبله فأصبحتُ أخشى أن تطول حياتى

فوالهفى والقبرُ بينى وبينه على نظرة من تلكم النظرات !

كذلك شأنه فى رثائه لصديقه قاسم أمين ولمصطفى كامل ، فى هذه القصائد روعة وجلالة وتصوير قوى ساحر يأخذ بلب القارىء أو السامع ويستهوى حسه وخياله .

وصفوة القول ان شاعرية حافظ كانت مِزاجاً من الابتكار والتقليد : فقد قرأ حافظ أشعار ابن الرومى، وتأثر كثيراً بشعر بشار بن برد ومسلم بن الوليد ، وحفظ كثيراً من أشعار البحترى وأبى تمام والمتنبى والمعرى ، فجاءت دراسته هذه لاشعار العرب القدامى بثروة عظيمة له لا يشك فى قيمتها . أضف إلى ذلك دراسته للأدب الفرنسى وما فى الأدب الفرنسى من جمال وحسن ورواء ظهر أثره فى

شعره، لا فى روح التعبير وحده بل تعداه إلى المعانى .

* * *

مسكين حافظ ! ما أتعس أيامك التى قضيتها وما أشقاها ! إن كنتَ لاقيتَ منا جحوداً فى حياتك فلن تعدم منا وفاء بعد مماتك . ان اسمك سيظل مذكوراً بعد أن كتب فى ثبت الخالدين . فلتنم ولتقر عيناً بين صحبك الابرار ، فان معبد شهرتك الخالدة يطل اليوم على قبرك .

وما شهرتك إلا روحك التى ستعيش بعدك فى قلوبنا ؟

نظمى خليل

حافـــــــــظ

فنانٌ كما يجب

الجمال فى الحياة كثير : جمال الطبيعة ، وجمال اللذة ، وجمال الألم . والحياة فى غموضها وابهامها مظهر من مظاهر الجمال الرائع فى الوجود ، والانسان — مذ كان — مدفوعٌ إلى تصوير هذا الجمال بوحىٍ روحىٍّ من احساسه فى أسلوب يشفّ عن مبلغ هذا الاحساس ونوعه .

فكان الموسيقىُّ والشاعرُ المصوّرُ ومن الى هؤلاء الذين صفت عقولهم حتى صارت قلوباً .

وهؤلاء رسلُ الجمال فى الحياة ، وكما اختلفت رسالاتهم فى الفن قد تلونت أساليبهم بلون الشعور الذى حفزهم إلى الرمز والتعبير .

فنرى مصوراً مثلا قد ملكه جمالُ الطبيعة فقام يدعو لعبادة هذه الآلهة فى بلاغة من الصمت الناطق ، ثم نرى مصوراً آخر قد حيرته معانى الحياة ودفائن الوجود فسجد لجبروت هذا السر الرهيب ثم انبرى يصوِّر هذه المعانى ويكشف عن تلك الدفائن بريشة العاطفة ومشعل الخيال .

وهكذا كان الشاعر ، وهكذا يجب أن يكون : يجب أن يقف كل شاعر فى محراب من محاريب الحياة يسبّح لاله واحد من آلهة الجمال ، ويهتف بما يوحى اليه

من سماء هذا المعبود . يجب أن يبرز فى ناحية واحدة من نواحى الشعر تطغى على كل النواحى وتميزه عن غيره من الشعراء ، أى أن تكون له قيثارة واحدة يحملها دائماً ليعزف عليها كلما شاقه العزف حتى يصل بفنه إلى ما وراء الخلود .

... وهكذا كان حافظ .

عاد من السودان فى شوق ولهفة الى مصر فرأى راية التيمس ترفرف على النيل وتداعبها نسمات السيادة والسلطان أحياناً ، تزجيها عواصف الطمع والاستبداد ، ورأى تحت هذه الراية أمة مكبلة بالاغلال الثقيلة مستكينة لهذه القيود تغط فى نومها غطيط الهادىء فى سرد اليأس ووسائد القنوط . وكلما أحست وطأة السلاسل فتحت عينيها وعولت على النهوض فتخونها قدماها وتتعثر فى حبائلها ويحلق فوق جفنيها طائر النذير والوعيد من وراء البحار فيثقلهما ويملؤهما بالنوم مرة أخرى .

هـذا المنظر دفع بحافظ الى ربوة من الهم والـكآبة على ضفة النيل ، وهناك رمى فى تيار النهر بالدف الهزيل الذى كان يضرب عليه وانتزع من بقايا قلبه المحطم قيثارة الوطنية والاجتماع . وأخذ يغنى فوق تلك الربوة قصيد الألم ونشيد الأنين ، وجعل يرسل شعره ثائراً صريحاً فى ثورته ، ثائراً على الأخلاق المصرية والرجولة المصرية وفى ثورته نصـيحة واخلاص . وهل ترى أدعى إلى ثورة الشاعر الاجتماعى من أن يرى أبناء شعبه يهيمون بالالقاب والشهرة العمياء وموالاة المستعمر العابث وكل هذه المظاهر التى ما تزال بيننا براقة خادعة الى ما بعد حافظ . وهو هنا يرمى فى شعره الى الاغراض السامية ويصور المثل العليا ويكشف عنها فى شجاعة فنيـة وموسيقية بارعة ، ثائراً فى وجه المغتصب وهى ثورة الضعيف المبحوح وفى بحة صوته وضعفه نبرات المؤمن بحقه الصليب . أقرأ شعره الآن فأتخيله وكأنى أسمع منـه الأنين المر وأكاد أرى جراح قلبه والدم يسيل على جوانبها وهو واقف الى جانب مصر العاجزة النائمة ليوقظها بنحيبه ويمد بيدها الموثقة فى ضراعة الى المغتصب الجبار رجاء ان يرحم ذلها وضعفها ويفك أغلالها ثم يدعها تضمد جراحها بنفسها . وقـد يشير إلى القوة الـكامنة فى هذا الضعف ، والثورة الجارفة التى لا بد ان يخلقها القيد والاستعباد .

هذه الصور وغيرها تجدها حية فى قصائده الخالدة — دنشواى — مصر فوق الجميع — غادة اليابان — وأشباهها .

« ٠ »

هذه هى رسالة حافظ الشاعر التى دعا اليها ووقف فنه على خدمتها طول حياته ، ولعله كان لا يصلح الا رسول وطنية واجتماع . فلقد حاول أن يجعل فنه باقة من مختلف الازهار ، ولكن شاءت طبيعته غير ما أراد . ولعمرى ان الجمال الفرد الذى يشعّ من زهرة واحدة أبلغُ تأثيرا فى النفس من جمال حائر بين مجموعة زهرات .

فهو حينما نظم فى الغزل والمدح والخمر لم يكن فيه — على قلته — الا مقلداً دفعته رياح تقليدية من جنوب العصر . عرب (البؤساء) وكتب (ليالى سطيح) فخذله الفن فلم يوفق فى أسلوبه ، وإن كان قد وفق فى الغرض وأحسن القصد لأنه لم يكن الا شاعراً وشاعراً اجتماعياً فحسب . ولا ريب أنه فى كتابته هذا وتعريفه ذاك كان مدفوعاً بالنزعة الاجتماعية المتركزة فى طبيعته .

« ٠ »

يقى لنا أن نتساءل — ولابد أن نتساءل بعد الذى قررناه — كيف ارتفع حافظ بمراثيه الى درجة من الدقة والفخامة تكاد تعدل مراثى أفحل الشعراء الذين هتف بنبوغهم الزمن فى أبهى عصور الأدب العربى ؟

لا غرابة ولا عجب ، فهو إذ يرثى إنما ينظم أنات الشعب المفجوع فى عظيم قدم نفسه قرباناً لآلهة الجهاد والتضحية ، أو مصلح كان يوقد عقله لينير الطريق التى تظللها أشجار التقدم والنهوض . فليس غريباً اذن أن يألم حافظ وأن يرسل آهاته من أعماق قلبه الذى أذابه حب وطنه فتأتى هذه الآهات فناً شامخاً رفيعاً — رثى محمد عبده — سعد زغلول — قاسم أمين — وغيرهم من رجالات نهضتنا فكان يرثى محمد عبده لانه يبكى محمد عبده كما يبكيه الشعب ، وهكذا لم يضرب على نغمة فاترة واحدة ، وانما جاء شعره صدى لاحساسه المختلف ولاحساس الأمة نحو كل رجل وهذه هى القوة . وهذا هو الفن كما يجب وكما كان ما ؟

المهدى مصطفى

مختارات

من شـــعر حافظ

للمحو والوطن

ما لى أرى الأكمامَ لا تُفتَّحُ والروضَ لا يزكو ولا يَنفحُ
والطيرَ لا تلهو بتدويها فى مُلكِهَا الواسعِ أو تصدَحُ
والنيلَ لا تَرقُصُ أمواههُ فَرْحى ولا يجرى بها الأبطحُ
والشمسَ لا تُشرقُ وضّاءةً تجلو همومَ الصَّدرِ أو تَنزحُ
والبدرَ لا يَبدو على ثغرِهِ من بَسماتِ اليُمْنِ ما يَشرحُ
والنَّجمَ لا يَزْهَرُ فى أُفقهِ كأنّه فى غمرةٍ يَسبحُ
ألم يَجِئْها نبأٌ جاءنا بأن مِصراً حُرّةٌ تَمْرَحُ ؟
أصبحتُ لا أدرى على خبرةٍ أجدّت الأيامُ أم تمزحُ !
أموقفٌ للجدّ نجتازُهُ أم ذاك للأّهى بنا مَسرحُ ؟
ألمحُ لاستقلالنا لمعةً فى حالكِ الشكّ فأستروحُ
وتطمسُ الظلمةُ آثارَها فأنثنى أُنكر ما ألمحُ
قد حارتِ الأفهامُ فى أمرِهِمْ إنْ لَمَّحوا بالقصدِ أو صَرَّحوا !!

معبر الحب

هَوَيْنا فما هُنَّا كما هان غَيرُنَا ولكننا زِدنا مع الحبّ سُؤْدَدَا
وما حكمتْ أشواقُنا فى نفوسنا بأيسرَ مِن حُكمِ السماحةِ والنَّدَى
نفوسٌ لها بين الجنوبِ مَنازلٌ بَناها التُّقى واختارها الحبُّ مَعْبَدَا

سجن الفضيلة

نَعِمنَ بنفسى وأشقيننى ... فياليتهنّ ويا ليتنى
خلالٌ نزلنَ بمخصب النفوس ... فروّيتهنّ وأظمأننى
تعوّدنَ منّى إباءَ الكريم ... وصبرَ الحليم وتيهَ الغَنِى
وعوّدتُهنّ نزالَ الخطوبِ ... فما ينثنين وما أنثنى
إذا ما لهوتُ بليل الشباب ... أهبْنَ بعزمى فنبهننى
فما زلتُ أمرح فى قدّهنّ ... ويمرحنَ منىّ بروضٍ جنى
الى أن تولّى زمانُ الشبابِ ... وأوشك عودىَ أن ينحنى
فيا نَفسُ إنْ كنتِ لا توقنين ... بمعقودِ بأمرِكِ فاستيقنى
فهذى الفضيلةُ سجنُ النفوس ... وأنتِ الجديرةُ أن تُسجَنِى

الدنيا الضائعة

لم يَبْقَ شئٌ من الدنيا بأيدينا ... الا بقيةُ دَمْعٍ فى مآقينا
كنّا قلادةَ جيدِ الدّهرِ فانفرطتْ ... وفى يمينِ العُلَى كنّا رياحينا
كانت مَنازِلُنا فى العزّ شامخةً ... لاتُشرق الشمسُ الاّ فى مَغانينا
وكان أَقْصَى مُنَى نهر المجرةِ لو ... مِن مائهِ مُزِجَتْ أقداحُ ساقينا
والشُّهْبُ لو أنَّها كانت مسخَّرةً ... لرجم مَنْ كان يبدو مِنْ أعادينا
فلم نَزلْ وصُرُوفُ الدهرِ ترمقنا ... شزراً وتخدعنا الدنيا وتُلهينا
حتى غدونا ولاجاهٌ ولا نَشَبٌ ... ولا صديقٌ ولاخِلٌّ يُواسينا

الى الامبراطورة أوجينى

(عند قدومها الى مصر بعد زوال ملكها)

أين يومُ القنال ياربة التا ... جِ ويا شمسَ ذلك المهرجانِ
أين مُجرِى القنالِ ؟ أين مميتُ الـ ... ـمالِ ؟ أين العزيزُ ذو السلطانِ ؟

أين هارونُ مصر ؟ أين أبو الـ ... أشبالِ ربّ القصور ربّ القيانِ ؟

أين ليثُ الجزيرةِ ابنُ عليٍّ ... واهبُ الألفِ مكرمُ الضّيفانِ

أين ذا القصرُ بالجزيرة تجرى ... فيه أرزاقُنا وتحبو الأمانى ؟

فيهِ للنحسِ كوكبٌ مُشْرِعُ السَّيْـ ... ـرِ ، وللسعدِ كوكبٌ متوانى

قد جرى النيلُ تحتَه بخشوعٍ ... وانكسارٍ وهابه الفتيانِ (١)

كنتَ بالأمسِ جنّةَ الحورِ ياقصـ ... ـرُ فأصبحتَ جنةَ الحيوانِ

خطرَ الليثُ فى فنائكَ يا قصْـ ... ـرُ وقد كنتَ مَسْرَحاً للحسانِ

وعوَى الذئبُ فى نواحيك ياقصـ ... ـرُ وقد كنتَ معقلاً للسانِ

وحباكَ الزّوارُ بالمالِ يا قصـ ... ـرُ وقد كنتَ مصدرَ الاحسانِ

كنتَ تُعْطِى فمالكَ اليوم تُعْطَى ... أين بانيكَ ؟ أين ربُّ المكانِ ؟

إن أطافتْ بك الخطوبُ فهذى ... سنّةُ الكونِ من قديمِ الزمانِ

رُبَّ بانٍ نَأى وربَّ بناءٍ ... أسلمتْهُ النَّوَى إلى غيرِ بانى

تلكَ ـالُ الايوانِ يا ربّةَ التا ... جِ ، فما حالُ صاحبِ الايوانِ ؟

قد طواه الرَّدَى ولو كان حيّاً ... لمشَى فى ركابكِ الثقلانِ (٢)

وتولتْ حراسةَ الموكبِ الأسْـ ... ـنَى نجومُ السماء والنيرانِ

إنْ يكنْ غابَ عن جبينكِ تاجٌ ... كان بالغربِ أشرفَ التيجانِ

فلقد زانكِ المشيبُ بتاجٍ ... لا يدانيه فى الجلالِ مُدانى

ذاكَ من صنعةِ الأنامِ وهذا ... من صنيعِ المهيمنِ الديّانِ

كنتِ بالأمسِ ضيفةً عند مَلْكٍ ... فانزلى اليومَ ضيفةً فى خانِ

واعذرينا على القصورِ ، كلانا ... غيّرتْهُ طوارئُ الحدثانِ

---

(١) الليل والنهار (٢) الانس والجن

حادثة دنشواى

أيها القائمون بالأمرِ فينا هل نسيتم ولاءنا والودادا ؟
خفّضوا جيشَكم ، وناموا هنيئاً وابتغوا صيدَكم ، وجوبوا البلادا
وإذا أعوزتكمو ذاتُ طوقٍ بين تلكَ الرُّبَى ، فصِيدوا العبادا
إنما نحن والحمامُ سواءٌ لم تغادر أطواقُنا الأجيادا
لا تظنّوا بنا العقوقَ ولكنْ أرشدونا إذا ضللنا الرشادا
لا تَقيدوا [1] من أمةٍ بقتيلٍ صادت الشمسُ نفسَه حين صادا
جاء جُهّالُنا بأمرٍ وجئتمْ ضعفَ ضعفيهِ قسوةً واشتدادا
أحسنوا القتلَ إنْ ضننتم بعفوٍ أقصاصاً أردتمُ أم كيادا ؟
أحسنوا القتلَ إن ضننتم بعفوٍ أنفوساً أصبتمُ أم جمادا ؟
ليتَ شعرى أتلكَ محكمةُ التفتيشِ عادتْ أم عهدُ نيرون عادا ؟!

« ٠ »

أيها المدّعى العمومىّ مَهْلاً بعضَ هذا فقد بلغتَ المرادا
قد ضمنّا لكَ القضاءَ بمصرٍ وضمنّا لنجلكَ الإسعادا
فاذا ما جلستَ للحكمِ فاذكرْ عهدَ مصرٍ فقد شفيتَ الفؤادا

« ٠ »

لا جَرَى النيلُ فى نواحيكِ يا مصرُ ، ولا جادكِ الحيا حيث جادا
أنتِ أنبتِّ ذلكَ النبتَ يا مصرُ ، فأضحى عليكِ شوكاً قتادا
أنتِ أنبتِّ ناعقاً قام بالأمسِ فأدْمى القلوبَ والأكبادا
إيهِ يا مِدْرَهَ القضاء ويا مَنْ سادَ فى غفلةِ الزمانِ وشادا
أنت جلّادُنا فلا تنسَ أنّا قد لبسنا على يديك الحِدادا !

(١) لا تأخذوا بالثأر .

الظلم المهذب

لقد كان فينا الظلمُ فوضى فهُذِّبَتْ ... حواشيهِ حتى بات ظُلماً مُنظَّمَا

تمنُّ علينا اليومَ أن أخصبَ الثرى ... وأن أصبحَ المصرىُّ حُرّاً مُنعَّمَا

أَعِدْ عهدَ اسماعيل جَلداً وسخرةً ... فانى رأيتُ المَنَّ أنكى وآلمَا

حملتم على عِزِّ الجمادِ وذُلِّنا ... فأغليتمُ طِيناً وأرخصتمُ دَمَا

إذا أخصبتْ أرضٌ وأجدبَ أهلُها ... فلا أطلعتْ نبتاً ولا جادَها السَّمَا !

زلزال مسينا

نبّئانى إنْ كنتما تعلمانِ : ... ما دَهَى الكونَ أيها الفرقدانِ

غضبَ اللهُ أم تمردتْ الأر ... ضُ فأنحتْ على بنى الانسانِ ؟!

ليس هذا ، سبحان ربى ، ولاذا ... كَ ولكنْ طبيعةُ الأكوانِ

غليانٌ فى الأرضِ نَفَّسَ عنه ... ثورانٌ فى البحرِ والبركانِ

رَبِّ ! أين المَفَرُّ والبحرُ والبرُّ ... على الكيدِ للورَى عاملانِ ؟!

كنتُ أخشى البحارَ والموتُ فيها ... راصدٌ غفلةً من الربّانِ

سابحٌ تحتنا ، مُطِلٌّ علينا ... حائمٌ حولَنا ، مُناهٍ مُدَانِى

فاذا الأرضُ والبحارُ سواءٌ ... فى خلاقٍ : كلاهما غادرانِ

« ٠ »

ما (لمسّينَ) عُوجِلَتْ فى صباها ... ودَعاهَا من الرَّدَى داعيانِ

ومَحَتْ تلكُمُ المحاسنَ منها ... حينَ تمَّتْ آياتُها آيتانِ

خُسِفَتْ ، ثم أُغرِقَتْ ، ثم بادتْ ... قُضِىَ الأمرُ كُلُّه فى ثوانِ

وأتى أمرُها فأضحتْ كأنْ لم ... تَكُ بالأمسِ زينةَ البلدانِ

ليتها أُمْهِلَتْ فتقضى حُقوقاً ... من وداعِ اللّذاتِ والجيرانِ

لحــةٌ يُسْعَدُ الصديقانِ فيها باجتماعٍ ويَلتقى العاشـقانِ
بَغَتْ الأرضُ والجبالُ عليهـا وطَغى البحرُ أيَّما طغيانِ
تلكَ تَغْلى حقداً عليها فتَنْشَقُ انشقاقاً من كثرةِ الغليانِ
فتُجيبُ الجبـالُ رَجْماً وقَذْفاً بشواظٍ مِنْ مارجٍ ودخانِ
وتسوق البحارُ ردّاً عليهـا جيشَ موجٍ نائى الجناحين دانى
فهنا الموتُ أسودُ اللونِ جونٌ وهنــا الموتُ أحمرُ اللونِ قانى
جَنَّدَ المـاءَ والثرى لهلاكِ الـ خلقِ ثم استعان بالنيرانِ
ودعا السُّحبَ عاتياً فأمدَّتْـهُ بجيشٍ من الصواعقِ ثانِ
أين (رجيو) وأين ما كان فيها مِنْ مَغَـانٍ مأهولةٍ وغوانى ؟
عُوجِلَتْ مثلَ أختهـا ، ودهاها ما دهاها من ذلك الثورانِ
ربَّ طفلٍ قد ساخ فى باطن الأرْ ضِ ينادى : أمى ! أبى ! أدركانى !
وفتاة هيفاءَ تُشْوَى على الجَمْـرِ تُعانى مِنْ حَرِّهِ ما تُعـانى
وأبٍ ذاهلٍ إلى النارُ ، يَمْشِى مُستميتاً تمتدّ منه اليدانِ
باحثاً عن بناتهِ وبنيـهِ مُسرعَ الخطْوِ مُستطيرَ الجَنَـانِ
تأكلُ النارُ منهُ ، لا هو ناجٍ مِنْ لَظَاهَـا ولا اللّظى عنهُ وانى !

منزل الامام محمد عبده

فيا منزلاً فى عينِ شمسٍ أظلَّنى وأرغمَ حُسّادى وغمّ عُداتى
دعائمهُ التقوى ، وآساسُهُ الهُدَى وفيه الأيادى موضعُ اللّبناتِ
عليكَ سلامُ اللهِ مالكَ موحشاً عبوسَ المغانى مقفرَ العرصَاتِ ؟
لقد كنتَ مقصودَ الجوانبِ آهلاً تطوف بكَ الآمالُ مبتهلاتِ
مثابةَ أرزاقٍ ، ومَهبطَ حكمةٍ ومَطلَعَ أنوارٍ ، وكنزَ عِظَاتِ

النيل

النيلُ مرآةٌ تنفَّسَ في صحيفتها النسيمْ
سلبَ السماءَ نجومَها فهوتْ بلجّتهِ تعومْ
نَشرتْ عليه غلالةً بيضاءَ حاكتها الغيومْ
شفّتْ لأعيننا سوى ما شابَهُ منها الأديمْ
وكأننا فوقَ السماءِ وتحتَنا ذاكَ السديمْ
تجرى الحوادثُ حيث تجري لا نُضامُ ولا نضيمْ

عند قبر مصطفى كامل

طوفوا بأركان هذا القبرِ واستلموا واقضُوا هنالكَ ما تقضى به الذِّمَمُ
هنا جَنانٌ تعالى اللهُ بارؤهُ ضاقتْ بآمالهِ الأقدارُ والهِمَمُ
هنا فمٌ وبنانٌ لاحَ بينهما فى الشرقِ فجرٌ تُحَيّى ضوءَه الأمَمُ
هنا الشهيدُ، هنا ربُّ اللواء، هنا حامى الذِّمارِ، هنا الشهمُ الذى علموا

« . »

إنّى أرى وفؤادى ليس يكذبنى روحاً يحفّ بها الأكبارُ والعِظَمُ
أرى جلالاً، أرى نوراً، أرى ملَكاً أرَى مُحَيّاً يُحيّينا ويبتسمُ
اللهُ أكبرُ! هذا الوجهُ أعرفُهُ! هذا فتى النيلِ! هذا المفردُ العَلَمُ!
غُضُّوا العيونَ وحيّوه تحيتَه من القلوبِ إذا لم تُسعِدِ الكَلِمُ
وأقسموا أن تذودوا عن مَبادئهِ فنحن فى موقفٍ يحلو به القَسَمُ!

لوعة وأنين

أنا فى يأسٍ وهمٍّ وأسَى حاضرُ اللوعةِ موصولُ الأنينْ
مستهينٌ بالذى لاقيتهُ وهو لا يدرى بما ذا يَستهينْ
سُوَرٌ عندى له مكتوبةٌ وَدَّ لو يَسرى بها الرّوحُ الأمينْ
إننى لا آمَنُ الرُّسْلَ، ولا آمَنُ الكُتْبَ على ما يحتوينْ!

ناحية فى حافظ

نشكر للدكتور زكى أبى شادى خدماته الأدبية الكبيرة التى يقوم بها عامةً واصدار هذا العدد لذكرى حافظ خاصةً . واذا كان الحظ لم يسعدنى بأن أكتب عن شوقى فانى أجد الفرصة سانحة لأن أقول كلمة عن حافظ فى أهم ناحية من حياته وتقسيم حافظ من حيث هو فكرة التَمَحَتْ فى الوجود وحيوية لها ما للكائن الحىّ من مزايا هى :

١ — شعره الذى يصوّر فيه نفسه ونفسية الشعب ويعبر فيه عن آماله وآمال وطنه وعن الأمة وكل ما يتحرك فيها أو ما يتطلبه لها .

٢ — نفسه الهائجة الثائرة العالية التى تبلغ عنان السماء فى الارستقراطية والتى تصدّها عظمة المال والجاه فتنزل بها الى الحضيض فتتطرف فى الديمقراطية الى درجة كبيرة ، ونفسه العابثة البائسة المتشككة .

٣ — حياته المتناقضة المملوءة أملاً وبؤساً وسعادةً وألماً وخوفاً وشجاعة وحباً وكراهية .

وأظهر شىء فى حافظ من حيث هو كتلة حيوية تنقسم هذه الأقسام : نفسه وحياته وشعره . ونفسه هى القوة الموجهة لحياته من حيث عبوسها أو بؤسها فتظلم الدنيا ، ومن حيث أملها وانشراحها فتظهر العالم أمامه كله سرور وانشراح وبهجة وأنس . وشعره هو المظهر أو العارضة التى ترينا نفسه وحياته وتفاعل العناصر من أثر النفس فى الحياة ومن أثر الشعر فى هيجان النفس أو هدوئها وظلمة الحياة أو بهجتها . ونفس حافظ ليست مثل نفسى ونفسك ، فلو كانت كذلك لعدّ حافظ واحداً مثلنا ، ولكن نفس حافظ كقلبه وقلبه هو قلب مصر وحياته هى حياة مصر ، فكل حادث يؤثر فى مصر نجد أثره فى نفس حافظ وقلبه وحياته وشعره أيضاً . والألم الذى يساور نفس حافظ والذى يؤثر فى نظره للدنيا ويتأثر بالتالى به شعره هو ألم مصر ، والبؤس الذى يساور نفسه هو مظهر نفسه ومظهر حياته ومظهر مصر أيضاً . وهذا التآلف بين حافظ وحياته وشعره ومصر فيه نصيب كبير من الحقيقة ، وهناك تآلف آخر بين الشاعر والفنان فى حافظ تصبغه صبغة البؤس التى تلازم حافظ فيكون حافظ الشاعر المتوقد الرقيق والفنان الثائر المتشكك الحرّ الذى لا يراعى القيود ولا يعبأ بها ، وهناك حافظ البائس الذي يدمث الثورة على التقاليد والتشكك والهياج .

وهناك المصادمات ذات الأثر العميق الذى يبلغ من نفس الانسان — نريد أن نعرض فى حافظ حتى نعرف كيفيـة تحول نفسيتـه وتكوينها على هذا الشكل الغريب. وأول تلك الصدمات التى صدمت حافظ هى موت والده وهو صغير مما جعل فى نفسه أبلغ الأثر لأنه صار يتيماً لا أب له فأورثه هذا حزناً كبيراً تغلغل فى قرارة نفسه وأثر فى حياته أثراً كبيراً ، وكانت هذه أول صدمة له فى حياته ومستقبل عزيمته.

أمّا الصدمة الثانية فهى تمكن النزعة الأدبية منه وهذه الروح الشعرية التى هفت به وتمكنت من صبغه بلونها والتى تبعث إلى نفس الشاعر عوامل الشاعرية من رقة الشعور واتصال هذا بالرثاء لآلام الناس ومواساتهم وتلازم هذا الشباب والنفس المتقدة المرحة الثائرة فى حافظ، وفى اجتماع هذين معاً مايجعله لا يرضى بالحياة العسكرية الخشنة من جانب لأنه شاب له أمل واسع ، وهو لا يرضى بالحياة العسكرية أيضاً من حيث أنها مذبحة ودمار ، وهذا مما لا تميل اليه نفس الشاعر ذات الحنان والرقة .

فهاتان الصدمتان : تنازع الروح الشابة والروح الشعرية مع العسكرية من حيث هى خشونة وقتال دموي والألم الدفين الذى صادمه فى أول ملامسته للحياة بموت أبيه — لهما أثرهما البالغ ، وأثر هاتين الصدمتين كبير فى نفس حافظ وبالتالى فى شعره : فهو الذى صبغ نفسه بصبغة التشكك والثورة والبؤس ، وكان شعره صورة لهذا التفاعل فى نفسه وحياته .

هذه الكلمة هى نظرة سريعة مختصرة فى ناحية من حافظ ابراهيم الشامخ الضخم الذى لا يمكن لقلمى الضعيف أن يوفيه حقه ، ولا أن ينصرف اليه بحكم شواغله وضيق وقته . وهناك نواحٍ أخرى فى حافظ عن شعره وأدبه وأثرهما فى الأدب المصرى الخاص والأدب العربى على وجه عام وأخلاقه ونفسه وأثر كل ذلك فى نظرته الفلسفية الى الحياة.

وأعيد فأكرر شكرى للدكتور أبى شادى لهذه العناية وهذا التكريم لذكرى حافظ ابراهيم شاعرنا القومي ؟

احمد أنور الجندى

مضى العام والذكرى ...

على الوتر الحنّان قد وُلِدَ الشعرُ رضيعَ لبانِ السحرِ ما نفث السحرُ
لفائفُه فى المهدِ ظلٌّ خميلةٍ على غصنها طيرٌ ومن تحتها نهرُ
اذا ما بكى أشجى الزمانَ بُكاؤه وأذرت له الدمعَ الملائكةُ الطُّهْرُ
يُنسِّق وجهَ الصبح والطلُّ ذائبٌ ويصبغُ لونَ الحقل والزرعُ مخضرُّ
ويُلقى شعاعَ الشمس فى ميعةِ الضحى على الكونِ حيث الكونُ مبتهجٌ نَضرُ
وتنفحُ عنه فى الأصيلِ نسائمٌ وفى الليل يزهو النجمُ أو يُشرق البدرُ
فامّا تسرْ يا صاحِ فى هَدأةِ الدُّجى لدى حَلَكٍ فيه غمامٌ ولا قَطْرُ
وإمّا تجدْ حُسنَ الحياةِ مُشوَّهاً شتيماً وقد عاف ابتسامته الثغرُ
وإمّا تجدْ ظهرَ الزمانِ محدَّباً أناختْ دوَاهٍ فوق كلكله صُفْرُ
فذلك فاخشعْ مأتمُ الشعرِ والحجى وكيف تناساهُ وفى قلبِكَ القبرُ ؟!

« • »

خميلةُ وادي النيلِ أزهرَ نبتُها فلما دهاها الصيفُ مات بها الزّهرُ
سقاها غديرٌ ثم جفَّ فغالها حَرُورٌ من الرمضاء مِحراقةٌ سُعْرُ
فلا دوحَ يأوى العاشقون لظلّه ولا طيرَ يشدو بالفِناء ولا قُمْرُ
تصوّحتْ الأزهار بعدَ تعطُّرٍ لجفّت وماتت بينما بَقِىَ العِطرُ
مَلابٌ زكيٌّ فى الانوفِ شميمُهُ كشعرِ أبيٍّ فى النفوسِ له سِحرُ

« • »

مضى العامُ والذكرى تطوفُ بأرؤُسٍ كما طافَ جُنحَ الليلِ أو وقعَ النَّسرُ
مُباعِدُ ما بين الجناحينِ أبرَدٌ يطيرُ إليها من قوادمِهِ الذُّعرُ
إذا جالَ عينا فى النجومِ تفكُّراً تَطايرَ من أحداقها النَّظرُ الشَّزْرُ
اذا فكر المرءُ القديمُ وفاؤُه بواجبهِ للصحبِ أعيا به الفِكْرُ
يظنُّ له عُذراً فيمضى يَبثّهُ ولولا جحودُ الناس لاعتذر العُذْرُ

وأجَلَّ قومٌ ذكرَهُ لمواعدٍ … فيومهمُ عامٌ وساعتُهم شهرُ
مضى حافظٌ مَن كان يحفظُ قومَه … فهل حفظته فى أضالعها مِصْرُ؟
فتًى كان يأبى أن يخونَ صديقه … فلما مضى خانته أصحابُه الكُثْرُ
إذا كان فى وجه الفتى دونَ ظهره … وفاءٌ أخيه فالوفاءُ هو الغَدْرُ
فمن يصطحبْ يحفظ ومن ينسَ يدَّكرْ … ومن يُوفِ لا يُذمم ولكن له الأجرُ
حفاظك للأصحاب نذرٌ نذرتَهُ … إلى الله فانظر كيف ينعقد النَّذْرُ
وللناسِ أخلاقٌ شُكولٌ كثيرةٌ … يدينُ بها عصرٌ ويمقتها عصرُ!

« • »

رَعَى الله شعراً قد غُذيتُ لبانَه … ولى سَنَواتٌ أهَّلَتْنى له عَشْرُ
فما كان سفري غير ديوانِ حافظٍ … وأنعمْ به سفراً إذا أعوزَ السَّفْرُ
مَزاميرُ داودٍ وعيسى بن مريمٍ … وخيرُ وصايا صاحب الطودِ والذِّكْرُ
شواردُ كالعِقيانِ من كلِّ جوهرٍ … وحبٌّ من الرُّمَّانِ ليس له قِشْرُ
وما النيلُ إلا ربوةُ الأرضِ أنبتتْ … ثماراً وإلا منجمٌ تُرْبُهُ تِبرُ
وحافظُ من قومٍ بواديهِ خُلَّصٍ … كبارٍ ولكنْ ما بأنفسهمْ كِبرُ
نضا السيف من نِقْسٍ يسيلُ ومن دمٍ … فما صدَّه طودٌ ولا عاقه بحرُ
فلم يكُ بؤساً حظُّه بل زعامةً … تصيخُ لها الأفلاكُ أو يُهزَمُ الدهرُ
ففى كل وادٍ فَجْعَةٌ فى صحابهِ … وفى كل نادٍ مأتمٌ قبله سَمْرُ
وفى كلِّ صَدْرٍ للوفىِّ قُلابَةٌ … وفى كلِّ قلبٍ من رماحتها صَدْرُ!

« • »

جُنودَ القوافى والخطوبُ كثيرةٌ … ألا يحتمى فيكم من العطبِ الشِّعرُ؟
لقد غالَ ريبُ الموتِ أرمى شيوخكم … وللشعرِ لا للحائكين له العُمْرُ
نغيبُ كما غابَ امرؤ القيس قبلنا … ونُبقى عُكاظاً والزمانُ له كَرُّ
وللشعرِ فى ليلِ المُحاقِ سماؤه … لكلِّ فتىً فيها كواكبُه الزُّهْرُ

فصوغوا القوافى للخلود وللصبا ... وللرأى والأخلاق ما طلعَ الفجرُ

ولا تركنوا للخلف فالخلفُ فاضحٌ ... لما كان يخفيه التسامُحُ والسِّترُ

اذا كان هذا الشعرُ قائدَ نهضةٍ ... فبالخُلقِ المحمودِ يحلو له الفخرُ

عامر محمد بحيرى



محمد حافظ ابراهيم

فى كفتى البؤس والمجانة

يتوهم البعض أننا اذا قلنا إن حافظاً كان أخا بؤس — لازمه صغيراً ، وصاحبه كبيراً — أنه كان مملقاً ، وأن فقره علة العلل فى ابتئاسه . وقد يكون الأول صحيحاً ولكن الى حدٍ ، أما الثانى فهو موضع بحث ونظر ثم خلف وجدل ، فليس كل بؤس مسبباً عن الفقر ، وحافظ بائس ، فليس بحتم نشوء بؤسه عن فقره . وقد يكون هناك المنطق صحيحاً ، فنحن نرى بين ظهرانينا الكثير من المعدمين يروحون ويغدون ونضرة الطمأنينة تعلو وجوههم ، وطائر السعادة يرفرف فوقهم ، كما أننا نرى الكثيرين ممن جادهم المال بوفرته لا يكادون يستشعرون أن هناك سعادة ، بل لا يصدقون أن هناك سعادة فهى اسم لا مسمى له وإن هى الا وهم وخيال . . .

وقد نسمع أن كثيراً من رجالات الفكر وحملة الأقلام كانوا فقراء معدمين بائسين وأن الجهلة الأغبياء كانوا فى يسر ورخاء وطالما أنشدونا :

رِزقُ التيوسِ يجيئها بسهولةٍ ... وأولو الفصاحة رزقُهم مسجونُ .

إنْ كان حرمانى لأجل فصاحتى ... فامننْ علىّ من التيوسِ أكونُ !

والمنطق فى ظاهره يحيل هذا الذى يبدو غريباً فى مظهره ، فليس بمسلم أن يعجز المفكرون — وهم المفكرون — عن أمر تناله الأغبياء المفاليك — وهم هم !

وربما تزول الغرابة اذا نحن فهمنا أَن الفكر دائبُ الطموح لا يرضى لنفسه ما هو فيه وإن كان فى العَيُّوق فهو متطلع الى العلوّ أبداً ناظر الى السماء دائماً ، يرى أنه

مغبون وليس بمغبون ، تعس وليس بتعس ، فقير وليس بفقير ، ومن هـذا الباب وحده تهاجمه كتائب البؤس وترشقه بسهامها وترميه بنبالها ، وهكذا :

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله وأَخو الجهالة فى الشقاوة ينعمُ

هذا هو المعقول ، أما أَن نقول — اطلاقاً — إن رجال الفكر وحملة الأقلام مقدمون بائسون فتلك دعوى عريضة نسمعها كل آن وسيعلم الباحثون مكانها من الحق والتاريخ .

على ضوء هذا الفكر نستطيع أن نقول — مع القائلين — إن حافظاً كان فقيراً بائساً . ولمَ لا يكون بائساً ؟ بل ولمَ لا يكون شيخ البائسين ؟ !

ألم يسعَ حتى كاد ينتعل الدمَ ثم لم يحظ من الحياة بما يريد ؟ ثم ألم يلبس الدجى والليل هادىء « والنجم يحسبه ثامناً للسبعة الشهب » ولكنه مع هـذا ، ومع كل هذا غير مجدود ، ومافتئت يد المقادير تقصيه عن الأرب ؟

واستلان الحياة فجمدت ، واستعطفها فغلظت ، ولاطفها فلم تزدد الاشحاً وبخلا ، وطرق على السعادة كلَّ باب فلم تزدد الا اباءً وشروداً . ولما أعيته الحيلة مع الحياة ، وفاضتْ الكأس ، وطفح الكيل ، جاهرها هو الآخر بعدائه ، وأعلن عليها حرباً كلامية شعواء وشنها غارة حامية الوطيس ، فرماها بما رمى ، فهى العاهر البغى اللعوب القلب ، ما سرّت يوماً إلا أبكت فى غده ، وأنها قد أضرت به فهام باختها هرباً منها وفراراً ، واستحسن مذهب مانى صاحب نظرية تعجيل الفناء بقطع النسل فقال :

لعل « مانى » لاقى ما أكابده فودَّ تعجيلنا من عالم الشَّجَبِ !

وحلق فى الجو الذي حلق فيه أبو العلاء فانطلق يقول :

عليكِ جنيتُ يا نفسى وقبلى عليكِ جنى أبى فدعى عتابى !

وعتب على نُوح حمل الناس معه وقد كان فى مكنته أن يتركهم يغرقون فيستريحون ويريحون ، وهو لهذا لم يُخلص للناس النية ولم يمنحهم الودّ الصحيح :

ويا نُوحاً جنيتَ على البرايا ولم تمنحهمُ الودَّ الصحيحا

علامَ حملتَهم فى الفُلكِ ؟ هلا تركتهمو فكنتَ لهم مُريحا ؟

ولا أريد فى هذا المقام أكثر من أن يضع القارىء صورة حافظ العابسة التى ترتسم فى ذهنه بعد قراءته هـذا الـكلام بجانب صورته الأخرى : صورة حافظ الطروب الضاحك المداعب !

حافظ الذى ذكرنا له من البؤس والتبرم بالحياة والضجر منها والثورة عليها ما ذكرنا هو حافظ الذى يملأ كل جوّ يحيط به مجانة ودعابة وفكاهة ، هو حافظ الذى يتنادر الادباء بحديثه ، ويتنادرون بنكاته حتى قال العقاد على قبره :

أبكاءٌ وحافظ فى مكانٍ ؟! تلك احدى عجائب الحدثانِ !

صورتان للرجل : أولاهما عابسة يائسة بائسة ، والثانية ضاحكة صاخبة ماجنة ! صورتان متباينتان على لوحة واحدة هى الحياة !

كيف هذا ؟

وهل هـذا معقول ؟ الأمر لا يحتمل جدلاً ، فانه واقع والواقع لا يرتفع . إذاً فكيف نفسر هذا ؟ كيف نفسر البؤس يعتنق المجانة ؟ !

لعل مجانته كانت ضرباً من التهكّم بالحياة والسخرية وعدم الحفل بها ، فهو يتهكم بالحياة ويسخر بالدنيا ، ويصوغ ذلك فى قالب من الفكاهة تحمل على أجنحة الضحكات أقسى معانى الألم ، وأبلغ معانى البؤس ، فهو إذ يرسل لك نكاته يصوّر لك حالة نفسية فى صورة بهجة تتقطع لها نياط قلبه فى الوقت الذى تمتلىء الاشداق ضحكاً لها ، وسروراً بها .

وهذا معقول ومقبول أيضاً ، لولا أن حافظاً الذى أعرفه لم يكن من فلسفة الالم الى هذا الحد بل ولا الى غير هذا الحد .

إذاً فكيف نفسر المجانة تؤالف البؤس ؟

ألا يصح أن يكون ألم الرجل البالغ نقله طفرةً من طور البؤس الى طور المجانة ؟! النظرية فى ذاتها من حيث هى نظرية سليمة ، فان الشىء اذا زاد عن حدّه انقلب الى ضدّه ، وأنت تشاهد كثيراً من الذين يصابون بفادح الخطوب ينقلبون مهمومين هاذين ضاحكين بل وربما معربدين راقصين !

إذا صحّ هذا فهل لا يصح أن يكون حال حافظ من هذا النوع ؟!

معقولٌ أن يكون ، ومقبول أيضاً ، لولا أن ابتئاس حافظ لم يكن من هـذا فى شىء ولم يكن حافظ فى ذاته من هذا فى شىء .

إذاً فكيف نستطيع أن نفهم أنه كان بائساً ماجناً ؟ !

ألا يكون الرجل لما نزلت به الهموم — وهى أثقل الضيوف ـ وضاق بها ذرعاً ، لم يجد طريقاً يرفه عن نفسه بها الا طريق المجانة فارتمى بين أحضانها يشرب من وردها سائغاً يغسل الهموم ، وينفس عن القلوب ، ويروّح عن النفوس .

وهذا هو الآخر معقول ، وربما كان مقبولا ، لولا أننا نتساءل لماذا لا ينفس عن نفسه الا حينما تزوره المادة أو تواتيه ظروف المجانة ، ولو كان هذا صحيحاً لتطلبها الرجل كلما حزبه الهمّ وفدح ، ثم انه لو كان واقعاً لما كان مطبوعاً عليه بل لجاء متكلفاً ظاهر التكلف .

إذاً فلماذا نعلل هذا ؟

ألعله كان مطواعاً للظروف والأحوال : فهو بائس يوم تنزل به ظروف البؤس ماجنٌ ساعة تواتيه ظروف المجانة ، فلهذا ظروفه وملابساته ولتلك ظروفها وملابساتها. وقد كان يتفق لحافظ أن يقع فى يده قسط من المال غير قليل ، فلا يكاد يستقر فى حافظته حتى يتطاير الخبر الى وليجته والى وليجة وليجته ، فيجتمعون على ما يجتمعون ، ويقضى شاعرنا سويعات أنسه ، وأويقات سروره ، حتى اذ ما نضب المال وهو لا بدّ ناضب رجع الهزار الى وكره حزيناً بائساً مهيضاً . إذاً لحافظ بائس يوم بؤسه ، ماجن يوم أنسه .

وهذا معقول ومقبول أيضاً ، لولا ... لولا ...

لولا ماذا ... ؟ !

لا شىء ! لاشىء فان هذا هو الواقع ، وبه نستطيع أن نجمع بين صورتيه المتناقضتين فيما يبدو للناظر، وهى ناحية أهملها اخواننا الكتاب لانكبابهم على شعره وتركه هو فيما دون ذلك !

وبعد فقد كان يجدر بنا أن ندرس أمثال تلك المناحى فى حياة الراحل العظيم، وهى كثيرة لم يكتب عنها الكتّاب الا عرضاً وتلميحاً .

أيها السادة الادباء ! لن نستطيع أن نفهم الشاعر من شعره حتى نفهمه هو حق الفهم ، وكم كنت مستغرباً للدكتور طه حسين أخذه على العقاد أن يكتب عن ابن الرومى فى غير شعره الى هذا الحد !

أحسب أنه اراد أن يأخذ عليه إهماله شعره ؛ وهل كان الشعر الا صدًى لامثال تلك العوامل ؟ والباحث العميق من نفذ من القشور الى المصاص ، ومن الألياف الى اللباب ؟

طاهر محمد أبو فاشا



بداهة حافظ

كان حافظ ، رحمه الله ، حاضر النكتة ، حلو الحديث ، طلق اللسان ، سريع البديهة ، وهاك مثلاً على ذلك : —

زار حافظ — أيام بؤسه — مدينة السنبلاوين ، فأضافه كبير من عائلة (سليط) وهو صادق افندى سليط — فلما دخل حافظ المنزل مع مضيفه ، جلسا فى بهو من الأبهاء الفسيحة ، وكانت صورة صادق افندى الزيتية الكبيرة معلقة على جدار من جدران هذا البهو ، فطلب منه صادق افندى أن يصف هذه الصورة ووعده خمسة جنيهات على كل بيت يقوله ، واشترط عليه ان لا يستغرق فى نظم البيت الواحد أكثر من دقيقة واحدة ، ثم اختار له البحر والقافية ، وأمسك الساعة تواً — فاذا بحافظ يتحف الحاضرين بخمسة أبيات جميلة جداً لا أتذكر منها إلا هذين البيتين وهما :

سألنا عزيزَ المجدِ اهداءَ صُورةٍ ... تموجُ بها أوصافُه والخلائقُ
فقال لنا لما رأى رسمَ صادقٍ : ... خذوا صورة الأمجاد، فالمجد صادقُ

فنال بذلك الجائزة ، وكم كانت دهشة الجميع عظيمة عند ما قال لهم صادق انه استغرق فى نظمها أقل من الوقت الذى أجازه اياه بدقيقتين — وليس يخفى على أحد ما فى البيت الثانى من التورية الظريفة أيضاً . وهذا مثل واضح على حضور ذهنه ، وسرعة بديهته ، وذلاقة لسانه .

فلئن فقده الشعر والأدب فانّ فقده عظيم ورزءه جسيم ، ولئن بكاه الناطقون بالضاد فى أنحاء المعمورة فقد بكوا ملكاً متوجاً فى ميدان القول نثراً أونظماً ، رحمه الله رحمة واسعة ؟

محمد سعيد الصحراوى

حافظ الخالد

يا حسانَ القريض عهدُ الحدادِ	قد أتى فارتدِى ثيابَ السوادِ
شاعرُ النيل حافظٌ مات فاشدِى	بأغانى الأسى على الاعـوادِ
مات مَنْ شعرُهُ جديرٌ بتبرٍ	ذائبٍ أن يُخَطَّ لا بالمدادِ
فأقيمى عليه مأتمكِ الأكبرَ	وأتى اليـه من كل وادِ

« • »

ربة الشعرِ ما فقـدتِ كهذا	م الشاعرِ العبقرىّ من عهدِ عادِ
مات من كان فى رياضك لا ينـ	فكّ يمشى مع الصبا وهو شادِ
فبكاه الهزارُ اىّ بـكاءٍ	فى الرُّبَى فوق غصنه الميّادِ
وتمشّى الغديرُ وهو من الأحزان	م دوماً يـئنّ بين الوهادِ

« • »

ربةَ الشعر انّ حافظَ أودَى	فإليه نادِى بناتِكِ نادِى
واضربى حولَ نعشهِ فى رُبَى الـ	خلدِ نطاقاً من الحسانِ الخِرادِ
ولتضعه يدا نسيم الصـبا فى	كفنٍ من نديّة الأورادِ
وليَـنُحْ كلُّ رائحٍ فى السموات	م وفى الأرضِ ولينحْ كلُّ غادِ

« • »

أيها الشاعرُ العظيمُ أبنْ لى	حالةَ النابغين فى الألحادِ
أترى الموتَ غفلةً من بلايا الـ	عيشِ أم أنه نظـيرُ الرقادِ
أترى فى ضريحهِ جسدُ الشاعر	يَبلى كسائرِ الأجسادِ
أم حسانُ القريض تـكلؤهُ	دوماً وتحميه من بلًى وفسادِ
قفْ على منبرِ القبورِ وانشدْ	شعرَكَ الجزلَ أيّما إنشـادِ
أيها الشاعرُ اشرحْ الموت لى انى	م إلى الموتِ فى شبابىَ صادِ

شبَّهْ الموتَ لا كما شبهوه من قديمٍ بمنجلِ الحُصَّادِ
ذلك الموردُ الذى منه ماعا دلنا واردٌ من الوُرّادِ
ذلك المنجعُ الذى ليس يهوا ه امرؤ وهو ملتقى الروّادِ
صفْ لِىَ الروحَ كيف باللهِ بَعْدَ الـ موت تبقى على مدى الآبادِ
وصفْ القلب هل يصير خلالَ الـ تربِ خلواً من لوثة الاحقادِ
أترى يستريح من ألْسُنِ الوا شينَ فى القبرِ أو من الحسادِ
أترى فى التراب يرتاح من كيـ دِ الأعادى وطارئات العوادِى
إن نكن للنفاد طرّاً ففسِّرْ لِىَ معنى الحياة والايجادِ
أو تكُ الروحُ للفناء فخيرٌ من هموم الحياة عيشُ الجمادِ
أو يكُ الجسمُ للنشور فأنّى يتلاشى ويغتدى كالرمادِ

« • »

هل لنا مَنْ يُقيم بَعْدَكَ فى سُو قِ عكاظٍ على سريرِ زياد ؟
هل لنا من يهز شعباً غدا يط فى على الشرق تحت ستر الحيادِ ؟
هل لنا من يبثنا العزمَ كىْ لا نتوانى عن ردّ كيد الأعادى ؟
كنت هذا جميعه أيها الشاعرُ بل كنتَ شُعلةً للبلادِ
فابكِ ياشرقُ حافظاً واندبى يا مصرُ مَنْ كان حافظاً للودادِ
وابكِ يا دهرُ شاعراً عبقرىّ الـ شعرِ أعلى لنا لواءَ الضادِ
قد فقدنا من كان طول سِنيهِ واقفاً للطغاةِ بالمرصادِ

« • »

ملكَ الشعر قد ذهبتَ وما خلفتَ فى مُلْكِهِ سوى أجنادِ
هل نلاقى خليفةً لكَ يا (فر عونُ) يوما فى قومِكَ الامجادِ ؟
انما الأنفس الكبارُ سيوفٌ ينتضيها الردى من الأغمادِ

(حيفا — فلسطين) : مؤيد ابراهيم ايراني

فى سماء الفن

إلى روح حافظ

أضاءَ بلبل الحياةِ فأضحى نهاراً جميلاً بغيرِ مساءْ
وأضحى هجيرُ الخلودِ ظلالا وظلّ الخلود بديعَ الرواءْ

« • »

توارَى ولكن سناه طريفٌ يُنير الحياةَ ويجلو السماءْ
ويحبو الوجودَ بسرٍّ عميقٍ ويحمى الفنون رهيب الفناءْ

« • »

رأينا خلالَ الظلام بريقاً فجدّدَ فجراً بليغَ الصفاءْ
وبين الوكون المميت تَسامى فعلّم موتى النفوسِ الاباءْ
ولكن هدايا الزمانِ رياءٌ فأين عطاءٌ حواه الوفاءْ ؟
وأين شعاعٌ نبيلٌ تَهادى يُذيب الغموضَ ويمحو الخفاءْ ؟

« • »

تَوارَى ولكنْ سناه طريفٌ ينير الحياةَ ويجلو السماءْ
ويحبو الوجودَ بسرٍّ عميقٍ ويحمى الفنون رهيب الفناءْ

المهدى مصطفى



تشكرك سورية يا حافظ

فارقد بسلام !

مات حافظ ابراهيم وكان أعظم الناس لوعة عليه أهل سورية . ولا غرو ، فحافظ لم يكن لمصر بكليته ، بل كانت أفكاره أبداً تسير وتنطلق نحو ذلك القطر الذى عرف فى أبنائه خلاناً أوفياء ، ورفاقاً خلصاء .

بكته سورية ولم تشأ أن تتعزّى عن فقده . بكت فيه صديقاً حفياً ، بكت فيه حبيبا غالياً ، بكت فيه ابناً ثانياً ، وعزاؤها فيه صعب المنال . وانى أجاهر بأن

لحافظ منزلة لدى أبناء سورية لايدانيه فيها شاعر مصرى آخر ، بل أقدر أن اصرّح ان اجلالهم له يفوق اجلال أبناء النيل لشاعرهم !

كان حافظ مصرياً صميماً ، يتعدله بحب مصر ، كثير الوجد بها . لكنه أحبّ سورية حباً مماثلاً لوطنه ، فخلع عليها من قصائده خيرَ بردها ، وجللها من ألحانه بأشجاها ، ولم ير غضاضة أن يصيح :

لى موطنٌ فى ربوع النيل أعظمُهُ ... ولى هنا فى حماكم موطنٌ ثانِ

انى رأيتُ على أهرامها حُلَلاً ... من الجلالِ أراها فوق لبنانِ

حسبتُ نفسى نزيلاً بينكم فاذا ... أهلى وصحبى وأحبابى وجيرانى

ولا يرى وجهاً للملامة فى تعلقه بحب أبناء الشام ، وفرط ولائه لهم ، وانه ليجد نهاية الفخر فى هذه المودة ، فيذيع على رؤوس الاشهاد :

إن يكتبوا لى ذنباً فى مودّتهم ... فانما الفخر فى الذنب الذي كتبوا !

كان فذاً بين أقرانه شعراء مصر ، كان علماً بين الداعين الى الوئام ، كان فريداً فى نشره ألوية المحبة بين ابناء القطرين ، ولقد أجاد فى وصفه العلائق بينهما :

اذا ألمتْ بوادى النيل نازلةٌ ... باتت لها راسياتُ الشام تضطربُ

وإن دعا فى ثرى الأهرام ذو ألم ... أجابه فى ذرى لبنان منتحبُ

وطالما أشار إلى ان السوريين هم دواماً عند حسن الظن بهم ، يجعلون همّهم الأوحد خدمة كل بلد نزلوه ، وكل قطر حلّوا فيه ، بذات الاخلاص وذات المحبّة التى يخدمون بها بلادهم . وطالما أشار الى جهادهم فى مصر :

إنّا رأينا كراماً من رجالهم ... كانوا عليهم لدينا خيرَ عنوانِ

كم فى نواحي ربوع النيل من طُرفٍ ... لليازجيّ وصرّوفٍ وزيدانِ ؟

وكم لاحيائهم فى الصحفِ من أثرٍ ... له المقطم والاهرام ركنانِ ؟

ولم يكن ليقتصر عند ذكر الصداقة والاخاء فحسب بين مصر والشام ، فلكم افتخر بمفاخر السوريين كمن يفتخر بمحامد آله وعشيرته . أنظر اليه يقول فى حماسة وحمية وفخر :

بأرض «كولمب» أبطالٌ غطارفةٌ أسدٌ جياعٌ اذا ما ما وُثبوا وثبوا
لم يَحمهم عَلمٌ فيها ولا عَددٌ سوى مضاءٍ تحامى ورده النوَبُ
أسطولهم أملٌ فى البحر مرتحلٌ وجيشُهم عمل فى البر مغتربُ
لهم بكل خضم مسربٌ نهج وفى ذرى كل طود مسلك عجبُ
لم تبد بارقة فى أفق منتجع إلا وكان لها بالشام مرتقبُ

أو ما صاح به ههنا :

عافوا المذلةَ فى الدنيا فعندهم عزّ الحياة وعزّ الموت سيان
لا يصبرون على ضيم يحاوله باغٍ من الانس أو طاغٍ من الجانِ
تيمموا أرض «كولمب» فما شعرت منهم بوطء غريبِ الدار حيرانِ
سادوا وشادوا وأبلوا فى مناكبها بلاء مضطلع بالامر معوانِ
فى الكون مورقهم فى الشام مغرسهم والغرس يزكو نقالاً بين بلدانِ
إن لم يفوزوا بسلطان يقرّهم ففى المهاجر قد عزّوا بسلطانِ
أو ضاقت الشام عن برهان قدرتهم ففى المهاجر قد جاءوا ببرهان

لا يرضيه ذلك فقط ، بل انه ليذكر يد سورية على العالم واثرها فيه حتى اليوم ، وانه ليشير من طرف خفى الى عبقرية الفينيقيين — أولئك الاجداد الذين عركوا الدهر وأبلوه ، ولم يقدر بنوائبه على محق مفاخرهم وآثارهم — وانه ليبدى صراحة ان الغربيين من اميركيين وسواهم يفون ذمامهم نحو سورية بانشائهم دور التعليم فيها :

أرى رجالاً من الدنيا الجديدة فى الـ ـدنيا القديمة تبنى خير بنيانِ
قد شيدوا آيةً بالشام خالدة شتى المناهل تُروى كل ظمآنِ
لئن هدوكم لقد كانت أوائلكم تهدى أوائلهم ازمان ازمانِ
لاغرو إن أعجزوا فى الارض وابتكروا فيها أفانين اصلاحٍ وعمرانِ
فتلك دنياهمُ فى الجو قد نزعت أعنة الريح من دنيا سليمانِ

ما ذا أزيد بل ما ذا أقتطف من ثمار شعره الشهية ؟ لا أدرى والله أى شىء أختار وأيّه أغفل؟ وليس لى إلا أن أحيل القارىء على ديوانه وعلى قصائده المنثورة هنا وهناك فى الصحف والمجلات — التى لا يريد جمعها أحد . . . وأخاف على حظ

حافظ العاثر أن يفنى فى حظ شوقى المجدود ، فلا يُـلتفت إلى جمع آثاره وحفظها !

وقف حافظ فى منتـدى الجامعة الاميركيـة فى بيروت يرثى نفسه فى ذات القصيدة العصماء التى مدح بها الشام ، يرثى نفسه فى ألم وحرقة . . . يرثى ذاته أمام من أحبّوه وأجلوه ، ولم يجدوا كيفية يعبرون بها عن شعورهم العميق تجاهه سوى تلك الحفلة الأدبية الكبرى يشيدون فيها بمآثره وفضله ، وتلك الحفلات العديدة فى دمشق وسواها إمعاناً فى التكريم والشكران ، وذلك الوسام بعلقة رئيس الوزارة على صدره .

وقفَ يذكر بؤسه ، ويشكو زمانه ، ويتحسر على حياته ، ويتمنى لو أُتيح له انتجاع الصحة دائماً فى رياض لبنان وجباله الشمّ ، فيصيح من كبد حرى :

يا ليتنى كنتُ من دنيايَ فى دعةٍ ... قلبي جميعٌ وأمرى طوع وجدانى

أقضى المصيفَ بلبنان على شرفٍ ... ولا أحول عن المشتى بحلوانِ

ثم يعود فيعرج على ذكر الموت ، ويحنّ اليه ، ويرتقب مجيئه ، وتكاد تشعر بقرارة نفسه تكاد تسيل أسى بين كلماته المحزنة :

ولّى الشبابُ وجازتنى فتوّتهُ ... وهدّم السقمُ بعدَ السقمِ أركانى

وقد وقفتُ على الستين أسألها ... أسوّفت أم أعدّت حُرّ أكفانى ؟

شاهدتُ مصرعَ أترابى فبشّرنى ... بضجعةٍ عندها رُوحى وريحانى

كم من قريبٍ نأى عنى فأوجعنى ... وكم عزيزٍ قضى قبلى فأبكانى

إنى مللتُ وقوفى كل آونة ... أبكى وأنظم أحزاناً بأحزانِ !

لقد ملّ حياةً لم تبذل له سوى مرارة وحنظل ، ولم تكشف له يوماً عن صدرها إلا لتريه إياه مدججاً بسهام النوائب والمحن . ملّ حياة وجهها باسم وقلبها غدار لا يكاد يغره منها سنا محياها حتى تجابهه بنصالها المحددة ، تحترق كعبة آماله ، وتهدمها الى الحضيض .. فماذا له بها ؟ وها قد جاءته المنية أخيراً ، فاخترمته ، وحرمت اهله وصحبه وخلانه صحبته الرقيقة ، ولم تكد تضمه تحت طبقات الثرى فى ذلك القبر الموحش الحقير ، حتى أخذت اليها شاعراً كسف بصيته وعبقريته : ذكرى شاعر النيل !

فى الحياة والموت لم يصادف حافظ إلا حسكا وشوكاً . فى الحياة والموت لم يلق إلا غمطاً وتجاهلا ، فحق له وهو يعلم حظه المكدود ان يتوق الى الموت ، ليستريح من العناء ويرتاح من رؤية هذه المضادّات تقتحم عليه عرين راحته ، وتكاد تسدّ عليه منافسه ، فتذيقه من علقمها الواناً واشكالاً !

اى حافظ !

ان السوريين قاطبة ليكرمون فيك دائماً اخاً وصديقاً وحبيباً . يكرمون فيك شاعراً عظيماً ، شاعراً أشاد بمفاخرهم ، وحاول الجمع بين القلوب . وهذه التحية التى يزفها اليك احدهم فى هذه السطور يرجو ان تنوب لدى روحك النبيلة ، ولدى أبناء وطنك ، عن سورية وبنيها الرابضين فى الوطن والمهاجرين فى اطراف العالم . فأنت وإن مت وغادرت دار الاحياء الى دار الخلود والبقاء ، فانّ ذكراك حيّة خالدة فى أفئدة السوريين ، منقوشة ابداً على صفحات قلوبهم .

وفى ذمة الله ياحافظ ؟

ميشيل سليم كبير



المديح والشكوى والرثاء

فى شعر حافظ

لحافظ أشعار كثيرة فى مواقف عدة ومناسبات مختلفة ، ولهذا لُقّب بالشاعر الاجتماعى ، وشاعر النيل ، وشاعر الشعب ، الخ . وهو جدير بهذه الألقاب ، إذ أنه الشاعر الوحيد الذى كان ينطق بلسان الشعب ، فيتألم لآلامه ويفرح لما يسره . وأقرب وصف لنفسية حافظ هو ما وصفه به خليل بك مطران من مقالة ذكر فيها : «وَلع بالاجتماعيات فقال فيها وأجاد ما شاء ، كبير الآمال عاثر الجد ، تجد على أكثر منظومه أثراً من ألم النفس أو مسحة من الشكوى ، وتحمل بعض حروفه من بثه ما يلدغ لدغ النار الكامنة فى غير متّقد»

ان لحافظ أشعاراً فى شتى المناسبات ومختلف المواقف كما أسلفنا : فاذا مدح فهو الشاعر الفذ الذى يخلع على ممدوحه ثياب الفخر والبهاء الى أبد الدهر ، وإن شكا من الزمان ومن مفارقة الأوطان والاهل والخلان صوّر لك روحه كأنها تتقلب على

الجمر فهى تعانى من الآلام ما تعانى . وما كان من أشعاره فى الرثاء فهذا مما لا يجارى فيه ، فهى بجملتها دموع من قلبه تقطر دماً فلا عجب أن يجيد حافظ المراثى بعد أن نعلم أن ذلك الشاعر العظيم نشأ على البؤس والشقاء ، ولا زال يغالب الأيام وتغالبه حتى ألقى السلاح أخيراً ليرتاح الراحة الأبدية التى لا تعب فيها ولا نصَب.

لنبدأ أولاً باشعاره فى المديح : قال من قصيدة يمدح بها الشيخ محمد عبده وهى فى غاية الاحكام وحسن الانسجام ، وحسبك ان تنظر كيف ذلل القوافى وجعلها سلسة الانقياد ، وكيف خلد ممدوحه فى هذه الابيات الخالدات ، كما خلد نفسه فى طليعة الشعراء الخالدين :

قالوا: صدقتَ، فكان الصدق ما قالوا ما كل منتسب للقول قوّال
هذا قريضى وهذا قدر ممتدحى هل بعد هذين إحكام واجلال ؟
انى لأبصر فى أثناء بردته نوراً به تهتدى للحق ضلال
حللتُ داراً بها تُتلى مناقبه ببابها ازدحمت للناس آمال
رأيت فيه بساطاً جلّ ناسجهُ عليه فاروقُ هذا الوقت يختال
بمشيةٍ بين صفىّ حكمةٍ وتقىً يحبها الله لا تيهٌ ولا خال

بيت من الشعر يرنّ صداه فى الآذان فيجاوزها فيعم الدنيا صارخاً :

هذا قريضى وهذا قدر ممتدحى هل بعد هذين احكام واجلال ؟

فيجيبه لسان الدهر قائلاً :

لا ورب البيت ، لا أرى أكرم من هذا الاجلال . وأى اجلال أحكم من الذى يخلد فى صحيفة لا تنسى إلى آخر يوم من أيام الدنيا ؟ فليهنأ قائله وليهنأ من قيل فيه بالخلود الأبدى !

أما ترى الرجل فى الأبيات التالية من قصيدة يمدح بها ادوار السابع ملك الانجليز يوم تتويجه كيف حنكته نوائب الأيام فجعلته خبيراً بأحوال الانجليز وسياستهم الملك وتدبيرهم شؤونه ودهاءهم أكثر من غيره ممن اتصل بهم :

خبرتهم فرأيت القوم قد سهروا على مرافقهم والملك قد سهرا
تشاوروا فى أمور الملك من ملك الى وزير الى من يغرس الشجرا

وكان فارسهم فى الحرب صاعقة وذو السياسة منهم طائراً حذرا
بالبرّ صافنة داست سنابكها مناجم التبر حتى عافت المدرا
وفى البحار أساطيل اذا غضبت تر البراكين فيها تقذف الشررا
وهن فى السلم والايام باسمة عرائس يكتسين الدلّ والخفرا

لا ريب ان الرجل بعيد الفراسة ينظر لكل ما يحيط به نظر حصيف مدرب لا تتعداه فائتة ولا تفلت منه .

لنجسُ خلال بؤسه وآلامه واتعابه ، ولننظر الى أى حد وصل به ذلك البؤس المرهق الذى لا يصمد له من الرجال الا الأفذاذ القلائل :

وددتُ لو طرحوا بى يوم جئتهم فى مسبح الحوت أو فى مسرح العطب
لعل (ما نىَ) لاقى ما أكابده فودّ تعجيلنا من عالم الشجب

هكذا فليكن قرض القريض مترجماً عما فى نفس صاحبه وما يساورها من خوالج . لازمه البؤسُ والنّصبُ من عهد الشباب الى أيام الشيخوخة الا قليلا منها ، فأرسل الشكوى الحارة المحرقة تقطع نياط القلوب وتفتت الأكباد وتناضل عن العبقرية وحقوقها عند الجمهور المستهين بها .

أو ما تراه كيف يأسف على ما جشّم نفسه من ركوب الأخطار والاتعاب ، لولا أحكام القدر القاسية التى جعلته يكتسب رزقه مضطراً بهذه الحالة المضنية ، وكيف عاد يعتذر لنفسه عما لاقته من اتعاب ، وان سبب اتعابها راجع الى والده الذى عمل على ايجاده فى هذه الدنيا ، وقد زاد على قول المعرى :

هـذا جناه أبى علىّ وما جنيت على أحد

بأن أشرك نفسه مع والده فى الذنب إذ يقول :

رميت بها على هذا التباب وما أوردتها غير السراب
وما حملتها الا شقاء تقاضينى به يوم الحساب
جنيت عليك يا نفسى وقبلى عليك جنى أبى فدعى عتابى

الى أن قال من هذه الشكوى المؤثرة :

سَعيت وكم سعى قبلى أديب فآبَ بخيبة بعد اغتراب

وما أعذرت حتى كان نعلى دماً ووسادتى وجه التراب
وحتى صيَّرتنى الشمس عبداً صبيغاً بعد ما دبغت إهابى
وحتى قلم الاملاق ظفرى وحتى حطم المقدار نابى

ولعمر الحق لو حاول أمهر المصورين ان يصور ما بسطه حافظ من شكوى فى هذه الأبيات القلائل لما استطاع ، وكأنى أراه خارجاً مع الجنود فى بعض المهامّ الى بلد بعيد وقد تقطع نعله من كثرة المشى ، فظل يسعى حافياً وقد بلل دم قدميه وجه الثرى ، حتى اذا أدركهم الليل نام ملتحفاً الأرض كغيره من الجنود فاذا أشرقت الشمس فى صباح الغد عاودوا المسير وقد تضاعفت حرارة الشمس بما يصهر الجلود ويغلى الأدمغة . ولم يزل هذا ديدنه فى الأيام التى كان فيها ضابطاً بالسودان فى الجيش المصرى حتى أحالت لفحة الشمس وجهه المشرق بالبياض ونضرة الشباب إلى وجه قد علاه السواد كما يعلو الصدأ سيفاً لبث فى غمده أعواماً — فيا لها من أقدار ساخرة لا ترحمَ، تلك التى جعلت شاعر مصر الاجتماعى العظيم يتذمر من الحياة ويشكو من أتعابها ! يا لها من أقدار تلاعبت به كتلاعب القط بالفار حتى قال :

فلو ساق القضاء الىّ نفعاً لقام أخوه معترضاً شحيحاً

والآن فلننتقل من شقاء متواصل إلى أدمع من دماء سكبتها روحٌ ذاقت مرارة الألم وطعم العلقم .

قال من قصيدة يرثى بها المرحوم الشيخ محمد عبده :

سلامٌ على الأسلام بعد محمدٍ سلامٌ على ايامه النضراتِ
على الدين والدنيا ، على العلم والحجا على البرّ والتقوى ، على الحسنات

فأنت بمجرد قراءتك لهذين البيتين فى مطلع القصيدة تعرف مبلغ الحزن العميق الذى نال الشاعر بفقد الأمام — حزن من أحسّ بعظم المصاب وفراغ المكان فى وقت كان الاسلام فى أشد الحاجة الى بقائه ليخرس ألسنة الأفاكين . والقصيدة بأكملها تبرهن على حزن ناظمها حزناً لا تشوبه شائبة رياء أو مجاملة .

بماذا تشعر حين تقرأ الأبيات الآتية ؟ ألا تشعر معى بعظم الخسارة الفادحة وقد صور ذلك الشاعر تصوير مفجوع ثاكل فأبدع التصوير حيث قال :

تباركتَ هذا الدين دين محمد أيترك فى الدنيا بغير حماة ؟

تباركت هذا عالم الشرق قد قضى ولانت قنـاة الدين للغمزات

الى أن قال :

فيا سنة مرت بأعواد نعشه لأنت علينا أشأم السنوات

حطمت لنا سيفاً وعطلت منبرا وأذويت روضاً ناضر الزهرات

وأطفأت نبراساً وأشعلت أنفساً على جمرات الحزن منطويات

الى أن قال مصوراً للحزن الذى استولى على الشرق خاصة والعـالم الاسلامى عامه بفقد ذلك العالم الجليل :

بكى الشرق فارتجت له الأرض رجة وضاقت عيون الكون بالعبرات

ففى الهند محزون وفى الصين جازع وفى مصر باكٍ دائم الحسرات

وفى الشام مفجوع وفى الفرس نادب وفى تونس ما شئت من زفرات

بـكى عالم الاسلام عالِم عصره سراج الدياجى هادم الشبهات

وهاك أبياتاً من قصيدة قالها فى حفلة تأبين المرحوم مصطفى باشا كامل يترجـم بها عن الحزن الذى استولى على الناس عند وفاته وشعورهم نحو فقد زعيم الوطنية المظيم :

تسعون ألفاً حول نعشك خُشّعٌ يمشون تحت لوائك السيَّارِ

خطُّوا بأدمعهم على وجه الثرى للحزن أسطاراً على أسطارِ

آناً يوالون الضجيج كأنهم ركب الحجيج بكعبة الزوّارِ

وتخالهم آناً لفرط خشوعهم عند المصلَّى ينصتون لقارى

غلب الخشوعُ عليهم فدموعهم تجرى بلا كلحٍ ولا استنثار

الى أن قال:

كم ذات خدر يوم طاف بك الردى هتكت عليك حرائر الافـكارِ

سفرت تودع أمـةً محمولةً فى النفس لا خبرا من الأخبارِ

لا ريب أن حافظاً أجاد تصوير الفاجعة على حقيقتها الواقعة تماماً . فهو بعد أن تـكلم عن ذوات الخدور وخروجهن فى جنازة الفقيد ليشيعنه الى مقره الأخير وقد مزقن أستار الحجاب وجاهرن بالسفور أمام الجماهير المشيعة للفقيد عاد فشبه

الفقيد بأمة . لتقديره له كزعيم وطنى يطالب باسترداد حقوق بلاده . وقد صدق فى هذا التشبيه فكل من يسعى فى تحرير بلاده فهو لا شك قلبها النابض وفكرها الثاقب إذا فقدته فلا حياة لها بعده — بعد سكون قلبها من خفقانه وخمود فكرها بعد توقده — حتى يقوم فيها بعده داعٍ أو دعاة يسعون فى تحقيق أمانى البلاد فتُبعث من جديد بعد الموت مع الأمم الحية .

والآن لنضع القلم عند هذا الحد مكتفين بهذا النذر من حياة (الشاعر الاجتماعى) الأدبية فقط . أما حياته الخاصة فلنترك الكلام عنها للمتصلين به من أبناء مصر المجيدين ولنترك الدهر منشداً بلسانه :

خالدَ الآثارِ لا تخشَ البلى ليس يبلى من له ذكرٌ خلدْ

الجزيرة ابا - السودان : **بشرى السير أمين**

سيرة حافظ

الى الشاعر البائس شاعر الانسانية المعذبة الناشر الحق والنور ، الشبيه بتلك الشمعة التى تذوب لتضيء لغيرها ، المتعلق بأهداب الوطن الجريح ، ذلك الذى هدمت آماله وبددت أمانيه ، وبعثرت أحلامه ومات وهو يردد « مصر فوق الجميع »

الى روحه الطاهرة المرفرفة بجناحيها فى سماء آلهة الشعر بجانب عرائس الجنات فى عالم الخلود ، اليك يا حافظ أهدى رسالتى . . . .

١ — مولده

فى فجر يوم من أيام سنة ١٨٧١ بديروط وأسرته فى عيدها الأوحد تستقبل ابنها الأوحد الذى أبت الأقدار أن تبعث به من عالمها الرهيب المجهول إلى عالم الخلد بصوره وآياته الا فى ذلك الوقت الأخير وقد رفع أبوه طرفه الى السماء مردداً : « اللهم لك الثناء العاطر والشكر الجميل » !

وظل ذلك الوليد العزيز ينعم بقبلات أبويه صباح مساء حتى بلغ السنتين أو يزيد ، ثم نُكِبَ بموت والده الذى تركه بين أحضان أمه التى أضناها الأسى وحزبها الألم وقضت من بعده وهى تتمنى لو أن تفتدى ما فى حياتها من زينة وبهجة وسعادة ومال ببقائها ولو بضع سنين حتى ترى حافظها يسير سير الرجال

ويحدثها كأم وقد امتلأ عافية ونضارة وجمالاً ، وكفله خاله وربّاه وقد ضاعت ثروة أبيه وأضحى لا عائل له غيره .

٢ — طفولته

ليس أمامنا من المصادر والتحقيقات ما يشير إلى طفولة حافظ بكثير ولا قليل غير حادث يتمه المبكر هذا الذى أثّر فى تكوين شخصيته إلى حد أن يقول التونى عنها : « ويظهر أن لذلك اليتم المبكر أثراً فى تكوين شخصية حافظ الدفينة الحزينة فلقد كان حافظ فى قرارة نفسه كما سيتبين يعد حزيناً ، فكان إذا خلا إلى نفسه أو إلى صديق ظهرت خفايا نفسه ، وإذا قال الشعر كان عليه مسحة كبيرة من ذلك الحزن الدفين ولذلك خلا شعره من الفكاهة وخفة الروح التى عرف بها المرحوم الفقيد فى المجالس والسوامر » . . .

أجل ، فالحزن قد طبعه بطابعه الخاص حتى انه كان لا تستجيب إلى ندائه آلهة الشعر إلا إذا ما بكى ، وفى ذلك يقول رحمة الله عليه : « لا يطيب لى نظم الشعر إلا إذا ما كنت محزوناً » .

إذاً حُرِمَ ذلك الطفلُ أبويه وأضحى يتيماً محزوناً ، محروماً تلك القبلات الحلوة الأبوية ، وهذا العالم أمامه قطعة سوداء قاتمة صاغتها يد الحزن والأسى .

أجل ، فقد قضى سنى طفولته وهو ذلك الحزين اليتيم الذى لا يشعر بعطف أب أو حنان أم ، ومدارسه التى جاس خلالها من الابتدائية حتى الجندية والشعرية يحوطها الحزن من كل مكان !

٣ — تعليمه

دخل المدرسة الابتدائية ثم لما نال جائزة التجهيزية ساءل نفسه : ماذا أصنع ؟ وبأى مدرسة ألتحق ؟ وأى الرجال أحذو حذوه وأنسج على منواله ؟ فلم يظفر من نفسه بغير هذا الجواب : « الحربية والبارودى ! » لكنه عاد إلى نفسه وقال : لماذا ؟ فظفر بهذا الجواب : « ان قامتى المديدة الفرعاء وتركيبى القوى المتين هما الدليل الناصع على صلاحيتى للحرب ، وروحى الشعرية الجميلة التى يزورنى طيفها فى الامسية الحزينة والأصيل الضاحك هى التى تمكننى من القيادة العامة التى أتوق اليها ، وبذلك أحمل السيف والقلم عن جدارة واستحقاق » .

فكان له ذلك والتحق بالحربية وخرج منها برتبة ضابط وما لبث أن وزّع على السودان يحمل بين جنبيه قلباً مملوءاً بالآمال ينشد المجد وينظر إلى السماء.

لكنه تلفت حوله فى السودان فرأى شمساً محرقة تلفح الوجوه بسعيرها وزملاء يغلب عليهم الجهل والجدب الروحى ، وان ذلك الحلم الذى نشده طالباً أخذ ينهار ، وهنا تتفتح عيون شاعريته أو بعبارة أخرى مدرسته الشعرية .

٤ — حياته

رأى اليد الانجليزية تسيطر على الجيش المصرى فزأر لكرامته المهدورة ، ورأى جهل اخوانه وشمس السودان المحرقة تحول بينه وبين نعيم الشاعرية الذى ينشده فى ظلال الجزيرة وأنديه العلماء ومجالسهم ، ورأى فى السودان برغم ما حبته الطبيعة من صور الجمال ذلك الجدب الروحى الذى يمقته ، وشكواه تتراءى لنا من خلال أبياته التى بعث بها من السودان إلى صديقه بيرم وقال فى مطلعها :

زحتُ عن الديار أروم رزقى   وأضرب فى المهامه والتخومِ

إلى أن يقول :

ولولا سورةٌ للمجد عندى   قنعتُ بعيشتى قنعَ الظليمِ

ومن كتابه إلى أستاذه الإمام محمد عبده الذى يسأله فيه انتشاله من وهدته هذه فيعده خيراً ويرجع اليه ثانية يسأله : « مثل كتابى إلى سيدى وأنا من وعده بين الجنة والسلسبيل » الى آخر هذا السجع المملول الممزوج ببعض المقطوعات الشعرية الرقيقة ويعده الامام ثانية خيراً وظل حافظ متبرماً إلى أن قامت ثورة الضباط المصريين وأبعد حافظ إلى مصر مغضوباً عليه رهن المحاكمة مشدوه الفكر مبلبل الخاطر حتى صدر عفو الخديوى ورجعت اليه طمأنينته وحريته .وكانت هذه الساعة هى أحرج ساعات حياته إذ أنه رأى بعينى رأسه فشل الثورة العرابية وأستاذه البارودى معرضاً للمحاكمة ونفوذ المستعمرين قد ازداد وأمله الجندى ينهار والكرامة المصرية كأنها لم تكُ شيئاً مذكوراً .

ولما استقرت الأمور بعض الشىء رجع حافظ ثانية إلى الخدمة لكنه ما لبث أن طلق الجندية طلقة بائنة لا رجعة فيها مردداً هذه الانشودة : « أى يوم عرفت الحائم غير سماء الحرية ونور السلام ! »

انقطع للشعر والترجمة والتأليف وعاش معيشة بوهيمية هى قطعة من خيال الشاعر الذى يأبى القيود والأقفاص ولو كانت من ذهب !

وعلى ما أذكر كان حافظ قد التحق بالمحاماة أمام المحاكم القديمة قبل اتصاله بالحربية وبعد ذلك واشتغل مع بعض أعلام المحاماة فى ذلك العهد .

ومنذ ذلك الحين وهو يرسل آياته التى أقضت جانب الاستعمار تارة والرجعية تارة أخرى ، والتى عرفت بأنها آيات الوطنية والاجتماع من شاعر الانسانية وص شاعر النيل قبل كل شىء .

ولما أن تقدمت به السن رأى الحياة الأدبية راكدة آسنة وأُتيح له عطف ولاة الأمور حينئذ فالتحق بدار الكتب المصرية فى سنة ١٩١١ وبقى فيها حتى أوائل سنة ١٩٣٢ فحرمنا شعره جلَّ هذه الفترة الطويلة حتى اذا ما انقضت وأُحيل إلى المعاش أرسل صيحاته التى اشتهر بها فى وجه الاستعمار والرجعية فى هذا العهد الأخير ، ولم تنقطع صيحاته هذي الابموته فى ٢١ يوليو سنة ١٩٣٢ .

٥ — بؤسه

خير من فطن من الكتاب إلى بؤس حافظ الأديب التونى إذ يقول: «هذا بؤس نفسانى روحانى ، وليس بؤس المادة والحاجة والطمع » .

أجل ! فبؤس حافظ ينحصر فى آماله المتهدمة وتماثيل مجده المحطمة وقصوره التى بناها فى الخيال ولعبت بها الرياح الهوج !

شاعرٌ من شعراء الانسانية يحمل القلم والسيف يهزّ بالأول أوتار القلوب بما يبعثه من الآيات الرائعة تارة ، وأخرى يبعث الدمع السخين من المآقى بأناته الشاكية من الظلم والظالمين والرجعية والمستعمرين وجهل أمة متأخرة تناوىء المصلحين وتشايع الرجعية الجاهلة وتؤيدها ونوم شرق راكد لا يفيق ، فالاستعمار يخنق الشعب والأمة تعبد الأصنام والموتى والشرق يقدّس الجمود والركود !

يود لو أن سيفه يعمل فى الدائرة التى خُلق لها كقائد عام فلا يجد جنودا بل يرى فلولا اثر فلول وهزيمة اثر هزيمة وما يتبع ذلك من المصائب والويلات .

فلما ذا لا يتملكه البؤس ؟ ولماذ لا تتهدم آماله ؟ ولما ذا لا يقول :

لكننى غير مجدود وما فتئت يدُ المقادير تقصينى عن الأرب

وقد غدوتُ وآمالى مطـرحة   وفى أمورىَ ما للضبِّ فى الذنب

اى وربى ، كان له أن يقول :

وحتى قلّم الاخفاق ظفرى   وحتى حطم الافـراط نابى

بدلاً من قوله :

وحتى قلّم الاملاق ظفـرى   وحتى حطم المقـدار نابى

الاخفاق اخفاقه كقائد عام ينشد حياة جديدة للجيل الجديد والاجيال المقبلة ، والافراط افراط الشعب فى جهالاته وضلاله وغيه وغفوته الشبيهة بالموت الابدى !

٦ — ملامحه وصفاته

مديد القامة ، قوى البناء ، ذو وجه صبوح ، وشاربين طويلين ، وعضل مفتول وصوت عذب ، وجسم متين خلق للجندية والكفاح .

وهو فى (مرآة البشرى) : يحب الجمال ويجتمع له ويكره القبح وينعى على أهله ، تجابه بذلك مجابهة ، لا يتقى فى القول ولا يتحرف ، خفيف الظل ، عذب الروح ، حلو الحديث ، حاضر البديهة ، رائع النكتة ، بديع المحاضرة . إذا كتب لك يوماً أن تشاهد مجلسه أخذك عن نفسك حتى ليخيل اليك انك فى بستان تعطفت جداوله ، وهتفت على أغصانه بلابله ، وأشرق نرجسه ، وتألق ورده ، فأذكرك طلعة الحب : تانك عيناه وهذا خده ! تنفس فيه النسيم بسحر هاروت ، فاعجب لمن ينشر هذا النسيم كيف يموت ! والبدر فى ملكه بين المجرة والجوزاء ، يخلع على الروض حلة فضية بيضاء ، فلا تدرى أأمست السماء فى الروض أم أمسى الروض فى السماء ؟ كان متلافاً إلى حد كبير : فقد تجتمع له الالف ولا تمكث فى يده أسبوعاً ، متفنناً فى طعامه وشرابه إلى حد كبير .

فلننتقل الى رثائه ففيه مادة غنية خصبة تغنيك بعض الشيء ياصاحبى عن ثقل الرثاء وفنه المرذول بجانب شعرنا العصرى الجديد ، ذلك الشعر الانسانى الناظر الى السماء .

ان قصيدته فى رثاء الامام محمد عبده هى وايم الحق كتمثال صامت له ، فانظر اليه فى مطلعها :

سلامٌ على الاسلام بعد محمد   سلام على أيامه النضرات !

أليس فيه من المتعة الفنية ما يحبب اليك الشاعر وشعره المتمثل فى قوله :

لقد كنتُ أخشى عادىَ الموت قبله   فأصبحت أخشى ان تطول حياتى !

فن جزالة فى اللفظ ورصانة الى قوة فى المعنى والصياغة تراها فى هذه القصيدة أوبعبارة أخرى فى ذلك التمثال .

لـكننى لم يرقنى قوله :

فيامنزلا فى عين شمس أظلنى   وأرغم حسادى وغمَّ عدائى

لان الشاعر فى موقفه الانسانى المشرف هذا ماكان يجدر به أن يهوى الى هـذا الحضيض حيث الدنيا بما فيها من حقد وحسد وعداء .

وقد اتهمه الدكتور طه حسين فى تقليده لمسلم بن الوليد فى قصيدته « لاتدع بى الشوق انى غير معمود » لقوله فى استاذه البارودى «ردوا علىَّ بيانى بعد محمود » .

وانى رغم تسليمى ببعض نظرية الدكتور طه فانهذه القصيدة والحق يقال ليست غير تمثال بديع للبارودى الذى أَحبه حافظ ونسج على منواله فى الشعر ، وانه — أى البارودى — هو والمعري هما اللذان أثرا على شعر حافـظ بآثارهما التى أَحبهـا كلَّ الحب .

وتتجلى الشعبية الخالصة عند شاعرنا فى رثائه لرجال الوطنيـة كمصطفى كامـل وفريد وزغلول ، فاسمع اليه فى قوله يرثى مصطفى كامل :

أرى جلالا ،أرى نوراً، أرى ملـكاً   أرى محياً يحيينا ويبتسمُ

الله أ كبرُ ! هذا الوجه أعرفُـه !   هذا فتى النيل! هذا المفرد العلمُ !

وخير رثاء له عندى قوله فى المرحوم قاسم أمين :

الحكمُ للايام مرجعُـه   فيما رأيت فنَمْ ولا تَسلِ

وكذا طهاة الرأى تتركه   للدهر يُنضجه على مهلِ !

ولك أن تنتقل معى من رثائه الى وصفه فتجده قد أجاد الوصف رغم اقلاله واقتصاده . انظر اليه فى قصيدته عن « الشمس » :

نظر (ابراهامُ) فيها نظرةً   فأرى الشكَّ وما ضلَّ اليقينْ

تجده يستمر معك فى فخامة معانيه وجزالته القاطعة الى أن يقول :

هى طلعُ الروض نوراً وجنى   هى نشرُ الورد طيبُ الياسمينْ

فيحملك على أن تتغنى بهذه القطعة كانشودة عـذبة طبعت بطابع الخلود .
واقرأ معى وصفه هذا الذى وجهه الى صديقه عمون بك :

قصورٌ كأنّ بروجَ السما ء خدورُ الغوانى بأدوارها

فهو جميل الى حد ما ، بيد أنك ياصاحبي لوظللت تنقب فى صفحات الديوان فلن تعثر على قطعة وصفية فنية ممتازة مما تغنى به الشعراء المحدثون .

ولكنك لو تلمست لحافظ الاعذار فى اهماله تلك الجوانب الشعرية الخالدة فليس لك أن تلتمس العذر له فى اهماله « النيـل » ذلك الاهمال المزرى به كشاعر النيل !

ألم يحلق بجناحيه أىَّ يوم فى سماء النيل فى سياحة روحية ويرى آلهـة الشعر وعرائس الحب وبنات الجمال تشدو بجماله الخالد على ممر الدهور والعصور حتى يصف لنـا ما شاهد فى ثوب جميل من أثوابه الغانية التى كان يحوكها من نسج فؤاده ؟ !
يقولون إن حافظاً كان قوى الحافظة وخاصة فى استظهار روائع الشعر العربى، وقد يكون هذا صحيحاً ... لـكننى أشك فى قوة حافظته لاسيما بعد أن تعدى طور الشباب الاول، ذلك لانه كان ضعيفاً فى اللغة الفرنسية لدرجة انه لم يقدر على ترجمة البؤساء ، وكتيبه الاخلاقى ضعيف كذلك لعدم احاطته باسرارها ، ولأنه لم يتكلم بها ولم يقرأها كالادباء الذين يحيطون باحدى اللغات للاضطلاع بآدابها وعلومها ، وهو كما يقول مطران: «يقول الشعر فى كل مكان يتفق له أن يخلو بنفسه ، ومن عادته دخولُ حديقة الازبكية بعد الظهر طلباً لتلك الخلوة » . وكان لا يهتم كثيراً بالنهضة العلمية وذلك لاختلاطه الكثير بعظمائنا الذين لاحظ لهم الا التندر والترجيلة والدعابة والمجون ـ أولئك الذين لا يتسع وقتهم لمسايرة الثقافة . وكان حافظ كريم الخلق طيب القلب الى حد كبير ، وكانت حياته الدراسية والجندية والشعرية والحكومية حياة رجل يفهم الحيـاة فى وضوح وجلاء .

٧ — آثاره

ان تحليل آثاره ونقدها هو بيت القصيد فى هذه الدراسة ، لـكننى سأوجز فى ذلك حتى تتسع صفحات « أبولو » لمثل هذه الدراسة ، وابدأ الآن بالديوان .

الديوان فى ثلاثة أجزاء وينقصه جزء رابع لم يُطبع بعد . وأول شىء يطالعك فيه

المديح والرثاء تقليداً للشعراء الاقدمين . وأنا من أشد أعداء المديح والرثاء ،ذلك لانني لا أجد فيهما تلك الآفاق الرحيبة التي خُلق الشاعر ليحلق فيها ولان آلهة الشعر يجب أن لا تتنزل من سمائها حيث الحب والحقيقة والجمال الى ذلك الدرك الأرضي حيث المادة والعبودية والضلال .

لكنني ألتمس العذر لحافظ لانه كان يجد في ذلك مايعينه على حياته المادية من جهة، ومن جهة أخرى كان يسير وراء العرف المتبع في ذاك الوقت: « ليس الشاعر بشاعر الا اذا أجاد المديح والرثاء » !

أنظر اليه في مديحه للجناب الخديوي : أترى غير نظم لاروح له ، قاله صاحبه مجاراة للوقت والتقاليد ، ومنافسة للشاعر شوقي الذي استلب منه الامارة ؟! وماذا كان يعنيه من قوله الى الجناب الخديوي (ص ٢٣ من الديوان) :

تشدو وترهف بالاشعار مرتجلا ... وتبرز القول بين السحر والعجب !

وانظر اليه في قوله من المديح :

تعمدت قتلي في الهوى وتعمدا ... فما أثمت عيني ولا لحظه اعتدى!

أليس يستوقفك هذا البيت إلى درجةأن تقرأ غيره كقوله في المديح هذا أيضاً :

ولو أنهم قدّوا غدائر فرعها ... لحاكوا له منها نقابا إذا بدا

اذاً ليس لنا ان نقف وإياك أمام هذا المديح وغيره لأننا فهمنا أن الشعر غير المديح !

ومن هذا الشعر الصناعي قوله :

خمرة قيل إنهم عصروها ... من خدود الملاح في ليل عرسِ

مُذ رآها فتى العزيز مناماً ... وهو في السجن بين هم ويأسِ

أعقبته الخلاص من بعد ضيق ... وحبته السعود من بعد نحسِ!

وله قصيدة في وصف أزمة نفسية،جاءت له مهلهلة الاوصال مفككة الأوصال مبتذلة

من واجد منفّر المنام ... طريد دهر جائر الاحكام

وقد نظمها وأفرغها من الروح الشعرية ففاضت روحها عند نظمها !

« ٥ »

ليس يبقى أمامنا من ديوانه غير شعره الوطني الاجتماعي ،وهو على حد قول اكثر

النقاد ميزته الواضحة التى عُرف بها فى حياته كشاعر وطنى ضرب فى البحوث الاجتماعية بسهم وافر ، وسخر الشعر لأغراضه ، فكان له كل ما أراد من جزالة لفظ وقوة معنى .

رأى الشعب يستكين لظلم المستعمر الغاصب ، ويستكين للرجعية الجاهلة ، ويستكين للتقاليد الشائعة والخرافات الفاشية ، يعبد الأصنام ويقدم القرابين للموتى والمعتوهين ، بعيداً كل البعد عن الحرية والنور ، فقال :

ودائى كداء الدين عزَّ دواؤه   وحظى كحظ الشرق نحسٌ كواكبه

فيا ليت لى وجدان قومى فأرتضى   حياتى ولا أشقى بما أنا طالبه

ينامون تحت الضيم والأرض رحبة   لمن بات يأبى جانب الذل جانبه

وخاطبَ أستاذه الامام يشكو قومه الذين عبدوا الاصنام والموتى وما يزالون يعبدون الأصنام والموتى :

رأوا فى قبور الميتين حياتهم   فقاموا إلى تلك القبور وطوّفوا

وباتوا عليها جاثمين كأنهم   (على صنم فى الجاهلية عُكف)

وحدبه وعطفه يطلان علينا من خلال قصيدته « آلامنا وآمالنا » التى يخاطب بها المرحوم الامير (السلطان) حسين كامل :

لعمرك ما أرقتُ لغير مصر   وما لى دونها أمرٌ يرامُ

الى أن يقول :

أرى شعباً بمدرجة العوادى   تَمَخَّخ عظمه داءٌ عقامُ

إذا ما مرّ بالبأساء عامٌ   أطلّ عليه بالبأساء عامُ

وانظر اليه فى قصيدته « حادث دنشواى » ذلك الحادث التاريخى الذى تذكره الانسانية المعذبة بقلب ملىء بالحسرات وبدمع هتون أشبه بدمع الثاكلات ، تذكره كنكبة فى تاريخ البشرية الظالمة التى يفتك قويها بضعيفها ، والتى اذا ما ذكرناها ذكرنا قوميتنا المهدورة وحقنا المضاع :

أيها القائمون بالأمر فينا   هل نسيتم ولاءنا والودادا ؟

انما نحن والحمام سواءٌ   لم تغادر أطواقنا الاجيادا !

الى أن يقول :

ليت شعرى أتلك محكمة التفتيش عادت أم عهد نيرون عادا ؟!

أليس هو وشعره المرآة الصادقة التى تنعكس عليها صور الشعب المتألم الراسف فى اغلال الاستعباد وقيود الهوان ، يئن وما لصوته من سميع ؟

بلا شك هو أول شاعر اجتماعى فى الشرق العربى استطاع أن يضرب على الوتر الحساس ويرضى العامة والخاصة ويصبغ شعره بصبغة تميزه عن غيره وتجعله أقرب إلى جانب الحق والخلود .

وانظر اليه وقد ضاق ذرعاً بشعبنا المسكين الهادىء الذى جرحت كرامته ولم ير فى ذلك من حرج :

أنا لولا أن لى من أمتى خاذلا ما بتُّ أشكو النوبا
أمةٌ قد فتَّ فى ساعدها بغضها الأهل وحبُّ الغربا

والى قوله من قصيدة أخرى :

لقد غضب الناس من قبلنا لسلب الحقوق ولم نغضبِ
أمورٌ تمرّ وعيش يمرّ ونحن من اللهو فى ملعبِ
وشعبٌ يفرّ من الصالحا ت فرارَ السليم من الأجربِ

وانظر اجتماعيته الخالدة التى قالها بمناسبة افتتاح مدرسة بور سعيد للبنات ومطلعها :

كم ذا يكابد عاشق ويلاقى فى حبّ مصر كثيرةِ العشاقِ

والتى جمعها فى هذا البيت الخالد :

الأمُّ مدرسة إذا أعددتَها أعددتَ شعباً طيبَ الأعراقِ

وانظر الى قصيدته فى وداع اللورد كرومر إذ يقول :

رمى دار المعارف بالرزايا وجاء بكلّ جبارٍ عنيدِ
يدلُّ بحوله ويتيه تيهاً ويعبث بالنهى عبثَ الوليدِ

وإن أنسَ لا أنسَ عتبه على مصر فى أبياته التى يقول فى مستهلها :

ماذا جنيتِ وما جناه بنوكِ أظلمتهم يا مصرُ أم ظلموكِ ؟

ونداءه فى سبيل الوئام بين مصر والشام :

لمصر أم لربوع الشام تنتسبُ هنا العلا وهناك المجد والحسبُ ؟

وشعره الوطنى ينطق بصدق إخلاصه ووطنيته الجائشة الفياضة التى عُرف بها الفقيد فى حياته .

ومن شعره الوطنى الذى لم ينشر فى المطبوع من ديوانه قصيدته التى نشرها «البلاغ الأسبوعى» بعدده الأول و مطلعها :

قد غفونا وانتبهنا فاذا نحن غرقى وإذا الموتُ أمَمْ

وانى أترك بقية شعره للكتاب الذى سيصدر عنه، واكتفى الآن بالتحدث عن بقية آثاره ،ولكننى لا أعذر حافظاً بأى حال من الأحوال فى أهماله الثورة المصرية وعدم ذكره أى شىء عنها يستحق أن يُشادَ به .

(ليالى سطيح)

أنشأ حافظ (ليالى سطيح) فى مواضيع اجتماعية على مثال حديث عيسى بن هشام للمويلحى الذى اشتهر به فى ذلك العهد شهرة واسعة . ولكن كتاب ليالى سطيح يختلف كثيراً عن حديث عيسى ، ذلك لأن حافظاً باعد بينه وبين ذلك السجع المملول الذى بنى عليه حديث عيسى ، وليس معنى هذا ان ليالى سطيح خالية من السجع قوية الأسلوب ، بل انّ سجعها أقل من سجع حديث عيسى بكثير وأسلوبها أقرب الى أسلوبنا الحديث

وهى نواة القصة المصرية الحديثة التى كنا نودّ من حافظ أن يقتحم أبوابها لو أنه راعى فيها الأسلوب والشكل والوحدة الفنية . ومناقشة ما جاء بليالى سطيح من الآراء يحتاج الى أكثر من صفحات « ابولو » ، فعسى أن أوفق الى نقده وتحليله فى فرصة أخرى .

(البؤساء)

قصة عالمية من الأدب الرفيع لفيكتور هوجو ، ترجمها حافظ — استغفر الله بل اقتبس منها جزأين صغيرين ولم يستطع إتمام ترجمتها لما لاقاه من المشقة والعناء لعدم تمكنه من أسرار اللغة الفرنسية من جهة ، ومن جهة أخرى لغرامه المنقطع

النظير باللفظ مما حشده بالترجمة العربية ، وبالرغم من أن هوجو اشتهر باغراقه فى اختيار ألفاظه أغرق شاعرنا أيضاً فى اختيار ألفاظ الترجمة العربية حتى بعدت عن الأصل الفرنسى.

ولو قارنت بين الترجمة والأصل الفرنسى لظهرت الاختلافات التى نأخذها على حافظ وحدت به الى أن لا يقدر على اتمام الترجمة ، وسنبين ذلك كله فى فرصة أخرى .

أما كتابه فى التربية والاخلاق أو بعبارة أصح كتيبه فقد نقله الى العربية فى اسلوب سليم وعبارة سهلة تتفق ومشارب أطفالنا وللأسف لم يترجمه جميعه بل ترجم منه جزأين أيضاً !

وترجم كتابه فى الاقتصاد هو ومطران ترجمة دقيقة يرجع الفضل فى دقتها واستيعابها لمطران لا لحافظ !

٨ — تجديده

بالرغم من نسجه على منوال الشعراء القدماء فله فى الشعر نظرة أقرب الى نظرتنا ، ولو أنه لم يبرهن على ذلك الا بشعره الاجتماعى وبمنظومته الصغيرة التمثيلية «غادة بيروت» التى لا يصح اعتبارها قطعة فنية تمثيلية كما تكون القطعة الفنية التمثيلية. بل هى عندى قصيدة جديدة لحافظ ومحاولة يسيرة لتجديده لا أكثر ولا أقل ، وكانت سنحت له الفرصة الفنية بوجود تلك المادة الخصبة التى تسعف الشاعر الموهوب بما يتطلبه منه الفن من حق وجمال وتجديد يظهر لنا من قصيدته التى يقول فيها للشعر : « ضعتَ بين النهى وبين الخيال » .

٩ — شعره

من أفخم روائع الشعر العربى ، تغلب عليه الجزالة والرصانة والقوة ، ولو كان له الخيال والخصب والثقافة الحقة لخلق لنا من الآيات ما تنظر اليه الأجيال القادمة بعين الاعجاب .

١٠ — لمحة خاطفة

يعتب الرافعى على فن الترجمة خلوه من النقد التحليلى من جهة ، ومن جهة ثانية لانه لا يتعدى الشرح والتفسير ولانه ليس المثل الاعلى الذى ينشده الناقد الهادم النافذ البصيرة. ونحن من أشد أنصار النقد التحليلى ومن أشد أنصار الهدم متى

وجدنا أن الأساليب والنماذج الشعرية أو الأدبية أو الفنية التى تقدم الينا مهلهلة سقيمة لا تتفق والمثل العليا التى نتشبث بها فوق غرامنا بالترجمة التحليلية التى تساعدنا على فهم الشاعر أو الأديب أو الفنان لانها بمثابة التحقيقات عند القاضى النزيه !

ولابد أن تسألنى يا صاحبي لماذا أغفلت هذه الناحية النقدية عند حافظ فاجيبك بان شعر حافظ فيه من السذاجة والبساطة والصدق والجمال ما يجعل الناقد يقف معه موقف الصداقة والحدب لا موقف العداء .

فماذا تطلب من حافظ ونقده وقد أجاد الرجل الرثاء ونبغ فيه وشارك الشعب فى آلامه وآماله وأضحت رسالته رسالة المصلح الاجتماعى الذى تحبه الانسانية المعذبة والعدالة والقانون ؟

اذاً ليس لنا أن نغلو فى نقده كما نغلو فى نقد شوقى أو العقاد أو الزهاوى أو أبى شادى لأن لكل منهم عوالمه التى حلق فى سماواتها ومثله العليا التى نشدها . ولابد لكل واحد منهم أن يدفع الثمن غالياً لأن المثل العليا لا تعرف الهوادة ولا اللين !؟

أحمد محمد عيشى



الشاعر البائس

حياته — الكتب التى قرأها — الشعراء الذين تأثر بهم — نظرات فى شعره
مظاهر البؤس فيه — اسباب بؤسه — حسنات هذا البؤس وسيآته

منذ نصف عام تقريباً أخرج الدكتور أبوشادى محرر « أبولو » كتابا خاصاً بذكرى المغفور له أحمد شوقى بك حشد فيه شتيتاً من الدراسات المستفيضة ، والقصائد الرائعة لكبار الكتاب والشعراء فى مصر وفى غير مصر

وسيظل هذا السفر القيم الذى أتيح لى أن أساهم فيه بنوع من هذه الدراسات خير مرجع لمن يريد الكتابة عن هذا الشاعر الخالد فى المستقبل .

واليوم يسجل له التاريخ اليد الثانية على الأدب حيث يخرج لنا عدداً خاصا بحافظ : ذلك الشاعر المغبون الذى عاش بائساً ومات بائساً ، ولا أود أن يفوتنى الاشتراك فى هذا العدد التذكارى الذى اعتقد أنه لن يقل عن سابقه جمالا وجلالا .

ولقد مضى على أكثر من نصف شهر وأنا أتصفح ديوان حافظ بدأب وشغف وأمعن فى دراسته لأتلمس ناحية غالية أو عاطفة مسيطرة على شعره أعالج فى بحثى الذى انتويته دراستها وتحليلها فكنت فى كل صفحة من صفحات هذا الديوان وفى كل سطر من سطوره أرى البؤس ماثلاً سافراً وأحس بحنق الشاعر وتبرمه بالحياة وأهلها واضحاً ملموساً فى جميع ما قرأت .

حياته

عاش حافظ ستين عاماً أو تزيد قليلا قضى الجانب الأعظم منها مكتئباً حزيناً ، وكانت حياته بوجه عام سلسلة من الآلام والمتاعب ليس فيها ما يبعث الأمل أو يساعد على السلوان . وهذه الحياة الشاقة المضنية تختلف فى أطوارها اختلافاً نقسمها من أجله الى ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : نشأ حافظ نشأة لم يفارقه البؤس فيها لحظة واحدة وتعرف إلى الحزن والكآبة فى مهده فاستنكر وجوده وتمنى فى هذه السن المبكره فناءة وفى ذلك يقول :

وودت لو طرحوا بى يوم جئتهمُ فى مسبح الحوت أو فى مسرح العطب

وقد كانت له نفس طُلَعة تميل للمجد وتكلف بالمعالى . لم ير فى تعليمه البسيط مايغذى هذه النفس النهمة فطفق يغذيها بالقراءة والاطلاع وهو بعد فتى لم يطو من طريق الحياة أكثر من عشرين عاماً . وما إن وصل إلى هذه السن حتى كان قد قرأ من أمهات الكتب أكثر من خمسين كتاباً كما يقول عارفوه والمتصلون به عن كثب وكان يقرأ الكتب بنهم وشغف ويحفظ من كل منها أحسنه وسنتحدث إليك فى موضع آخر عن نوع هذه الكتب — وقد بدأ منذ هذه السن ينظم مقطوعات قصيرة أكثرها فى المدح ومداعبة الأصدقاء .

المرحلة الثانية : لم يكد حافظ يبلغ العشرين من عمره حتى التحق بمدرسة الحربية

كضابط بمرتب ضئيل لا يكاد يكفيه ، وكان يقضى أوقات فراغه من عمله على وجازتها بين الكتب . وشاءت المقادير بعد ذلك أن يُنقل حافظ الى السودان فطوحت به يد النوى مأسوفاً على فراقه من أصدقائه وخلانه .

وكانت الحكومة إذ ذاك تعد السودان منفى للمغضوب عليهم من الجنود والضباط ومكث حافظ فى السودان بين نارين نار القيظ ونار الغيظ . وكان الحاكمون به يومئذ خليطاً من المصريين والانجليز ، وكان لاولئك السلطة الفعلية فى جميع الأمور، وكان حافظ ينظر إلى هؤلاء والانجليز المعاشرين له بعين البغض والشنآن ، ويزداد حسرة وألماً كلما رأى نفسه وإخوانه عبيداً لأولئك القوم الطارئين . وجدير برجل كبير النفس رقيق الاحساس كحافظ أن يتأثر بما حوله وأن تظهر هذه الآثار فى نظمه ونثره ، وكتابه « سطيح » أصدق مرآة تمثل لك حياته الخاصة فى السودان ومعاملة الانجليز له ولمعاشريه من المصريين فى هذا العهد الذى يصفه لنا فى قوله :

إذا نطقتُ فقاع السجن متكئى وإن سكتُّ فإن النفس لم تطب

وسنتحدث عن هذا الكتاب بنوع من الاسهاب عند دراستنا لنثره .

أمّا آلامه فى السودان وما كان يعانيه فى بيدائه من بؤس وعذاب فقد تكفلت ببيان معظمه تلك الرسالة التاريخية التى بعث بها من منفاه الى الاستاذ الإمام يرجوه فيها أن يسعى لدى ولاة الأمور فى نقله من السودان ، وكانت هذه الرسالة أول حجر فى بناء صلته بالاستاذ الإمام .

قرأها فأعجب بها وأجاب عنها وسعى فى نقله ومن ذلك الحين بدأ حدبه عليه وتقديره له . وهذه الرسالة كما تدل على ان حافظ لم ين لحظة عن الاطلاع والحفظ والكتابة تصور لنا مقدار ما كان يعانيه من آلام ويداخله من هموم فى هذه البلاد وهى طويلة نتخيرٌ منها ما يأتى :

لقد حللتُ فى السودان حلول الكليم فى التابوت، والمغاضب فى جوف الحوت ، بين الضيق والشدة ، والوحشة والوحدة . لا! بل حلول الوزير فى تنور العذاب، والكافر فى موقف الحساب، بين نارين نار القيظ ونار الغيظ

فناديت باسم الشيخ والقيظُ جمرة يذيب دماغَ الضبِّ والعقل ذاهبُ

واستمع اليه وهو يقول من قصيدة بعث بها إلى احد اصدقائه بمصر يتشوق اليها ويصف آلامه وأشجانه :

وما أعذرت حتى كان نعلى دماً ووسادتى وجه التراب
وحتى صيرتنى الشمس عبداً صبيغاً بعد ما دبغت إهابى
وحتى قلم الأملاق ظفرى وحتى حطّم المقدار نابى
متى أنا بالغ يا مصر أرضاً أشم بتربها ريح الملاب ؟!

وسترى بعد أن هذه المرحلة كان لها أثر أى أثر فى انتاجه ولا سيما جانب البؤس والألم منه .

المرحلة الثالثة : وهذه مرحلة النضوج والاثمار بحق فلم يكد يستقيل من عمله ويفلت من قيد وظيفته حتى تجلى نبوغه وبدأ ينتفع بمواهبه ويتفرغ للعمل الذى خلق له . وإذا كان قبل ذلك يختلس أويقات المطالعة ويسترق سويعات النظم والتدوين فانه هنا قد تفرغ للأدب وابتدأ يقرأ الكتب الكبرى وينشد القصائد الغراء فى شتى المناسبات ، وقل أن نجد مسألة هامة أو حادثاً جللاً فى هذا العهد لم يساهم فيه بشعره . وثلاثة أرباع ديوانه أثر من آثار هذا العهد ، على أن هذه المرحلة التى تكون النصف من عمره ليست كلها مرحلة فيض وانتاج بل تنقسم بالنسبة إلى ذلك ثلاثة أقسام :

ا — فترة قوية مخصبة فى جميع النواحى ، وهى تكون الشطر الأعظم من هذه المرحلة

ب — فترة صمت وركود وإجداب ، وهذه هى مدة وجوده فى دار الكتب المصرية .

ج — فترة انطلاق ونهوض وهذه المدة قصيرة المدى لا تكاد تجاوز العام غادر فى أوله دار الكتب وغادر فى آخره عالم الفناء : وشعره فى هذا العام سياسى محض يعاتب فيه الانجليز ويذكرهم بعهودهم التى نكثوها .

الكتب التى قرأها

يقول كثير من الأدباء الذين كتبوا عن حافظ غبّ موته أنه كان معجبا بكتاب الاغانى لأبى الفرج الأصفهانى اعجاباً جعله يقرأه أكثر من مرة ، بل يذهب بعضهم

إلى أبعد من ذلك فيقول إنه لم يقرأ كتابا فى الأدب سواه واعتقد أن هذا الكتاب على الرغم من شهرته وسعته فى بابه لا يُكوّن وحدَه شاعراً كحافظ لأنه شتيت من أخبار معنعنة وأشعار غير مضبوطة ولا مشروحة وتراجم الكثير من الشعراء والكتاب متفرقة لا تجمعها جامعة . وهو فوق ذلك ملىء بالاخطاء المطبعية التى تستنفد الوقت فى ضبطها واصلاحها — ونحن مع اعترافنا بغلاء الكتب فى هذا العهد وقلة تداولها بين الأدباء لا نكاد نسلم بأن اطلاع حافظ كان قاصراً على كتاب واحد أياً كان نوعه .

وأنت إذا قرأت ديوانه بروية وامعان وقرأت إلى جانبه كتابيه « البؤساء » « وسطيح » ووقفت على ما كان يستعمله فى نظمه ونثره من الألفاظ والمعانى التى لم يتعلمها فى مدرسة ولَمْ يتلقنها عن أستاذ — اذا عرفت ذلك وسمعت ما يقوله المعمرون من رجال دار الكتب من أنه كان يقضى كل فراغه بين جدرانها عرفت عن يقين أنه لا بد قد طالع كثيراً من كتب الأدب وقرأ كثيراً من دواون الشعراء القدامى كامرىء القيس وعنترة والنابغة والمحدثين كالمتنبي والبحترى وابى نواس وأبى تمام . وحفظ لكل من هؤلاء أحسن ما قرأ .

والمتأمل فى السطور الآتية من رسالته السابقة إلى الأستاذ الامام :

« وجمعت فى كتابى هذا بين ثقة الزبيدى بالصمصامة ، والحارث بالنَّعامة ، فلم أَقل ما قاله الهزلى لصاحبه ، حين نسى وعده وحمد يده . يا دار عاتكة التى أتغزل بل أناديه نداء الاخيذة فى عمورية شجاع الدولة العباسية »

وقوله فى قصيدة « غادة اليابان » :

وتقحمت الردى فى غارة أسدل النقع عليها هيدبا [١]
جال عزرائيل فى أنحائها تحت ذاك النقع يمشى الهيدبا [٢]

أجل . من يقف على هذا وأمثاله لا يسعه إلا ان يحكم بأن حافظاً كان واسع الالمام بدقائق اللغة ثرياً فى الألفاظ والمعانى محيطاً بكثير من اخبار العرب ومجالسهم حافظاً لشىء كثير من حكمهم وامثالهم . وهل يتيسر لشاعر لم يقرأ قصة اصحاب الكهف ولم يدرس تاريخ ابى نواس ويقف على مثل رأيه فى الخمر حين سئل لم لا يترك الخمر؟

(١) الهيدب : السحاب (٢) الهيدبا : نوع من مشى الخيل

وانت تعلم ما تفعل بشاربها من المهانة والسخرية ! — فقال : ومن لى بعرفان ذلك وأنا أسكر قبل الصحاب ولا افيق إلا بعدهم — وهل يستطيع من لم يعلم شيئاً من ذلك ان يقول فى شعره :

فواصلنا كؤوس الراح حتى بدت للعين أنوار الصريم
واعملنا بها رأى ابن هانى فألحقنا بأصحاب الرقيم

وهل نرجى ممن لم يقرأ شيئاً عن المانوية ومذهبهم وآراءهم فى منع النسل والعمل على تعجيل الفناء ان يقول :

لعل مانِىَ لاقى ما أكابده فودّ تعجيلنا من عالم الشجب

وسأتقدم اليك بأبيات من شعره تستطيع أن تتعرف بها مقدار الكتب التى قرأها ونوع هذه الكتب إن كنت بالادب واسفاره خبيراً .

ويقول حافظ فى مدح الاستاذ الإمام :

طلعت لها باليمن من خير مطلع وكنت لها فى الفوز قدح بن مقبل

ويقول فى وصف كساء رثّ :

نسبوه لطيلسان ابن حرب نسبة لم تكن بذات افتراء

ويقول فى الانجليز وسوء معاملتهم :

لقد كانت الامثال تضرب بيننا بجور سدوم وهو من أظلم البشرْ
فلما بدت للكون آيات ظلمهم إذا بسدوم فى حكومته عمرْ

واذا كان الكلام من الكلام وكان لابد للناظم أو الناثر من ذخيرة كلامية يستنجدها البديهة ويستنديها اليراع ، كانت أبيات الشاعر وفقرات الناثر عنوان تلك الذخيرة .... واذا عرفت أن ابن مقبل الذى فى البيت الاول مقامر جاهلى فاز قدحه ٧٠ مرة متوالية فضرب به المثل فى الفوز — وأنّ طيلسان ابن حرب الذى جاء فى البيت الثانى جلباب قديم بالٍ ، مدح ابن حرب أحد الشعراء فخلعه عليه فنظم فيه هذا الشاعر أبياتاً كثيرة صيرته مثلاً لكل ثوب من نوعه ومن هذه الأبيات :

يا ابنَ حرب كسوتنى طيلسانا ملّ من صحبة الزمان وصدّا
طال ترداده على الرفع حتى لو بعثناه وحده لتهدّى

وأن « سَدُوم » التى وردت فى البيتين الأخيرين اسم قاض كان يضرب به المثل فى القسوة والظلم وكان حاكماً على قرية من قرى لوط الخمس تعرف بهذا الاسم ايضاً وقد غضب الله على اهلها فدمرها عليهم .

اذا عرفت هذا أو أشباهه مما يستحيل ان يحتويه كتاب أو كتابان أيقنت بأن حافظاً لم يسمع بكتاب فى احوال العرب وأخبارهم ، ولم يقع بصره على مؤلف أدبى أيا كان نوعه إلا طالعه وألمَّ بما فيه :

ولقد كان للتاريخ وأطواره من عنايته ما لا يقل عن عنايته بالأدب ونواحيه والتاريخ والأدب اخوان لا يُغنى احدهما عن الآخر إلا بمقدار ما تغنى العين عن الأذن او الأذن عن اللسان عند فاقد احداهما ... وإخالك لا تشكّ فى ذلك إذا سمعته يقول فى فتنة الآستانة :

يا أسيراً فى سنت هيلين رحِّبْ بأسيرٍ فى سالونيك جديدِ

وقوله فى احتفال اقامته الجامعة المصرية :

هنالك الغيد جادت بالذى بخلت به دلالاً فقامت بالذى وجبا

جزّت غدائر شعر سرّحت سفناً واستنقذت وطناً واسترجعت نشبا

رأت حلاها على الاوطان فابتهجت ولم تحسرْ على الحلْى الذى ذهبا

وزادها ذاك حسناً وهى عاطلة تزهى على من مشى للحرب أو ركبا

وقوله موضع ثالث مخاطباً « روزفلت » ومُعرّضاً بالانجليز :

ليت شعرى أكنت تدعو اليهم يوم كانوا على تخوم الثغور

يوم كانوا قذًى بعين نيويو رك وداءً مستحكماً فى الصدور

يوم نادى « واشنجتون » فلبا ه من الغيل كل ليث هصور

والممعن فى شعر حافظ يرى أنه رحمه الله لم يكن يقصر اطلاعه على الأدب العربى فحسب بل تعداه الى الأدب الأوروبى ، فقرأ « ما كبث » لشاعر انجلترا وليم شكسبير وأعجب بها ولخص أروع مواقفها فى قصيدته التى يقول فى مطلعها :

كأنى أرى فى الليل نصلاً مجرّداً يطير بكلتا صفحتيه شرارُ

وإن وصفه لفكتور هوجو الكاتب الفرنسى الذائع الصيت ، ورثاءه لتولستوي الفيلسوف ليدلان على أنه قد درس مذهب كل منهما وتعاليمه ووقف على كثير من حسناته أو ميزاته التى هى عماد الوصف والرثاء . وكان كثير الاعجاب بالأدب الفرنسى على الخصوص، وما كتابه البؤساء بجزءيه ،وما تلك الحكم الشعرية التى ترجمها لروسو ونظمها إلا ثمرة من ثمرات هذا الاعجاب .

وإذا علمت أن حافظاً لم يتعلم تعليماً دينياً ولم يتصل فى صباه بالازهر ولا بأحد فروعه ورأيت كثرة اقتباسه من القرآن واستشهاده بقصصه واستعماله لتراكيبه أيقنت أن المصحف الشريف كان فى مقدمة الكتب التى يقدسها ويدأب على مطالعتها بشوق وشغف . واذا لم يكن ذلك كذلك فقل لى بربك كيف تسنّى له أن يقول فى وصف الشمس مشيراً الى قوله تعالى فى سورة الانعام حكاية عن ابراهيم : « فلما أفلت قال: إنى لا أحب الآفلين » .

نظر (ابراهامُ) فيها نظرة فأرى الشك وما ضلّ اليقينْ
قال : ذا ربى ، فلما أفلتْ قال : إنى لا أحب الآفلينْ

أَو يقول فى وصف الخمر مشيراً الى قوله تعالى فى سورة يوسف حكاية عن فتى كان معه فى السجن: « إنى أَرانى أَعصر خمراً » :

مذ رآها فتى العزيز مناماً وهو فى السجن بين هم ويأسِ
أَعقبته الخلاصَ من بعد ضيق وحبته السعودَ من بعد نحسِ

ويقول فى شكوى الزمان مشيراً الى قوله تعالى فى سورة الصافات « وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ) وقوله فى سورة يوسف (وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ) :

وكم أَزرت بنا الايامُ حتّى فدت بالكبش اسحقَ الذبيحا
وباعت يوسفاً بيعَ الموالى وأَلقت فى يد القومِ المسيحا

ولا أرى كيف فات حافظاً أن الذبيح هو اسماعيل لا اسحاق،وأن المسيح لم يقع فى يد القوم كما زعموا « وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ »

الشعراء الذين تأثر بهم

كان حافظ كما كان أبو تمام كثير المحفوظ من شعر العرب ، ولقد أثر ذلك المحفوظ فى شعره فجاء صورة صادقة لما قرأ وما حفظ . وإنه لمن العبث الواضح والغبن الفاحش أن نقول إنه قد تأثر بشاعر فرد حتى تجلّت فى شعره أخيلة ذلك الشاعر وتشبيهاته وحده وملكته طريقته فى التعبير عما يريد .

وقد يخيل إليك إذا سمعت قوله :

جنيتُ عليكِ يا نفسى وقبلى عليكِ جنى أبى فدعى عتابى !

أنه قد تأثر بالمعرّى حيث يقول :

هـذا جنـاه أبى علىَّ وما جنيتُ على أحدْ

وقد ينمو فى نفسك هذا الظن إذا قرأتَ له قوله فى موضع آخر :

وإلا فإنى قافُ رؤبة لم أزل بقيد النوى حتى تغول الغوائلُ

وعرفت أن المعرى قد سبقه إلى ذلك فقال :

ما لى غدوتُ كقاف رؤبة قيدت فى الدهر لم يقدر له اجراؤها ؟

فهل هو كذلك ؟ ولمَ لا تقول فى قوله :

ليتَ شعرى هل لنا بعـد النوى من سبيلٍ للقى أم لاتَ حينْ !

إنه كان متأثراً ببشار بن برد حيث يقول :

يا ليت شعرى وقد شط المزارُ بهم هل تجمع الدار أم لا نلتقى أبدا ؟

ولم لا يكون حين يقول فى الرثاء :

رحم الله منه لفظاً شـهياً كان أحلى من ردِّ كيدِ الأعادى

متأثراً أو محاكياً للخوارزمى حين يقول فى الغزل :

وكيف ونظرة منها اختلاساً ألذّ من الشماتة بالعدوّ ؟

بل قد يترجح لديك وأنت تقرأ قوله فى تأبين المغفور له مصطفى كامل :

عليكَ ، وإلا ما لذا الحزن شاملاً ؟ وفيكَ ، وإلا ما لذا الشعب باكياً ؟

وقوله فى موضع آخر :

وكنت إذا عمدت لأخذ ثار أسلت البرَّ بالأسدِ الضوارى

أنه قد تأثر فى الأول بقول المعتمد بن عباد :

علىَّ ، وإلا ما بكاء الغمائم ؟ وفىَّ ، وإلا مانواح الحمائم ؟

كما تأثر فى الثانى بقول كثير فى الغزل :

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطىِّ الأباطحُ

الحق أنه قد قرأ لهؤلاء الشعراء جميعاً وحفظ لكل منهم وتأثر به بمقدار ما قرأ أو حفظ من شعره ، والذين يقولون إنه قد تأثر بالمتنبي أكثر من تأثره بأى شاعر آخر إنما ينظرون فى دراستهم الى ناحية خاصة لعلها قدرته وبراعته فى وصف الحروب وميادينها وما يلحق بها ، وهذا النوع من الوصف قد انفرد المتنبي بالإجادة فيه .

ونحن وإن كنا لانستطيع أن نتناسى أن حافظاً وشوقى ومنْ قبلهما البارودى قد أكبّوا على دراسة هذا الشاعر الفذّ واستفادوا جميعاً من شعره واتخذوه استاذاً لهم خصوصاً فى هذه الناحية ـ ناحية الحروب وما يدور فيها من هجوم ودفاع أو هزيمة وانتصار ـ فانه لايصح كذلك أن ننسى ان حافظاً كان ضابطاً يعيش بين الأسلحة والكتائب ويشهد بنفسه المعارك ويسمع بأذنيه قذائف المدافع وصليل السيوف .

وإذا كان شوقى وهو لم يتقلد صارماً ولم يرَ حرباً استطاع بمحض التقليد والاعتماد على الأذن تارة وعلى المخيلة تارة أخرى أن يأتى فى وصف الحروب بهذه المطولات الرائعة ، ولم يمنعه بُعده عن الوغى وعدم خبرته بالقتال ومعاناته أو معاينته له من أن يقول فى حرب الدولة العلية مع اليونان :

كأنّ الوغى نارٌ ، كأن جنودَنا مجوسٌ إذا ما يمموا النار قربوا

كأن الوغى نار ، كأن الردى قرًى كأن وراء النار (حاتمُ) يدأب !

كما يقول فى موضع آخر واصفاً هزيمة اليونان :

على القلل الاجبال ِحيرى جمُوعهم شواخصُ ، ماإنْ تهتدى أين تذهبُ

(١) مجلة ابوللو الاول ص٤٥ .

إذا صعدت فالسيف أبيض خاطف وإن نزلت فالنار حمراء تلهب !

فليس بعجيب أن ينبغ حافظ فى هذه الناحية وهو ابن الحرب الذى اصطلى بنارها وقضى زهرة شبابه بين السيف والمدفع وشاهد بعينيه وسمع بأذنيه وقائعها.

وقد عاصر حافظ صديقه البارودي فى أخريات أيامه وأعجب به وبشعره حتى طلب اليه ان يصدر ديوانه بصورة أو حكمة تعرفه الى القراء فتمثل بهذين البيتين من شعره :

انا ابن قولى وحسبي فى الفخار به وإن غدوت كريم العم والخال

فانظر لشعرى تجد نفسى مصورة فيه ، فمن مقولى قد خط تمثالى

وبينا تراه يترفع عن تقليد غيره من شعراء عصره تراه كثير الميل الى محاكاة البارودى والاستفادة من شعره والاعتراف له بالفضل والنبوغ .

وإنك لترى هذه الصلة الغالية صلة التلميذ بأستاذه أو الولد بأبيه ماثلة فيما نظمه فى مدحه أو رثائه من قصائد . واستمع اليه حين يمدحه فيقول من قصيدة طويلة :

ولو أننى نافرت دهرى وأهله بفخرك ما أبقيت فى الناس سيدا

ولو لم يمدح البارودى بغير هذا البيت الخالد لكفاه فخراً وشرفاً .

نظرات فى شعره

لا أستطيع فى هذه الصفحات القليلة أن أستعرض مواضع الجمال فى شعر حافظ أو أنقد ما فيه من هنات ، ولا أدعى أنى درسته دراسة تمكننى من ذلك ، ولكنى سأمر مسرعاً على بعض المواضع التى تسترعى نظر كل مطلع على شعر .

وسأقصد فى هذه النظرة الخاطفة الى بيان ميزاته التى لابد لكل متصدر لدراسته من أن يقدرها فيقف عندها ويتبينها . وسترى أولاً أنه رحمه الله كان يتخذ من مدائح العظماء ورثاء موتاهم لبنات لبناء عظمته وشهرته ، شأن الشاعر الناشىء الذى يريد أن يتعرف إلى الناس ويشعرهم بوجوده وهو بعد فتى بائس قليل الألسنة والآذان . ولهذا جاء قرابة النصف من شعره مديحاً ورثاء . وأكثر الذين اختصهم بذلك بعد الأسرة العلوية هو الاستاذ الامام ثم الاسرة الأباظية

بمديرية الشرقية .

ولمديح حافظ ورثائه صفة خاصة هى مزجه دائماً بالشكوى وإبداعه ما يعانيه من ضنك وضيق . وقلّ أن يترك مدحةً أو مرثية من غير أن يصدرها أو يطويها على حاجته . واستمع اليه حين يصدر مدحةً للخديوى فى عيد رأس السنة بهذين البيتين :

عسى ذلك العامُ الجديدُ يسرنى ببشرى ، وهل للبائسين بشيرُ ؟
وينظر لى ربُّ الأريكة نظرةً بها ينجلى ليلُ الأسى ويُنيرُ

وإذا أفلتَ من حاجته الوسط والبداية ذيلها بها فى النهاية ، وهل ترى دليلا على ذلك أوضح من أن تراه يختتم مدحةً رفعها الى الاستاذ الامام بهذ البيت :

يا مَن تيمنتْ الفتيا بطلعتهِ أدركْ فتاكَ فقد ضاقتْ به الحالُ

ويذيل مدحة أخرى بهذين البيتين :

وقد أضحيتُ من كدحى وسعيي على الأرزاقِ كالثوب الرديمِ
فلا تخلق ـ فُديتَ ـ أديمَ وجهى ولا تقطعْ مواصلةَ الحميمِ

وثانياً تجد لشعر حافظ ما يسمى فى علم البديع ببراعة الاستهلال ، إذْ له مطالع رائعة كل مطلع كأنه عنوان سارع الى الآذان ليستأنس لما وراءه أو اجمال لغرض يفصله ما يليه من ابيات ، وإن شئت شاهداً على ذلك فاستمع إلى قوله فى مستهل السنة الهجرية :

أطلَّ على الأكوان والخلق تنظر هلال رآه المسلمون فكبروا

أو تأمل قصيدته فى « البورصة » :

ببابك النحسُ والسعودْ وموقفُ اليأسِ والرجاءْ

وكذلك كان فى مراثيه يستفتح القصيدة ببيت لو اقتصر عليه ولم يتبعه بغيره لاستشفَّ القارىء والسامع من خلاله وحده غرضه والمعرض الذى قيل فيه ـ ألست تجد ما يؤيد ذلك فى استهلاله مرثية المرحوم امين الرافعى بهذا البيت :

أمّا (أمين) فقد ذقنا لمصرعه وخطبهِ من صنوفِ الحزنِ ألوانا

وتصديره مرثية المغفور له (رياض باشا) بذلك البيت :

(رياضُ) أفِقْ من غمرة الموت واستمعْ حديثَ الورى عن طيب ما كنتَ تصنعُ

ولهذين المطلعين روعة وتأثير في النفس لا تحسه في مطالعِ غيره ممن اشركوا في تأبين هذين الفقيدين .

وبينا ترى شوقي يريد ان يهنىء الخديوى فيمهد لذلك بما ينيف على العشرين بيتاً في الغزل أو الوصف — ترى شاعرنا يبتدىء قصيدته في الموضوع عينه بهذا البيت الرائع الذى يجمع الى جمال اللفظ وحسن اختياره شرف المعنى واتِّساقه :

مُنًى نلتَـها يا لابسَ المجد مُعلما أديناً ودُنيا ؟ زادك لك أنعما !

وثالثاً حسن التخلص ، ولا تحسبن حافظاً كان في كل شعره كذلك يتماشى ، ويعمد الى غرضه من اول الأمر دون أن يمهد له بوصف أو نسيب ، فان له مطولات ليست بالقليلة يتطرق فيها الى مقصده بأبيات كثيرة في وصف الخمر حيناً وفي شكوى الزمن أحياناً ، بيد أنه كان صناعاً ماهراً في التخلص إلى غرضه والانتقال إلى مقصده .

وها هو ذا بعد أن يذكر أكثر من ٢٠ بيتاً في مناجاة نفسه والشكوى من تهاون المصريين وسوء حالهم يتخلص الى مدح السلطان حسين (وكان إذ ذاك أميراً) بهذه الأبيات :

وانا قد ونينا وانقسمنا فلا سعىٌ هناك ولا وئام

فلا عجبٌ إذا ملكت علينا مذاهبنا وأكثرنا نيام

(حسين ! حسين !) أنت لها ! فنبه رجالا عن طلاب الحق ناموا !

وكن بأبيك لابن أخيك عوناً فأنت بكفه نعم الحسام

وله أبيات يتخلص بها من غرض الى غرض وينتقل من معنى الى غيره كأنها حلقات أفرغت على مثال يلائم كلا الغرضين السابق منهما واللاحق — كتب مرة الى صديق له يمدحه ويشتاق إلى لقائه فبدأ كعادته بالحنين الى مصر وأهلها ، ولم أكد أصل في قراءة تلك القصيدة الى هذين البيتين :

لا مصر تنصفنى ولا أنا عن محبته أريمْ

واذا تحوّل بائسٌ عن حبها فأنا المقيمْ

حتى أشفقتُ عليه من العجز عن الوصول الى ما كان يريد ، وإذا به بعد ذلك يتخلص الى مدح صاحبه بهذا البيت الذى لا يشعرك بمغايرة ولا انتقال :

فيها صحبتكَ واصطفيـ تكَ أيها الخلُ الحميمْ

وإنْ تعجبْ فعجبٌ أن تقرأ له فى الغزل ودل الحبيب وجفائه ، ومرضه هو وإدنافه من جراء هجره وصده ، زهاء الثلاثين بيتاً حتى يخيل اليك ان القصيدة قد فنيت فى هذا الغرض، وأن الشاعر قد تعثر فى استرساله حتى استعصى عليه الانتقال ، ثم تراه بعد ذلك يخرج من كل ما رأيت ويتصل بغرضه الذى قصده على الصورة الآتية:

وأتت تعود مريضها لا بل أتت منى تشيع راحلاً لو تعلم

أقسمت بالعباس انِّى صادق فمُريهمو بجلاله أن يقسموا

ملك عدوتُ على الزمان بحوله وغدوتُ فى آلائه أتنعم

وسترى أنه يغالط نفسه ويخالف الحق فى بيته الأخير .

ورابعاً غلبة الروح الوطنى وحب مصر ونيلها على شعره ، وأنا أعتقد أن وطنيات شوقى والبارودى على قلتها وطنيات جوفاء : تسمع رنينها عن بعد فتهتز وتطرب ، فاذا دنوت منها وجدتها فارغة لاتبل صدى ولا تشفى أواماً – ومهما بالغتَ فى وصفها وإطرائها فانك لن تستطيع أن تقول فيها أكثر من أنها ساحرة رقيقة الأسلوب موجزة إلى حد يجعلها شبيهة بالحكم والأمثال .

أما وطنية حافظ فانها فضلا عن تغلغلها فى معظم قصائده وطنية حقيقية،تدل من أول نظرة على أن صاحبها يحس باحساس الشعب ويترجم لنا عبراته وخفقات فؤاده . ولهذا تراه قد استعرض فى شعره مواضع ضعفه ومواطن آلامه ووقف من أمته موقف الطبيب يتعرف الداء ويصف له ناجع الدواء .

وكيف ينتظر من البارودى رئيس الوزارة أو من شوقى شاعر الخديوى وصَفِيّــه وهما يتقلبان فى رفاهة العيش ونعيمه ولم يعرفا للبؤس معنى ولا طرق لهما الاعسار يوماً باباً ، كيف ينتظر من مثلهما أن يؤلمه إملاق معاصريه وبؤسهم فيبكى . وهل إذا بكيا تساوت دموعهما ودموع أخيهما الذى اندسّ فى غمار الشعب وحمل من مصائبه بمقدار ؟ وهيهات :

أن يعرف الشوقَ إلا مَنْ يكابدُه ولا الصبابةَ إلا مَنْ يعانيها

وكان حافظ طوراً يستنهض المصرى ويستحفزه ويذكره بمجد آبائه وتراث أجداده فيقول :

لعمركَ ما أُرقتُ لغير مصرٍ — وما لى دونَها أملٌ يُرام
ذكرتُ جلالها أيامَ كانت — يصول بها الفراعنة العظام
وأيامَ الرجالُ بهـا رجالٌ — وأيامَ الزمانُ لها غلام
فأقلق مضجعى ما بات فيها — وبات مصرُ فيه، فهل أُلام؟
أرى شعباً بمدرجة العوادى — تمخَّخ عظمَه داءٌ عقام
فساءَ مقامُه فى أرض مصر — وطاب لغيره فيه المقام

وطوراً يذكره بعيوبه ويشرح له وسائل رقى الشعوب وعوامل نهوض الأمم فيقول:

عارٌ على ابن النيل سباقُ الورى — مهما تقلب دهرُه أن يُسبقا
أوَكلما قالوا تجمع شملهُم — لعب الشقاقُ بجمعنا فتفرقا؟!
فتعلموا، فالعلم مفتاحُ العلى — لم يُبق باباً للسعادة مغلقا
ثم استمدُّوا منه كل قواكم — إن القوىَّ بكل أرض يتقى
وابنوا حوالى حوضكم من يقظةٍ — سوراً، وخطوا من حذارٍ خندقا
وزِنوا الكلامَ وسدّدوه فانهم — خبؤوا لكم فى كل حرفٍ مزلَقا

وبينما كان شوقى شاعر عباس وابن نعمته يتلمس مواضع رضاه فيرويها بقريضه ويحاذر أن يُرى شاذاً عن رغبات سيده يوماً ما، كان حافظ ابن الشعب وشاعره حراً فى آرائه مطلقاً فى تفكيره، لا يتقيد برأى أمير ولا وزير — ولهذا جاء شعره فى السياسة أعمق أثراً وأشد جرأة وصراحة — وإن شئت فقل جاء لساناً صادقاً عن مصر وما تحسُّه من عنت المحتلِّ وعدوانه. ولعل أول صوت ارتفع فى الفخر بمصر والمطالبة بحقوقها والتعرض لمثالب المحتلين وظلمهم ونقد أعمالهم كان صوت حافظ. وهل استطاع غيره أن يقول للمحكمين فى (دنشواى) منددّاً بجورهم وقسوتهم:

أحسنوا القتلَ إن ضننتم بعفوٍ — أنفوساً أصبتمو أم جمادَا
ليت شعرى أتلك محكمة التفتيش عادت أم عهد نيرون عادَا؟!
كيف يَحْلُو من القوىِّ التشفى — من ضعيف ألقى اليهِ القيادَا

وأن يعرض فيها برجل كان ولا يزال من أشهر رجال المحاماة فى مصر فيقول :

لا جرى النيلُ فى نواحيكِ يا مصـــرُ ولا جادكِ الحيا حيث جادا
أنت أنبت ناعقاً قام بالأمـــس فأدمى القلوب والأكبادا
ايهِ يا مدرهَ القضاء ويا من ساد فى غفلة الزمان وشادا
أنت جلادنا فلا تنس أنا قد لبسنا على يديك الحدادا

وهل سمعت أن شاعراً استطاع أن يودع (كرومر) بمثل هذه اللطمات الدامية :

الى من نشتكى عنتَ الليالى الى العباس أم عبد الحميد ؟
ودون حماها قامت رجالٌ تروّعنا باصناف الوعيد
رمانا صاحب التقرير ظلماً بكفران العوارف والجحود
وأقسم لا يجيب لنا نداءً ولو جئنا بقرآن مجيد
وانبت فى النفوس لكم جفاءً تعهده بمنهلّ الصدود
رمى دار المعارف بالرزايا وجاء بكل جبار عنيد

وهل اجترأ مجترىء على أن يبسط له عيوب عهده فى مصر كما بسطها حافظ فى قصيدة أخرى حيث قال :

نناديك قد أزريت بالعلم والحجا ولم تبق للتعليم يا لوردُ معهدا
وانك أخصبت البلاد تعمداً وأجدبت فى مصر العقول تعمدا
ووافيت والقطران فى ظل راية فما زلت بالسودان حتى تمردا
فطاح كما طاحت مصوّعُ بعده وضاعت مساعينا بأطماعكم سُدى
حجبتَ ضياء الصحف عن ظلماته ولم تستقل حتى حجبت (المؤيدا)
وأودعت تقرير الوداع مغامزاً رأينا جفاء الطبع فيها مجسدا
غمزت بها دين النبى وإننا لنغضب ان أغضبت فى القبر (احمدا)

وخامساً كثرة التضمين والاقتباس ، ولا يتيسر ذلك الا لثرىّ فى الادب واسع الاطلاع ، ومن أمثلة ذلك فى شعره قوله فى رثاء البارودى :

وأربو على ذلك الفخور بقوله : (اذا قلت قولا أصبح الدهر منشدا)

وقوله فى المدح (يريد البدع فى الابيات السابقة) :

وباتوا عليها جاثمين كأنهم (على صنم فى الجاهلية عُكّفُ)

ومن ذلك أيضاً تضمينه أبياتاً كاملة لغيره من الشعراء كما فى قوله مضمناً بيت أبي تمّام :

ألّفتُ بين ابن السحاب وبينها فرأيتُ صحةَ ما حكاه الطائى :
(صعبتْ وراض المزجُ سيء خلقها فتعلمت من حسن خُلق الماء)

وقوله فى عيد الدستور العثمانى مضمناً بيت بشار :

روت قول بشار فثارت وأقسمت وقامت الى عبد الحميد تعاتبه
(اذا الملك الجبار صعر خده مشينا اليه بالسيوف نعاتبه)

وأنت ترى أنه لم يضمن قصيدته بيتاً الا وقرنه باسم صاحبه ، وهذه دقة وأمانة نحملها له .

وفى التضمين هنا من البراعة والجمال ما لا يقل عن مثلهما فى قول البارودى مضمناً شطر أبى نواس :

ولو كنتُ فى عهد النواسىّ لم يقل: أجارةَ بيتينا أبوك غيورُ

ولا عن قول صفى الدين من قبله مضمناً شطر المتنبي :

أشرقن فى حُلل كأنّ أديمها شفق تدرعه الشموس جلابيا
وغربن فى كلل فقلت لصاحبي (بأبى الشموس الجانحات غواربا)

وقد قدمنا لك فى غير هذا الموضع انه كان دائباً على تفهم القرآن وحفظه ، وقد أثر هذا المفهوم والمحفوظ فى شعره كظهور اللآلىء فى التاج أو الماسة بين لوامع الاصداف إذْ زاده روعة وجمالا . وما إخال القراء فى حاجة الى بيان منزلة القرآن واسلوبه من الأدب العربي — وفى شعره من ذلك مثلٌ شتى أسلفنا لك جانباً منها وها نحن اولاء نعود فنقدم لك جانباً آخر .

قال رحمه الله يمدح سليمان باشا أباظه مشيراً الى قوله تعالى فى سورة النمل (قالت نملة : يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم ليحطمنكم سليمان وجنوده) :

سليمان ذكَّرتَ الزمان واهله بعزِّ سليمانٍ واقبال دنياه
اذا سرت يوماً حذر النملُ بعضه مخافة جيش من مواليكَ يغشاه

وقال فى مدح الاستاذ الامام مشيراً الى قصة موسى والخضر عليهما السلام (سورة الكهف) :

وكنتَ كما كان ابن عمران ناشئاً وكان كمن فى سورة الكهف يذكر

وقال من رسالة بعث بها الى رفعت بك وكيل مصلحة السجون سابقاً مشيراً الى قوله تعالى حكاية عن يوسف (اذكرنى عند ربك) :

ولو كُنْتَ فى عهد ابن عمران لم يقل لصاحبه اذكرنى ولا تنسَ . . . .

بل لقد كان يضمن أبياته الآية أو بعضها من غير تغيير كقوله :

« قتل الانسان ما اكفره » طاول الخلاقَ فى الكون وساما

وقوله فى وصف الشمس مضمناً قوله تعالى حكاية عن ابراهيم (قال هذا ربى فلما أفلت قال لا أُحب الآفلين — سورة الانعام) :

قال : ذا ربى فلما أَفلت قال : إنى لا أُحب الآفلينْ !

وسادساً الالماع الى الحوادث التاريخيــة والأخبار الأدبية والمذاهب الفلسفية . فمن الأول قوله فى الأمير عبد الله صاحب الجزائر :

ذكرتنا يوم ضاعت أرضُ أندلسٍ الحربُ بالباب والسلطانُ فى اللعبِ

وقوله حرب فى طرابلس :

أيها الحائر فى البحر اقتربْ من حمى البسفور إن كنت هماما
عام شهرين ولم يفتح سوى هوة فيها الملايين ترامى

ومن الثانى قوله فى تهنئة الخديوى بالحج :

ولما استلمتَ الركنَ هاجت شجونهُ فلو أنه اسطاع الكلام تكلما
تذكر زينَ العابدين وجدَّه وما كان من قول الفرزدق فيهما

مشيراً بذلك الى ما كان من أمر الرشيد حينما رأى سيدنا على زين العابدين

وهو يطوف بالبيت فتجاهله وتساءل عنه فأجابه الفرزدق بهذه القصيدة الخالدة التي يقول في مطلعها :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيتُ يعرفه والحلُّ والحرمُ

ومن الثالث قوله :

فيا ليل أنزلني بجوفك منزلا يضل به سربُ القطا ويحارُ

وان كنت ليل المانوية فليكن على سر أهل الشر منك ستارُ

مشيراً بذلك إلى مذهب ماني الذي يقول بأن الليل موطن المصائب والشرور ، وقد سبقه الى ذلك المتنبي حيث قال :

وكم لظلام الليل عندي من يدٍ تخبر أن المانوية تكذبُ

وقوله في موضع آخر :

أصبحتُ كالدهريِّ أعبد خدَّه وجبينه وأنا الشريفُ المعرقُ

مشيراً بذلك الى الدهريين ومذهبهم الذي لخصه القرآن الكريم في قوله حكاية عنهم : (إن هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر)

مظاهر البؤس في شعره

قدمنا لك أن البؤس من أظهر النزعات الغالبة على شعر حافظ ، وهيهات أن تجد أنمّ عن نفس صاحبه من شعره . وانك لتقرأ ديوانه فيخيل اليك أنه ذوب نفس أبية عاشت تتطلع الى المجد وفيها معداته وماتت دون أن تنال منه أكثر مما ينال الظامىء من لامع السراب. ولا تشك في أن صاحب هذا الديوان قد اصطلى في طفولته واكتوى في شبابه بنار البؤس الذي تعرف اليه في مهده ولم يتركه حتى استقر في لحده وهو بعد شاعر رقيق العاطفة دقيق الاحساس . فكان طبيعيا أن يجيء وشعره صورة لهذه النفس المعذبة ومرآة لهذا الفؤاد الواجب الذي طالما خاطبه بقوله :

يا خافقا قل لي متى تسكنُ ؟ لله ما تخفي وما تُعلنُ !

وما الذى أبقاه من مهجتى ومن فؤادى داؤك المزمنُ ؟

وسأعرض عليك طرفاً من أبياته ترى البؤس ماثلاً فيها يحدثك عن خبيئة الشاعر ويكشف لك من أمره مالم تكشفه لك الابصار .

يقول من رسالة بعث بها الى صديقه البابلى :

كيف تنسى يا بابلىُّ غريباً بات بين الظنون والأوهام

وحزيناً إذا تنفس عادت لحمةُ الليل جمرةً من ضرام

واذا أنَّ كاد ينصرع الافـ قُ وتختلُّ دورة الأجرام

بات تحت البلاء حتى تمنى لو يكون المبيت تحت الرغام

ويقول فى موضع آخر نادباً حظه وسوء حاله وعقوق الدهر له ولعبقريته:

عقنى الدهر ، ولولا أننى أوثر الحسنى عققتُ الأدبا

إيهِ يا دنيا اعبسى أو فابسمى لا أرى برقك إلا خُلَّبا !

وإخالك لا تعجب بعد ذلك إذا رأيت حافظاً يصبغ بالشكوى والأنين جوانب شعره فنرى بؤسه فى الوصف والغزل كما تراه فى المديح والرثاء . وها هو ذا يمدح محمد بك بيرم فيقول له فى ثنايا القصيدة :

وقد أصبحتُ من تعبى وكدحى على الأرزاق كالثوبِ الرديمِ

وانه ليخيل اليك أن البؤس قد طغى على احساس حافظ وسيطر على عواطفه حين تراه يستهل قصيدته فى عيد رأس السنة بهذا البيت :

لى فيكَ حين بدا سناكَ وأشرقا أملٌ سألتُ الله أن يتحققا

وكانت لحافظ نفس قلقة ثائرة مضطربة كما وصفها هو فى كتابه (البؤساء) لاتكاد تستقر على حال : فمرة ترسب في حضيض الألم راضية بقسمها، قانعة بنصيبها من هذه الحياة الفانية، وهو يصور لك حالها إذ ذاك بقوله :

نحن نرضى بالقوت من هذه الدنيا وإن بات دونَ قوتِ النعام

ولئن خان قسمُنا ما شكونا لسوى الله أعدلِ القُسّام

ومرةً تطفو الى سماء الرفعة وتتماسك مطوية على الألم موهمة الناس أنها أسعدهم حالا . والبيتان الآتيان يصورانها لك فى هذه الصورة :

تماسكتُ حتى لو رأى الناس حالتى رأوا رجلاً هانت عليـه مصائبهْ

وعلمتُ نفسى كظم غيظى فلم أبح بمـا فعلت بين الضلوع قواضبهْ

كما يمثلها فى مطاردتها لليأس واستهانتها بالصعاب قوله :

على أننى لا أركـب الصعبَ مرةً ولا أكبر البأساء حـين تغـيرُ

وأحيانا يسأم الدنيا ومَنْ عليها فيودعها ويناجى القبر والآخرة نجوى العاشق المشتاق فيقول :

سلامٌ على الدنيا سلامَ مودِّعٍ رأى فى ظلام القبر أنساً ومغنما

أضرَّتْ به الأولى فهام بأختها فان ساءت الأخرى فويلاه منهما

فهبِّى رياحَ الموت نـكباء واطفئى سراجَ حياتى قبـل أن يتحطّما

ولعلك تسألنى بعـد ذلك : من أى شيء كان يشكو حافظ وما موضع آلامـه وأشجانه ؟ . . . وجوابنا عن ذلك أنه كان يشكو من شعبه النائم عن حقوقه الساكت على آلامه ، يرى الخطر يتهدده وأسباب الفناء تحوطه ، ثم يلهو ويلعب ويفخر بالماضين وما خلفوه ، فيخاطبه مرة بقوله :

وكم ذا بمصر من المضحكا ت كما قال فيها (أبو الطيب)

أمورٌ تَمُرُّ وعيشٌ يمرٌّ ونحن من اللهو فى ملعب

وشعبٌ يفرّ من الصالحا ت فرارَ السليم من الأجرب

ويعجب منهم ويبكتهم على جهلهم وتأخرهم مرة أخرى فيقول :

وقـل للعـاجزين أما لهذا الفخر من سبب ؟

أرونى نصفَ مخترعٍ أرونى ربعَ محتسب

فهبُّوا من مراقدكم فإن الوقت من ذهب

ويشكو كذلك من نفسه الكبيرة التى بين جنبيه

وإذا كانت النفوس كباراً تعبتْ فى مرادها الأجسام

فلا هى قادرة على إصلاح ما ترى ، ولا هى قادرة على احتماله ، ولا هى راضية بالعجز بين هاتين الحالتين .

ألست ترى ذلك واضحاً فى قوله (يريد المصريين) :

يناموں تحت الظلم والأرضُ رحبةٌ لمن بات يأبى جانبَ الظلم جانبُهْ
فياليت لى وجدان قومى فأرتضى حياتى ولا أشقى بما أنا طالبُهْ

وأخيراً يشكو من عثار حظه فى وطنه وخيبة آماله فى قومه وضياع أدبه بين عشيرته واخوانه فيقول مخاطباً مصر فى نغمة البائس الحزين :

حطمتُ اليراعَ فلا تعجبي وعفتُ البيان فلا تعتبي
فما أنتِ يا مصر دارَ الأديب وما أنت بالبلد الطيِّب
فلا تعذلينى لهذا السكوت فقد ضاق بى منك ما ضاق بى

وهو لا يتردد فى أن يصارحنا بأن هذا الأخير هو مصدر حزنه وسر شقائه فيقول :

أنا لولا أن لى من أمتى خاذلا ما بتُّ أشكو النُّوَبا

بيد أنه كان كثيراً ما يستكثر من نفسه هذه الشكوى ويستنكرها عليها ويبرأ ويعتذر عما فرط منها ، وفى ذلك يقول :

وما شرعتْ هذا اليراعَ أناملى بشكوى ولكنّ اللجاج يثيرُ

أسباب بؤسه

يجدر بنا بعد كل ما أسلفناه أن نبين لك أسباب بؤس حافظ وأن نتعرف مر هذه الحسرة التى لازمته طوال حياته والتى طالما قال فيها :

حسرةٌ فى النفس لو قسمت على ذوات الطوق لم تسجعِ

وكان لزاماً علينا ان نتتبع الظروف والأحوال التى انتحت بشاعرنا هذه الناحية وحولت عاطفته الى هذا الطريق . ونحن نرى ان بؤس حافظ وان كانت جرثومته الأولى قد وُلدت معه يوم ولد ، وصاحبته فى نموه وتدرجه فى طريق الحياة ، نرى مع ذلك ان البيئة التى احتوته والوسط الذى عاش فيه يكوّنان الجانب الأكبر من هذا البؤس الذى ترجع اسبابه الى اربع جهات :

(١) نشأته الاولى بين احضان المتربة والفاقة ومخادنة العناء والشقاء له وهو صبى فى

وددت لو طرحوا بى يوم جئتهم   فى مسبح الحوت أو فى مسرح العطب

ورجل طلع الى المجد كحافظ حرىٌّ به ان يحزن ويكتئب اذا رأى نفسه بين قوم يقومون الناس بما يملكون ولا يعرفون للمجد سلماً سوى المال ، وألفى نفسه مع ذلك مفتقدا لهذا السلم . وليس لهذا السبب اثر بين فى شعره اللهم الا ما كان ايماء او تلميحاً كما فى قوله :

فما أنا مطلقٌ كالفكر أسرِى   فأستبقُ الضواحك فى الغيوم

ولكنى مقيَّدةٌ رحالى   بقيد العُدم فى وادى الهموم

مما يدلنا على ان الامر لو اقتصر عليه وحده لكان فى ذكاء حافظ وعبقريته ما يمحو أثره من صفحة حياته . وكم من معدمين فى طفولتهم بَسَمَ لهم الدهر بعد فكانوا من أسعد الناس حظاً وأرفعهم مكاناً .

(٢) خذلان قومه له وكساد شعره بينهم وعدم احساسهم به وتقديرهم له ولإنتاجه ، والشاعر كالزهرة يحييه التشجيع والثناء ويميته الإهمال و الازراء .

وأى اهمال أشق على النفس من أن يمرض فلا يعاد وينأى عن العيون فلا تشعر بنأيه ، وفى ذلك يقول :

مرضنا فما عادنا عائدٌ   ولا قِيل أين الفتى الألمعى؟

ولا حنَّ طرسٌ الى كاتب   ولا خف لفظ على مسمعى

سكتنا فعزَّ علينا السكو   ت وهان الكلامُ على المدَّعى !

ولكم كان قاسياً على نفس حافظ أن يعيش فى بلد لا يعرف الفضل لذويه ، ولطالما خاطب مصر بهذا البيت من شعره :

ليتَ مصراً كغيرها تعرف الفضـ   ـلَ لذى الفضلِ من ذوى الالبابِ

ولقد تسمع قوله فى رثاء الأستاذ الامام :

فيا منزلاً فى عين شمس أظلنى   وأرغم حُسَّادى وغمَّ عُداتى

فتعلم أنه رغم بؤسه ووحشته كان كثير الحساد والأعداء — ولهذا كان دائماً متبرماً بالحياة ساخطاً على أهلها ، وكلما نظر إلى أدبه الرائع الذى وأدوه بينهم بجهلهم وإهمالهم ازداد حسرة وألماً وردد هذا البيت المشهور من شعره :

فلولا أنهم وأدوا بيانى بلغتُ بك المُنَى وشفيتُ ما بى

وكان كلما لمع له فى سماء الامل بارق وقامت تنتعش على ضوئه نفسه العالية المزدحمة بالآمال والآلام ، وقفت المقادير بينه وبين ما يريد ، وجذبه عثار الحظ ونكد الطالع فأقصاه عن آماله ، وفى ذلك يقول :

لكننى غير مجدود وما فتئت يدُ المقادير تقصينى عن الأرب

وقد غدوتُ وآمالى مطرّحة وفى أمورىَ ما للضبّ فى الذنب

(٣) غربته فى السودان وبُعده عن أهله وأصحابه بمصر وإرغامه وهو الأبى على العيش فى ارض نائية يشتكى من حرها وعذابها مايشتكيه من معاشريه ومن رؤسائه وعنتهم وعدم تقديرهم لمواهبه . ولعل أوضح صورة لما كان يعانيه شاعرنا فى غربته هى التى اشتملت عليها هذه الأبيات الثلاثة :

نزحتُ عن الديار أروم رزقى وأضربُ فى المهامه والتخوم

وما غادرتُ فى السودان قفراً ولم أصبغ بتربته أديمى

وها أنا بين أنياب المنايا وتحت براثن الخطبِ الجسيم !

بيد أن هذه المرحلة من عمره كما قدمنا فى غير هذا الموضع هى أخصب حياته بهذا النوع من الشعر ، ولا عجب فان له فى هذا الباب رسائل خالدة وقصائد رائعة جرت مع النيل الى مصر تحمل الى أصدقائه وأخلائه بها ما يعانيه صاحبهم فى هذا البلد النازح من الأسى والعذاب .

(٤) إخفاقه فى الوصول الى الخديوى ، وما كان لنفس مهما منحها الله من الصبر أن تحتمل أكثر من عشرين عاماً ترسل فيها المدحة تلو المدحة ولا تدع فرصة تمر دون أن تتقدم اليه فيها بمنظومة بديعة . ولا تزال هذه القصائد الغراء حلية ديوانه الى اليوم .

ومع ذلك فانه لم ينل من نفس عباس اكثر مما ينال الحديث من نفس سامعه . وبينما كان شوقى يتسابق الذهب والفضة فى المثول بين يديه ، ويعيش بشعره بين عطف المليك وعنايته ، ويتقلب بفضله بين احضان الترف والنعيم ، كان حافظ يصطلى بنار العدم والمسغبة مع ضعف البون ما بين الشاعرين .

واذا كان شوقى يقول فى عيد مولاه :

مولاىَ عيدك عيد الناس كلهم ... وأنت جامعة الاجناس والملل

ان الملوك على الكرسىّ مربعها ... وانت تجلس فى الاسماع والمقل

فما قصَّر شاعرنا يوم قال فى نفس العيد :

طُفْ بالأريكة ذات العز والشان ... واقض المناسك عن قاص وعن دان

يا عيد ليت الذى أولاك نعمته ... بقرب صاحب مصر كان أولانى

صغتُ القريض فما غادرت لؤلؤة ... فى تاج كسرى ولا فى عقد بوران

وفيها يقول :

اليومَ أنشدهم شعراً يعيد لهم ... عهد النواسىّ أو أيامَ حسان

أزفّ فيه الى العباس غانية ... عفيفة الخدر من آيات عدنان

أعليتَ بالعدل مُلكاً أنت حارسه ... فأصبحتْ أرضه تُشرى بميزان

جرى بها الخصبُ حتى أنبتت ذهباً ... فليت لى فى ثراها (نصف فدان) !

وما أجمل هذا البيت وما أخف دعابته على النفس لولا ما فيه من ايماء خفى الى فقر الشاعر وحرمانه .

بل ما نظن شوقى قد استطاع مهما أجاد فى مدح مولاه ان يزيد على ما قاله حافظ فى تهنئته بالحج :

مشت كعبةُ الدنيا إلى كعبة الهدى ... يفيض جلالُ الملك والدين منهما

ولو أننى خُيِّرت لاخترت أن أرى ... لعيسك وحدى حادياً مترنما

حللتَ بأكناف الجزيرة عابراً ... فأنضرتَ واديها وكنت لها سما

وأشرقتَ فى بطحاء مكة زائراً ... فبات عليك النيلُ يحسد زمزما

وكانت تلجُ هذه المدائح التى فنى فيها صاحبها أذنَ الخديوى وتخرج من الثانية من غير أن تصل إلى فؤاده !

لهذا كان طبيعياً أن يزداد ألم حافظ وبؤسه، وأن يداخله من الهموم والحسرات ما يداخل صاحب السلعة الجيدة إذا صدف عنها الراغبون.

ويخيل الىّ أن حافظاً مع ما كان متمتعاً به من عطف كثير من عظماء مصر كالمرحوم

حشمت باشا والاستاذ الإمام فانه كان ينظر الى المليك بعين خاصة ويرى أن رضاه منتهى الآمال وفى عطفه وولائه تمام السعادة — فكان يحاول الوصول اليه عن طريق شعره، ويطرد اليأس عن نفسه، معتقداً بأنه لابد واصل الى ما يريد مادام له فم ناطق ولممدوحه أذن سامعة. وكان حيناً يفخر بمدائحه ويدعى أنه أتى فيها بما يعجز عن الاتيان به سواه فيقول:

كم رام شأوى فلم يدرك سوى صدف ساحت فيه لنظام ووزان
عابوا سكوتى، ولولاه لما نطقوا ولا جرت خيلهم شوطاً بميدان
واليومَ أُنشدهم شعراً يعيد لهم عهد النواسىّ أو أيامَ حسان

ويقول فى موضع آخر:

ولو شئتُ أذهلتُ النجوم عن الثرى وعطّلتُ أفلاكاً بهن تدور
وأشعلتُ جلدَ الليل منى بزفرة غرامية منها الشرارُ يطير!

وأحياناً يعترف بالسبق لشوقى فى مدح مولاه ويقر له بالفضل والابداع فيقول:

لم أخشَ من أحد فى الشعر يسبقنى الا فتى ما له فى السبق الاه
ذاك الذى حكمت فينا يراعتُه وأكرم اللهُ والعباسُ مثواه

وكأنى به وقد ثبت فى روعه أن شوقى قد احتل بشعره من نفس سيده مكاناً لا يسمح لشاعر آخر أن ينازعه فيه، فطفق يستندى رضاه ويختلس عطفه بايهامه أن مدائحه كمدائح صاحبه فى لفظها ومعناها ليستلفت نظره ويسترعى انتباهه، وفى ذلك يقول:

الى سُدّةِ العباس وجهتُ مدحتى بتهنئةٍ شوقيةِ النسجِ معطارِ

كما يقول فى موضع آخر:

معانٍ وألفاظٌ كما شاء أحمدٌ طوتْ جزلَ بشارٍ ورقة مهيارِ

وكثيراً ما كان يغلب عليه اليأسُ ويعترف بعجزه عن مداناة شوقى كما يعترف بأنه أقل من أن يصل بشعره الى الخديوى فيقول:

لم يُبْقِ أحمدُ من قولٍ أحاوله فى مدح ذاتك فاعذرنى ولا تَعبِ
فلست ممن سمتْ بالشعر همتُه الى الملوكِ، ولا ذاك الفتى العربى

وينتقل بشعره الى مدح (ادوارد) و (فيكتوريا) و (هوجو) و (عبدالحميد).
طرق حافظ في سبيل غايته كلّ هذه السبل على ما رأيتَ وعاد منها كلها خائباً فحوّل وجهه ناحية اخرى وابتدأ بمدح شوقي نفسه ويطري شعره علّه يذكره يوماً بخير عند مولاه، وكم كان في هذه الامنية واهماً. واستمع اليه حين يقول في تهنئة الخديوي:

شوقي نسبتَ فما ملكتُ مدامعي ... من أن يسيل بها النسيبُ الشيق
أعجزتَ اطواق البيان بمدحةٍ ... سجد البيان لربها والمنطق
لم تتركا [1] لي في المدائح فضلة ... يجري بها قلمي الضعيف ويلحق
نفسٌ على شوقٍ لمدح أميرها ... ويراعتي بين الأنامل أشوق
ماذا أقول وانتما في مدحه ... بحران بات كلاهما يتدفق ؟
العجز أقعدني وان عزائمي ... لولاكما فوق السماء تحلق !

وهل تظن ان شوقي قد مُدِح في حياته أو أُبّن في مماته بأجمل من هذه الأبيات التاليـة التي كلل بها حافظ جبينه والتي تلمس فيها الحبّ والإخلاص والاعتراف بفضل ؟ واليك هذه الأبيات التي تسيل رقة وعذوبة:

يا شاعرَ الشرقِ اتّئدْ ... ماذا تحاول بعد ذاكْ
هذي النجوم نظمتَها ... دررَ القريض وما كفاكْ
والبدرُ قد علمته ... أدبَ المثول اذا رآكْ
وسموتَ في أفق الشعو ... رِ فكدتَ تعثر بالسماكْ
وحباكَ عباسُ المحا ... مدِ بالمواهبِ واصطفاكْ

وقلّ أن تجد مدحة خديوية له قد خلت من ذكر شوقي إمّا مادحاً له أو متوسلاً به عند مولاه — أفَلا أخفق حافظاً في مسعاه بعد هذا اللأْي المتواصل، وخاب فأله بعد ذلك الصبر الجميل، أفلا يصح أن يكون هذا الإخفاق وهاته الخيبة عاملين

(١) صبري وشوقي

قويين من عوامل بؤسه ؟ أعتقد أن بعض هذا كان كافياً للقضاء على نفسه لولا أنها جبارة فسيحة الآمال .

حسنات هذا البؤس وسيئاته

وإخال أن أول ما يواجهني به القارىء لو لم أُتْبِعْ هذا العنوان بما يوضحه ويبين رأيي فيه هو السؤال الآتي : وهل للبؤس من حسنات ؟

وأنا أرى وأحبّ أن يشاركني القراء فيما أرى أن حافظاً كله ثمرة من ثمار البؤس ويدٌ من أياديه الطيبة يقدرها له الأدب والمتأدبون . ولو تمثل البؤس للناس رجلاً لكان شاعرنا آخر أبنائه وأقربهم شبهاً به . والذين يتصدون مثلي لدراسة حافظ يرون أن شعره — وإن شئت فقل انتاجه عامّةً — يسير مع بؤسه جنباً إلى جنب ويتدرج معه في الوجود قوةً وضعفاً ويتبعه في الحياة وجوداً وعدماً ، ويرون أنه بين يدي بؤسه كالقيثارة الطيبة بين يدي العازف كلما قسا على أوتارها المشدودة علا رنينها وارتفع أنينها .

ألست تراه وهو ضابط بالمدرسة الحربية في مصر موفور العيش بين أهله وصحبه خافت الصوت لا نسمع به إلا في المناسبات — فاذا ما ذهب إلى السودان وحلّ به من العناء والعذاب ما علمت حرّكت أنامل البؤس هذه القيثارة فأنّ أنيناً عالياً سمعناه في مصر فحرك عواطفنا وأيقظ من آلامنا وأشجاننا ما كان منسياً ؟ ولولا ضنّنا بحياة الشاعر وحدبنا على شخصه وإشفاقنا عليه من عبء لم يتعود حمله لأبقيناه في السودان كذبالة المصباح تضيء للناس وهي تحترق !

ولو سايرتَ حياته ونظرت اليه بعد ذلك وقد عاد من السودان واستقال من عمله وقبع في كسربيته لا تصل يده الى قوته الا بعد لأي وعناء لرأيت كيف أوجد البؤس أمامه أكثر من باب ، وعلمه الاحتيال بطرقها ، والتدرع بالصبر والثبات وعدم اليأس مادام شاعراً ، والشعر مفتاح القلوب . وكان حيناً يمدح العظماء ويرثي موتاهم ، وأحياناً يغشى المجالس والأندية بشعره في مختلف الشئون حتى يبلغ رسالته ويشعر الناس به ، لعلهم يخرجونه من ظلمات البؤس الى نور السعادة والهناء .

وبعد ادراكه غايته المادية أمسك هذا البلبل الصدّاح عن التغريد وافتقدت الآذان

صوته عندما وُظِّف بدار الكتب فى العهد الأخير براتب لم يكن فى حسبانه يوماً ما ، ومكث أكثر من سبع سنوات دفيناً فى منصبه لا يحسّ بوجوده الا من اتصل به ! وما إن خرج من الدار مُحالاً الى المعاش حتى انطلق كما ينطلق العصفور السجين وعاود الغناء والتغريد ، فأسمعنا فى السياسة ونقد الانجليز مقطوعات جريئة لا عيب فيها سوى أنها كانت قصيرة العمر تحمل معها نُذر فنائه ، لهذا كله لا نرى بدعاً ولا حرجاً فى أن نقول ـ وحقّ ما نقول ـ أن حافظاً لو لم يكن بائساً لما كان شاعراً ، وانه مدينٌ الى البؤس بهذه الشهرة الواسعة ، ولولاه لما تسنى له أن يتقدّم الى الأدب بهذه الصورة الباكية التى تذيب الافئدة وتستدرّ عصى الدموع .

وقد قدمنا لك آنفاً أنه لم يدع سبيلاً يظن أنه يوصله الى الخديوى الا سلكه وكان يخفق . وكان فى كل مرة يخفق فيها تتفتح أمامه أبواب المعانى ويكدح فكره فى اختراع ألفاظ وطرق جديدة فى التعبير فيتنوع بذلك اسلوبه وترقى أخيلته وتتجدد معانيه ، وفى ذلك كله نموّ فى فكره وأثرٌ فى أدبه لا يقل عن أثر تقليده لشوقى فى مدح الدولة العثمانية وإطراء الخلافة يوم كانت ثم رثائها حين دالت ، وترسّم خطاه فيما كان ينظم فيه من أغراض . ولم يعرف عنه أنه اقتدى بشوقى فى غير هذه الناحية ، ولعله كان يعتقد أنها هى الطريق الذى ركبه شوقى الى مجده والسلم الذى صعد عليه .

أما سيآت هذا البؤس : فحسبك منها انها خلقت من حافظ شاعراً قانعاً متواضعاً مستهيناً بنفسه وبمكانته بين قومه ، وما كان من آثار ذلك ما نراه فى شعره من خضوع واحساس بالضعة ، ولولا هذا لما استباح لنفسه أن يقول :

ولستُ ممن سمت بالشعر همتُه　　　الى الملوك ولا ذالا الفتى العربى

وكان من نتائج هذا البؤس الذى يلازمه ما نراه من اسرافه فى مدح زميل له كشوقى ، فقد أغرق فى ذلك وأتى بما يعاب . ونحن اذا تسامحنا معه وقبلنا منه قوله فى استقباله :

هذا امرؤ قد جاء قبل أوانه　　　إن لم يكن قد جاد قبل أوانه

مع ما بينهما من قرب المسافة وضعف البون كما أسلفنا ، فما كنا لنتقبل منه بحال أن يرضى بالدون أو نستسيغ منه أن يصف نفسه بالضعة والصغار ويسجل عليها

العجز والتقصير فيقول فى رثاء (تولستوى) من قصيدة إن لم تكن أحسن من شوقية صاحبه فما هى بأقل منها :

رثاكَ أميرُ الشعر فى الشرق وانبرى لمدحك من كتاب مصر كبيرُ

ولستُ أبالى حين أرثيك بعده إذا قيل عنى قد رثاه صغيرُ

بل انى لأستنكر على رجل كحافظ يقول له الشاعر الكبير أحمد محرم :

أميرَ الشعر والشعراء سمعاً مقالة ذى محافظةٍ صدوق

لأنت المرء يشأى طالبيه فليس طلابُ شأوك غير مُوق!

ثم يأتى هو بعد أعوام من ذلك التاريخ وقبل أن تُنْسَى تلك المدحة العظيمة فيقول لشوقى فى مهرجانه :

أميرَ القوافى قد أتيتُ مبايعاً وهذى وفودُ الشرق قد بايعتْ معى!

ولا خلافة هناك ولا ملك ولا بيعة ! وكانت لذلك نتيجة عكسية من جانب شوقى، فقد أهمل صاحبه ونسى وجوده ولم يعترف له بموهبة ولا فضل ، وهكذا كان شوقى يحترم من يخافه ويتجاهل من يأمنه ولو كان أفضل الناس جميعاً .

وثمة أثر كان اسوأ لهذا البؤس ونتيجة بغيضة لا تقل عن سابقتها وتلك هى اتخاذ الشعر وسيلة للاستجداء واعتباره سلماً لغايات النفس وشهواتها ، وهذا لعمرى خطر داهم على الشعر والشعراء ، يحط من اقدارهم ويسوّي بينهم وبين المتسولين الذين يسألون الناس فى الطرقات الحافاً — وواجب على الكتاب والشعراء فى كل زمان ومكان ان يستهجنوا هذا النوع المهين من الشعر ويطاردوا قائليه — وكان ذلك على ما فيه من ضعة ومهانة شائعاً فى شعر حافظ يختتم به مدائحه ويذيل به رسائله إن نظماً وإن نثراً .

وأكبر ظنى انه لولا البؤس الذي أقضّ مضجعه وطغى على احساسه لما رضى أن ينسب إليه مثل هذا العجز الوضيع :

« أدرك فتاك فقد ضاقت به الحالُ »

ولما غفرنا له بأى حال قوله لممدوحه فى قصيدة هى تهنئة بعرس :

وكنْ لعليّ بهجةَ العرسِ انه   بعزّكَ فى الافراح تمتْ مزاياهُ
ولا تنسَ من أمسَى يقلب طرفه   فلم تر الا انت فى الناس عيناهُ

وانت ترى ان البيتين مع ما فيهما من تناقض واختلاف فقد شوّه الثانى منهما جمال الأول ومسح بهجته ورواءه . وكان من سيئات هـذا البؤس كذلك أن اتخذ شعر حافظ هذه الناحية الهادئة المتواضعة واصطبغ بهذا اللون القاتم فجاء خالياً من حماسة البارودى وفخره ومن زهو شوقى وكبريائه .

ومن يدرى كيف كان يؤول مستقبل حافظ لو أُتيح له من بلهنية العيش وسعادة الحياة ما أُتيح لصاحبه ولوحِظَ بتلك العناية التى لوحظ بها زميله .

ولقد كان حافظ يغنى فى بؤسه ويرى أنه من الغبن أن يشترك معه غيره فيه . لهذا آثر ان يحتمله وحده ، فلم يتخذ له صاحبة ولا ولداً ، ومات ولم يعقب سوى كتابين فى النثر هما كما يقول عنهما خير ما أخرج للناس فى هـذا العصر ، وديوانه المطبوع فى ثلاثة أجزاء وهو حرى بالدراسـة والتحليل — يقول شوقى رحمه الله فى تقريظه :

لا تسألوا الأصدافَ عما أودعتْ   فى هذه الأوراق كلّ عجيبِ

تلك صفحة من تاريخ حافظ ، إنْ لم تـكن قد استوعبت حياته فقد أضاءت أظلم ناحية فيها ، وكفى !؟

طلبه محمد عبده

المرأة فى شعر حافظ

لاتُعرف لأمةٍ نهضةٌ شاملة اذا حُرِمَتْ المرأةُ نصيبها من التأثير فى المجتمع. ومقياس منزلة المرأة الإشادة بها واعلان فضلها ونفوذها . وقد تـكون تلك الاشادة وذلك الاعلان بصور شتّى : كالدفاع عن حقوقها، وكالتغنّى بمآثرها فى بناء هيـكل الأمة ، وكالتغزّل بجمالها . فأين شعر حافظ من كل هذا ؟

لقد كان حافظ من مدرسة قاسم أمين المنتسبة الى بيئة الامام محمد عبده وهى

بيئة حرة مصلحة ، وحسبك من قاسم كتاباه عن « تحرير المرأة » و« المرأة الجديدة » ولذلك جاء شعر حافظ من أصوات الاصلاح العالية للمرأة فى غير تردد وإن كان فى اعتدال وتدبُّر وحذر . أليس هو القائل مخاطباً قاسماً :

أقاسمُ إنَّ القومَ ماتت قلوبُهم ولم يفقهوا فى السفر ما أنت كاتبُهْ

الى اليوم لم يُرفَعْ حجابُ ضلالهم فمن ذا تناديه ومَنْ ذا تعاتبُهْ ؟

فلو أنّ شخصاً قام يدعو رجالَهم لوَضْع نقابٍ لاستقامتْ رغائبُهْ !

ولو خطرتْ فى مصر حواءُ أمُّنا يلوح محيَّاها لنا ونراقبُهْ

وفى يدها العذراءُ يسفر وجهُها تصافح منّا مَنْ ترَى وتخاطبُهْ

وخلفَهما موسى وعيسى وأحمدٌ وَجيشٌ من الاملاكِ ماجت كواكبُهْ

وقالوا لنا : رفعُ النقاب محلَّلٌ لقلنا : نعم حَقٌّ ، ولكنْ نجانبُهْ !

وفى هذه الأبيات من التهكم اللاذع والسخرية بأنصار النقاب ما فيها . وقد لبث هؤلاء السادةُ مشغوفين بحوارهم ونقاشهم الى أن تولت المرأة نفسها الفصل بينهم ، فنزعت أخيراً نقابها فى غير تردد ، وفرغت من ذلك لتلتفت الى ما هو أهمّ — الى التعليم الجامعى، وإلى استرداد حقوقها فى ادارة شؤون الوطن وفى اختيار نواب الشعب ، ثم فى الاشتراك فى المستقبل بتمثيله البرلمانى . وهذه الروح الطامحة المتوثّبة مدينة الى حافظ ابراهيم كما هى مدينة الى قاسم أمين .

ولحافظ فى الأمومة وفى منزلة المرأة الاجتماعية من روائع الشعر ما يجب ان تذكره بنات جنسى دائماً بالحمد والتقدير . أليس حافظ هو القائل :

مَنْ لى بتربية النساءِ فانها فى الشرق علةُ ذلك الاخفاقِ

الأمُّ مدرسةٌ اذا أعددتَها أعددتَ شعباً طيّبَ الأعراقِ

الأمُّ روضٌ إنْ تعهّدَهُ الحيا بالرىّ أورقَ أيّما ايراقِ

الأمُّ أستاذُ الاساتذةِ الأُلى شغلتْ مآثرُهمْ مَدَى الآفاقِ

ليستْ نساؤكمو حُلىً وجَواهراً خوفَ الضياعِ تُصانُ فى الأحقاقِ

ليستْ نساؤكمو أثاثاً يُقتَنَى فى الدُّورِ بين مخادعٍ وطباقِ

ربّوا البناتِ على الفضيلة إنها | في الموقفين لهنّ خيرُ وثاقِ
وعليكمو أن تستبين نساؤُكمْ | نورَ الهُدَى وعلى الحياء الباقي

فهذه الأبيات نفثة مصلح حكيم ، ولكنه يصيح فى بيئة متأخرة لا يستطيع فيها أن ينصف المرأة الأ فى حقوقها الأولية . وما أظن أنّ الحرب أفسحت أفق حافظ ، ولو كانت فعلت لكافح عن المرأة المصرية كفاحاً أعظم ولحاول أن ينيلها من الحقوق ما نالته أختها الغربية وفى مقدمتها حق الانتخاب ، لان المرأة المصرية الفلاحة كانت وما زالت أحصف وأبعد نظراً من الرجل الفلاح ، وهى المدبّرة الحقيقية للاسرة المصرية ، فهى أولَى منه باستعمال الحق الانتخابى . ولم يكن حافظ ليفوته شيء خاص بالمرأة فسجّل حركتها السياسية إبّان الثورة فى نونيته المشهورة .

أمّا شعر حافظ الفنى فى المرأة فلا وجود له كأنما هو لم يعشق فى حياته ، ومعنى هذا حرمان الأدب العربى كنزاً ثميناً من عواطف حافظ المقبورة . وقد قرأتُ له شيئاً من الشعر الغزلى بعضه موجَّه الى المفرد المؤنث ومعظمه الى المفرد المذكر ، وكله فيما أعتقد من الغزلى الصناعى الميت .

وأين هذا مما نشرته (أبولو) لناجى وأبى الوفا والصيرفى والشّابى ولأمثالهم من شعراء العاطفة ؟ وقد اعتاد بعضُ الشعراء مخاطبة المرأة بضمير المذكر توجيهاً بالخطاب الى « المحبوب » المتسامى عن كل صفة ، ومن الجائز أن يُحتَجّ علىَّ بأن غزل المذكر فى شعر حافظ هو غزل طبيعى فى المرأة ، وقد تفرّستُ فيه تكراراً فلم ألمح ذلك فيه ، وانما كانت الصناعة تطلّ من كل بيتٍ من أبياته فى حين أنّ أبيات ناجى التالية المذكرة الضمير نمّامة عن العاطفة الجياشة الموجهة الى المرأة ، وهى فى قصيدته « المنسىّ » :

متى يرقّ الحظُّ يا قاسى | ويلتقى المنسىُّ والناسى ؟ !
مَتى ؟ ! وهل من حيلةٍ فى مَتى | وفى خيالاتٍ وأحداس ؟
هَدَّ قرارى جَرْيُها فى دمى | وهَمْسُها فى كَرّ أنفاسى !
وأنتَ مثلُ النجم فى المنتأَى | وفى السَّنا الخاطفِ كالماسِ
يرنو له الناسُ ويبغونه | وما يُبالى النجمُ بالناسِ !

وانتَ كاسُ الحُسْنِ لكنّنا مثلُ حَبابٍ حامَ بالكاسِ
طفا ! وقد قبّلَ أنوارَها ورفَّ مثل الطائرِ الحامى
وذاب أو جفَّ على نورها كما يذوب الطّلُّ بالآسِ !

وأمّا أبوشادى فى أغانيه ودواوينه فوكّل بعبادة المرأة ، ومثله رامى فى غزلياته (ولا أقول فى أدواره العامية فهى ليست موضوع بحث) ، فكيف لم تؤثر المرأة فى فى شخصية حافظ هذا التأثير ؟ ولماذا لم تؤثر كذلك فى نفسية شوقى ؟ هذه خسارة فنية لاشك فيها ، ولكنْ مهما يكنْ من شىءٍ فالمرأةُ مدينة الى شعر حافظ بجميلٍ عظيمٍ .؟

زينب سليم



تصويبــــات

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٠٣٣	١١	قال هذا	قال هذا له
١٠٣٣	١٢	وُفِّقَ للأرض	بَثّ في الأرض
١١٣٧	٥	ظلّ	ضلّ
١١٩٥	٢١	والانتباهاً	والانتباه
١٢٠٠	١٥	قاصرة	مقصورة
١٢٠٠	٢٩	القارى	القارىء
١٢٠٢	١٠	الثانى	الثانية
١٢٠٣	١٢	يفيد	يفسد
١٢٦٠	٨	النظ	النظر
١٢٦١	٢١	ثأثير	تأثير
١٢٦٣	١٨	ثأثيره	تأثيره
١٢٧٥	٣	قدَّ	مدَّ
١٣٠٥	٣	تلتظى	تتلظَّى
١٣٣١	١٥	وزى	وزى
١٣٧٢	٢١	ايران	ايرانى
١٣٨٧	٤	عدائى	عداتى
١٤٠١	١٦	العزر	العزيز
١٤٠٢	٧	يانفسى	يانفسى

